

جائزة السيد محمد

الرواية

القصة الفائزة بجائزة السيدة د قوت القلوب ، الأدبية

ألف

نجيب محفوظ

أحمدس بطل الاستقلال عبد الحميد جوده السجار مايو ٣.

رادويد ————— نجيب محف ————— وظ يوليه ١٩٤٣

أبو ذر الغف ————— اري عبد الحميد جوده السجار سبتمبر ١٩٤٣

عبر النيل

لاحت في الأفق الشرقى تباشير ذلك اليوم من شهر
بشنس ، المنطوى في أثناء الزمان منذ أربعة آلاف سنة . وكان
الكاهن الأكبر لمعبد الرب سوتيس يتطلع إلى صفحة السماء
بعينين ذابلتين ، أضناها التعب طوال الليل ، وأنه لفي تطلّعه
إذ عثر بصره بالشعري اليمانية ، يتألق نورها في كبد السماء ،
فتهلل وجهه بالبشر ، وخفق قلبه بالفرح ، وسجد على أرض المعبد
الطاهرة شكراً وزائفاً ، وصاح بأعلى صوته أن قد بدت صورة
الرب سوتيس في أفق السماء ، تحمل إلى الوادى بشرى فيضان
النيل المعبود ، وتسير بين يدي رحمته . وأيقظ صوته الجميل النيام ،
فهبوا من نومهم فرحين ، وقلبوا وجوههم في السماء ، حتى قرت
أعينهم على النجم المعبود ، فردّوا ترتيلة الكاهن ، وأفعمت
قلوبهم غبطة وامتناناً ، ثم تركوا ديارهم ، مهطعين صوب شاطئ
النيل ، يشهدون أول موجة حاملة للخير والبركة . وردد جو

مصر الهادىء صوت كاهن الرب سوتيس ، وأذاع البشرى
السعيدة فى الآفاق ، فعلم الناس أن قد آتت أوان الهجرة إلى
الجنوب ، للاحتفال بعيد النيل المقدس ، فحزموا أمتعتهم ، ونشطوا
خفافاً وثقالاً من طيبة ومنف وهرمونت وسوت وخمونو ،
يولون وجوههم شطر أبو العاصمة ، فنهبت العجلات الوادى ،
ومخرت السفن عباب الماء

كانت أبو عاصمة مصر ، يقوم بديانها الشاىخ على دعائم من
الصوان ، تؤلف بينها الكشبان الرملية ، وقد غشاها النيل بطبقات
من طميه الساحر ، بثت فيها الخصب والخير العميم ، وأنبتت
أرضها السنط والتوت والنخيل والدوم ، وكست سطحها البقول
والخضروات والبرسيم ، ونشرت فيه الكروم والمراعى والجنان
تجرى من تحتها الأنهار ، وترعاها القطعان ، ويطير فى سمائها
الحمام والطير ، ويتضوع نسيمها بشذا العطر والأزهار ، وتتجاوب
فى جوها أغاريد البلابل والأطيار .

فما هى إلا أيام معدودات ، حتى ضاقت أبو وجزيرتاها
ببيجه وبيلاق بالنازحين ، فامتلاأت البيوت بالنازلين ، وازدحمت
الميادين بالخيام ، وغصت الطرق بالغادين والرأىحين ، وانتشرت
حلقات اللاعبين والمغنين والراقصين ، وزخرت الأسواق

بالعارضين والبائعين ، وازدانت واجهات البيوت بالأعلام
وأغصان الزيتون ، وبهرت الأنظار جماعات من حرس جزيرة
بيلاق بثيابها المزركشة وسيوفها الطويلة ، وهرعت جموع القانتين
المؤمنين إلى معبدى سوتيس والنيل ، يوفون بالندر ، ويقدمون
القرايين ، واختلط غناء المنشدين بصياح السكارى الثمين
وشاع فى جو أبو الرزين فرح راقص ، وطرب حار بهيج
وجاء يوم العيد الموعود ، وقصدت هاتيك الخلائق جميعاً
إلى هدف واحد ، هو الطريق الطويل الممتد ما بين القصر
الفرعونى والفضبة القائم عليها معبد النيل ، فسخن الهواء
بأنفاسهم الحارة ، وناءت الأرض بحملهم ، ويئس قوم لا عداد
لهم من الأرض ، فهبطوا إلى السفن ، وأطلقوا الشراع ، وطافوا
بهضبة المعبد ، ينشدون أغاني النيل على أنغام المزمار والقيثار ،
ويرقصون على توقيع الدفوف

ووقف الجنود صفين على جانبي الطريق العظيم شاهرى
الرماح ، وقد نصبت على مساوآت متباعدة تماثيل بالحجم الطبيعى
لملوك الأسرة السادسة ، آباء فرعون وأجداده ، فرأى الأقربون
تماثيل الفراعين ، أسركرى ، وتبقى الأول ، وببى الأول ،
ومحتمساوف الأول ، وببى الثانى

وكان الجو يضح بأصوات القيم المختلطة ، فيضيع تميزها كما
تضيع الأمواج في المحيط المصطنع ، ولا يبقى منها إلا دوى
هائل شامل . ولكن كانت تعلو أحياناً أصوات جهيرة ، تخرق
الضوضاء ، وتبلغ الآذان ، يهتف بعضها قائلاً مجدوا الرب سوتيس
الذى بشرنا بالخير ، ويصيح صوت آخر : مجدوا النبل الرب
المقدس الذى يجلب إلى أرضنا الحياة والخصب . وبين هذا
وذاك ، ترتفع أصوات منادية على خمر مريوط ، وأنبذة آبو ،
داعية إلى السرور والذسيان

وكان جماعة من المشاهدين يتجاورون ويتفاصون نجياً ، تبدو
على وجوههم آى النبل والنعيم ، فقال أحدهم وهو يرفع حاجبيه
متأملاً متعجباً :

— كم من فرعون أطلع على هذه الجموع الحاشدة ، وشاهد
هذا اليوم العظيم ! ثم ذهبوا جميعاً كأنهم لم يكونوا ملء
الصدور ، ملء الأبصار والأفئدة !

فقال آخر : نعم ذهبوا ليحكموا عالماً ، أجل من هذا العالم
كما سذهب جميعاً . . . انظر إلى هذا المكان الذى أشغل . . . كم من
البشر سوف يشغله فى الأجيال المقبلة ، ويجدد الآمال والأفراح

التي تخفق في صدورنا الآن... ترى هل يذكرنا كما نذكرهم ؟
— إننا أكثر من أن يذكرنا مذكر... ألا ليت الموت لم
يكن

— وهل كان يسع الوادي تلك الأجيال التي ذهبت ؟
إن الموت طبيعي كالحياة... وما قيمة الخلود ما دمنا نشبع بعد
الجوع ، ونشيخ بعد الشباب ، ونسأم بعد المسرة ؟ ...
— فكيف يعيشون في عالم أوزوريس ؟ ...

— انتظر ستعلم ذلك بعد حين ...
وقال آخر باهتمام : هذه أول مرة يسعدني الرب برؤية
فرعون .

فقال له صاحبه : أما أنا فقد رأيته يوم التتويج العظيم منذ
أشهر في نفس المكان .

— انظر إلى تماثيل أجداده الأماجد .

— ستري أنه قريب الشبه بجده محتمساوف الأول ..

— ما أجمل هذا .

— أجل... أجل... إن فرعون شاب جميل ، لا نظير له

في طول القارع، وحسنه الجاهر... وتساءل أحد المتحدثين قائلا

— ترى ماذا يخاف حكمه ؟ .. أمسلات ومعابد أم ذكريات
غزو في الشمال والجنوب ؟

— إن صدق حدسي فهي الثانية ...

— ولله ؟

— لأنه شاب عظيم البأس .

فهز الآخر رأسه بحذر ، وقال :

— يقال إن شبابه من نوع جامح ، وإن جلالته ذو أهواء
عنيفة ، يغرم بالحب ، ويهوى الإسراف والبدخ ، ويندفع في
سبيله كالريح العاصفة ...

فضحك المستمع ضحكة خافتة ، وهمس قائلاً :

— وهل في ذلك ما يدعو إلى العجب ؟ . ما أكثر المصريين
الذين يغرمون بالحب ويهوون الإسراف والبدخ .. فما بالك
بفرعون ...

— صه ... صه ... أنت لا تدري من الأمر شيئاً ، ألم تعلم
بأنه اصطدم برجال الكهنوت منذ اليوم الأول لتوليته العرش ؟ .
إنه يريد المال لينفقه في تشييد القصور ، وغرس البساتين ،
والكهنة يطالبون بنصيب الآلهة والمعابد كاملاً ، لقد منحهم آباء
الملك نفوذاً وثراءً ، والملك الشاب ينظر إلى هذا بعين الطمع ..

— حقا إنه لأمر محزن أن يبدأ الملك حكمه بالاصطدام ..
— أجل ... ولا تنس أن خنوم حتب رئيس الوزراء ،
والكاهن الأكبر رجل حديدى الإرادة ، شديد المراس ، وهناك
أيضا كاهن منف ، تلك المدينة المجيدة التى لحقها الأفول على عهد
هذه الأسرة الجليلة ...

فارتاع الرجل لهذه الأخبار التى تصك أذنيه لأول مرة ،
وقال :

— إذا فلندع الأرباب جميعا أن تلهم أئرجال الحكمة والأتانة
والرأى السديد .

فقال الآخرون بإخلاص صادر من الأعماق : آمين ... آمين ...
ولاحت من أحد الواقفين التفاتة إلى النيل ، فلكز صاحبه
بمرفقه قائلا :

— انظر أيها الصديق إلى النهر ... لمن ياترى هذه السفينة
الجميلة الآتية من جزيرة يبيجه كأنها الشمس صاعدة من الأفق
الشرقى ؟ ...

فعطف صاحبه رأسه نحو النهر ، فرأى سفينة عجيبية ،
لا بالكبيرة ولا بالصغيرة ، خضراء اللون كأنها جزيرة

معشوشبة تطفو على سطح الماء ، تبدو مقصورتها على البعد
متعالية ، وإن قصرت العين عن رؤية ما بداخلها ، ولاح في
أعلى صاريها شراع متموج عظيم ، وانتظمت جانبيها حركة
مجاديف بديعة تنبعث من مئات الأيدي ... فاستولت الحيرة
على الرجل ، وقال :

— عسى أن تكون لموسر من أهل بيجه ...
وأصغى إلى حوارهما رجل قريب ، فحدهما بنظرة إنكار ،
وقال لهما : أراهن أيها السيدان على أنكما ضيفان ...
فضحك الرجلان معا ، وقال ثانيهما : صدقت يا سيدي
المحترم ، فنحن من طيبة ، واثنان من الآلاف التي ناداها العيد
المجيد قلبت هارعة إلى العاصمة من جميع البلدان ... هل تكون
هذه السفينة الجميلة لكبير من رجالكم البارزين ؟ ...
فابتسم الرجل ابتسامة غامضة ، وقال وهو يشير لهما بأصبعه
محذرا .

— ظبتما نفسا أيها السيدان الكريمان ، ليست هذه السفينة
لرجل من رجالنا ، ولكنها لامرأة ... أجل هي سفينة غانية
حسنة يعرفها حق المعرفة جميع أهل أبو ، وجزيرتها بيجه
وبيلاق ...

— ومن عسى أن تكون هذه الحسنة ؟ . . .

— رادوبيس . . . رادوبيس الفاتنة . مذكرة النفوس والأهواء
يها . . .

وأشار الرجل بيده نحو جزيرة بيضاء ، واستدرك :

— وهي تقيم هناك في قصرها الأبيض الساحر . . . هدفه
مشاق والمعجبين ، حيث يستبقون إلى نيل عطفها ، واستدرار
رحمتها . . . وعسى أن بسعفكم الحظ برؤيتها ، صانت الأرباب
لميكما عن التلف . . .

واتجهت أنظار الرجلين وسواهما من الواقفين إلى السفينة
مرة أخرى ، وقد بدا على الوجوه الاهتمام الشديد ، وكانت
السفينة تدنو من الشاطئ رويدا رويدا ، والزوارق توسع لها
طريقها على عجل ، وكلما عبرت ذراعا اختفت شيئا فشيئا وراء
الهضبة المقام عليها معبد النيل ، ومضى يغيب عن الأبصار
مقدمها ، ثم مقصورتها ، فلما أن اطمأنت إلى المرفأ لم يكن يرى
منها سوى أعلى صاريها وقلعة شراعها المتموج ، كأنه علم الحب
يظل القلوب والنفوس . . .

ومضت فترة وجيزة ، ثم رأت أربعة من النوبيين قادمين
من الشاطئ ، يوسعون في البحر المتلاطم طريقا ، يسير في أثرهم

أربعة آخرون يحملون على الأكتاف هودجا جميلا فؤرا
لا يحوزه إلا الأمراء والنبلاء ، جلست فيه عادة حسناء ، تستن
في طراءة إلى وسادة ، وتتكى على نمرقة بساعد بض ، وتمسك
بمناها بمروحة من ريش النعام ، تلوح في عينيها الجميلتين نظر
ناعسة حاملة ، تصوبها إلى الأفق البعيد في كبرياء سامية ، تفتح
الخلق أجمعين . .

وكان الركب الصغير يسير على دمل ، ترمقه العيون من كل
صوب ، حتى بلغ الصف الأول من المشاهدين ، وهناك مالت
المرأة إلى الأمام قليلا بحمد كالغزال ، ونثرت من فمها الوردى
كلمات تاقّت نفوس إلى سماعها ، فتوقف العبيد عن السير ،
ولزموا أما كنهم كأنهم تماثيل من البرنز ، وارتدت المرأة إلى
جلستها الأولى ، واستغرقت فيما كانت فيه من الأحلام ، ولبثت
تنتظر الموكب الفرعوى الذى لا شك جاءت لمشاهدته .

وكان ما يرى منها نصفها الأعلى . فاستطاع المجدودون أن
يشاهدوا شعرها الأسود الحالك السواد ، ينتظم على رأسها
الصغير فى أسلاك من الحرير اللامع ، ويهبط على كتفيها فى هالة
من الليل كأنه تاج إلهى ، ينبأج فى وسطه وجه مشرق مستدير ،
عانقت فيه أشعة الشمس خدين كالورد الينع ، وفما رقيقا مفترا

كأنه زهرة من الياسمين فى خاتم من القرنفل ، وعينين دجاوين
صافيتين ناعستين ، تلوح فيهما نظرة يعرفها الحب معرفة المخلوق
لخالقه ، فما رأتى وجه قبل هذا اختاره الجمال سكنا ومستقرا . . .
وقد قتن منظرها الناس كافة ، وحرك قلوب الشيوخ الفانية ،
فصوبت إليها من جميع الجهات نظرات نارية ، لو عثرت فى
طريقها بصوان لأذابته ، ورمقتها أعين النساء شذرا ومقتا ،
وسرى الهمس بين المحيطين بها ، وانتقل الحوار من فم إلى
فم . . .

— يا لها من امرأة فاتنة . . . !

— رادويديس . . . يسمونها بحق ربة الجزيرة !

— هذا جمال قهار ، لا يمكن أن يعصاه قلب .

— هو اليأس لمن يرى .

— صدقت ، فما وقعت عليها عيناي حتى قامت فى نفسى ثورة

جماعية ، ونثوت بأعباء ظلم قادح ، وأحسست بتمرد شيطاني ،

وصدت نفسى عما بين يدي ، وغلبنى على أمرى الخذلان والحزى
الأبدى . . .

— هذا أمر محزن . . . ليكأننى بها صورة للسعادة حقيقة بالعبادة .

— هى شر وويل !

- نحن أضعف من أن نحتمل مثل هذا الحسن القاهر .
- ألا رحمة للعاشقين . . .
- ألا تعلم أن عشاقها هم صفرة رجال المملكة . . ؟
- حقاً ؟ . . .
- إن حبها فرض على عليّة القوم ، كأنه واجب وطني . . .
- لقد شيد المعمار النابغة هنى قصرها الأبيض .
- وأثته بآيات منف وطيبة آتى حاكم جزيرة بيجه .
- مرحى . . . مرحى . . .
- وصنع تماثيل ونحت جدرانها . المثال النابغة هنفر .
- نعم . وأهدى تحفه الثمينة القائد طاهو ، رئيس الحرس الفرعوني .
- إذا كان جميع هؤلاء يتنافسون في حبها فمن السعيد الذي تستخلصه لنفسها ؟ . . .
- سل عن السعيد في هذه المدينة الشقية . . .
- لا أظن أن هذه المرأة تعشق أبداً .
- من أدراك ؟ . . عسى أن تعشق عبداً أو حيواناً
- كلا . . . إن جمالها هو القوة الجبارة . . . وما حاجة القوة إلى الحب ؟ . . .

— انظر إلى نظرة عينها الرفيعة القاسية .. إنها لم تذق

الحب بعد.

وكانت امرأة تصغى إلى هذا الحديث ، فضاق صدرها ،
وقالت بحفاء : ما هي إلا راقصة .. تربت في بؤر الفساد والمجون ،
ووهبت نفسها منذ الطفولة للخلاعة والغواية ، وأجادت فن
المساحيق ، فتبدت في هذا المظهر الخلاب الكاذب ..

فكبر هذا الكلام على أحد الرجال المفتونين فقال :

— معاذ الرب ياسيدتي ، ألم تعلمي بعد بأن جمالها الرائع ليس
كل ما وهبتها الآلهة من ثراء ؟ .. وأن توت لم تبخل عليها
بنور الحكمة والعرفان ؟ ..

— بخ .. بخ .. من أين لها بالحكمة والعرفان ، وهي تنفق
عمرها في إغواء الرجال ؟ ..

— قصرها يستقبل كل مساء جماعة ممتازة من الساسة والحكام
والفنانين ، فلا عجب أن تكون كما يشاع عنها من أعظم الناس
فهما للحكمة ، وأدراهم بالسياسة وأذوقهم للفن ...

وسأل سائل : كم عمرها ؟ ..

— يقولون إنها بنت ثلاثين .

— لا يمكن أن تجاوز الخامسة والعشرين .

— ليكن عمرها ما تشاء ، فهذا الحسين يانع قاهر ، يقسم أن لن يلحقه الذبول أبدا . . .

وعاد السائل يسأل باهتمام : ما منشؤها ، وما أصلها ؟ . . .
— علم هذا عند الأرباب . . . وكأني بها وجدت منذ الأزل في قصرها الأبيض بحزيرة بيجه !

وشقت الصفوف المتراسة بغتة امرأة غريبة ، كانت منحنية الظهر كالقوس ، تتوكأ على عصا غليظة ، منفوشة الشعر بيضاءه ، طويلة الأنياب صفراءها ، مقوسة الأنف ، حادة البصر ، يشع من عينيها نور مخيف ، يرسل من تحت حاجبين كشيئين أشبيين ، وكانت ترتدى جلبابا واسعا طويلا ، يضيق عند وسطها بمنطقة من الكتان . . . وصاح الذين رأوها .

— ضام . . . الساحرة ضام . . .

فلم تبالهم ، وسارت بقدميها الهزيلتين . كانت تدعى الاطلاع على الغيب ، وكشف الستار عن المستقبل ، وكانت تسخر قوتها المارقة لقاء قطعة من الفضة ، وكان المحيطون بها بين خائف منها ومتهكم بها . والتقت الساحرة في طريقها بشاب حدث ، فعرضت عليه أن تقرأ له صفحة الغيب ، ولم يمانع الشاب ، وكان في

الحقيقة ثملا يترنح في سيره ، لا تكاد تحمله ساقاه ، فدفع لها
بقطعة من الفضة ، وهو يرنو إليها بعينين نصف نأمتين ، وسأله
بصوتها الأجلش : كم عمرك يا غلام ؟ ..
فأجابها ، وهو لا يعي ما يقول :
— اثنتى عشرة كأسا ...

وعلا ضحك الساخرين ، فاهتاجت المرأة غضبا ، ورمته
بالقطعة التي نفحها بها ، واستأنفت مسيرها الذي لا ينتهى ،
واعترض سبيلها شاب ساخر ، وسألها بقحة .
— ماذا ينتظرني من الحادثات يا امرأة ؟ ..
فنظرت إليه مليا ، وهي مغيظة مخنقة ، ثم قالت له :
— أبشر .. ستخونك زوجك للمرة الثالثة ..

وضحك الناس وصفقوا لها ، وانزوى الشاب خجلا ، وقد
رد السهم إلى صدره . وسارت الساحرة حتى بلغت هودج الغانية ،
وطمعت في سخائها ، فتوقفت بإزائه ، وصاحت تحدث صاحبه
وهي تبسم ابتسامة كريهة .

— أيتها السيدة المحروسة بالعناية .. هل اقرأ لك الطالع ؟ .
ولم يبد على الغانية أنها سمعت صوت الساحرة ، فصرخت
لعجوز .

— مولاتى

وانتهت إليها رادوييس فيما يشبه الذعر ، ثم عطفت عنها رأسها سريعا ، وقد لمسها الغضب ، وقالت لها العجوز :

— صدقيني ما من إنسان فى هذا الجمع الحاشد يحتاج إلى اليوم حاجتك !

فتقدم منها أحد العبيد ، وحال بينها وبين الهودج ، وكاد الحادث على تفاهته يثير اهتمام القرابين ، ولكن سمع صوت بوق شديد يخترق الفضاء ، ووضع على أثره الجند المصطفون على جانبي الطريق الأبواق فى أفواههم ، ونفخوا فيها نفخا طويلا متصلا ، فعلم الناس جميعا أن الركب الفرعونى بدأ تحركه ، وأنه عما قليل يغادر فرعون القصر فى طريقه إلى معبد النيل ، فندى الجميع ما كانوا فيه وشخصوا إلى الطريق بأعناق مشرّبة ، وحواس مرهفة .

ومضت دقائق طويلة ثم بدت طلائع الجيش تسير صفوفها متراصة على أنغام الموسيقى الحربية تتقدمها حامية بلاق بعددها المتنوعة ، تسير وراء علمها المتوج بصورة الباز ، فكانت الجنود تقابل فى كل مكان بالهتاف والتصفيق . . .

وقفها بعد حين قليل فرقة المشاة حاملي الرماح والتروس ،

تأثر موسيقاها، وعلّمها المزدان بصورة الرب حورس ، وقد
استقامت الرماح في صورة هندسية دقيقة ، فرسمت في الهواء
خطوطا متوازية طولا وعرضا ...

وجاءت فرقة الرماة الكبرى حاملي القسي والسهام ،
واستغرق مسيرها فترة طويلة من الزمن ، يتقدمها علمها الموسوم
بصولجان العرش ...

ثم سمع من بعيد دوى وصلصلة وصهيل خيل ، ولاحت
للأنظار فرقة العجلات تنطلق عشرة عشرة في صفوف متوازية
دقيقة كأنما رسمت بالقلم ، يجر العجلة جوادان مطهمان ، ويقوم
على ظهرها فارسان ، سائق مزود بالسيف والمزراق ، ورام
مدرع يمسك قوسه بيد ويحمل جعبته بيد ، فذكر المشاهدون
لمرآها غزو النوبة وطور سيناء ، وخالوا أنهم يرونها تنتشر في
السهول والوديان كالنسور المنقضة ، والعدو يتشتت أمامها ، وقد
أذهله الرعب ، وأحاط به الهلاك ، فاشتعل الحماس في عروقهم
نارا ، وشق هتافهم السماوات ...

وبدا للناظرين الموكب الفرعوني المهيّب ، تتقدمه العجلة
الفرعونية ، وتتبعها مباشرة أهلة من العجلات خماسي خماسي ،
تحمل الأمراء والوزراء وكبار رجال الكهنوت والقضاة

الثلاثين وقواد الجيش وحكام الأقاليم ، واختتم الموكب بذييل
من الحرس الفرعونى على رأسه القائد طاهو . . .

ووقف فرعون فى عجلته منتصب القامة ، مهيب الطلعة ، كأنه
تمثال من الجرانيت لا يميل يمنة ولا يسرة ، ويصوب بصره
إلى الأفق البعيد غير ملتفت إلى الخلق جميعا ، ولا إلى هتافهم
الصاعد من أعماق القلوب . . . وكان يضع على رأسه تاج مصر
المزدوج ، ويقبض بيد على السوط الملكى ، وبالأخرى على
العصا المعقوفة ، وقد ارتدى فوق لباسه الملكى كساء من جلد
النمر احتفالا بالعيد الدينى . . .

وأفعمت القلوب حماسة وسعادة ، فتعالى الهتاف ، فكاد
لشدته أن يفرع الطير المحلق فى السماء . وأثار الخماس رادوبيس
نفسها فدبت بها حياة فجائية ، وأضاء وجهها بنور بهيج ،
وصفقت يداها الرخصتان . . .

وأفلت من بين الأصوات الهاتفة صوت يصيح على عجل :
« ليحي صاحب القداسة خنوم حتب » ، فردد هتافه عشرات
الأصوات ، وأحدث هتافه انزعاجا وأماج ضجة شديدة .
وتلفت الناس يبحثون عن الجسور الذى هتف باسم رئيس
الوزراء على مسمع من فرعون الشاب ، والجماعة التى ناصرت

هذا التحدى العجيب :

ولم يترك الهتاف أثرا ظاهرا ، ولم يبد على أحد من حاشية الملك أدنى تأثر ، وتبع الموكب سيره حتى بلغ هضبة المعبد ، فتوقفت العجلات جميعا ، وتقدم إلى عجلة فرعون أميران يحملان وسادة من ريش النعام مكللة بغطاء من نسيج ذهبي ، فترجل الملك عليها ، ونفخ في الصور ، فأدى الجند التحية العسكرية ، وصدحت موسيقى الحرس بنشيد تحية النيل المعبود ، وصعد فرعون درجات الهيمنة في تؤدة وجلال ، يتبعه وجوه مملكته من الأمراء والوزراء والحكام ، ولدى باب المعبد العظيم وجد الكهنة في استقباله سجدا ، ولما أعان كبير الحجاب سنفخات وصول الملك ، وقف رئيس كهنة المعبد وأخفى ظهره ، وأخفى عينيه بيديه ، وقال بصوت خافت :

— يتشرف خادم الرب المعبود النيل ، بإزجاء تحية العبودية والإخلاص إلى مولاي سيد القطارين ، بن رع ورب المشرقين ...

فأعطاه فرعون العصا المعقوفة ، فقبلها الكاهن في إجلال عميق ، وقام الكهنة واصطفوا صفين موسعين لفرعون ، فسار

جانب ، وطاقوا بالمدبح ، وكان الكهنة يحرقون البخور ، فينتشر أريجهم في جو المعبد ، وتنفسه الرؤوس المنكسة إجلالا وقتوتا . وأحضر بعض الحجاب ثورا ذبيحا ، ووضعوه على المدبح قربانا وزلنى ، ثم تلى فرعون هذه الكلمات التقليدية :

مثلت فى رحابك أيها الإله المقدس بعد أن طهرت
نفسى . وقدمت القربان زلنى إليك ، فامن بالخير
على أرض هذا الوادى الطيب ، وأهله الآمنين
ورددت الكهنة الدعاء فى صوت عال مؤثر . يفيض بالإيمان
والتقوى ، رافعين رؤوسهم إلى السماء ، باسطين أيديهم فى الهواء ،
وردد الحاضرون جميعا الدعاء ، وسرى الصوت إلى خارج
المعبد ، فسارع الناس إلى ترديده ، وما هى إلا هنيهة حتى لم يبق
لسان لم يلهج بدعاء النيل المقدس ، ثم سار الملك ، وفى معيته
كاهن المعبد ، ويتبعهما رجال المملكة إلى بهو الأعمدة ذى
الصحنون الثلاثة المترازية ، ووقفوا صفين بينهما الملك وخادم
الرب ، ثم رتلوا نشيد النيل المعبود بأصوات متهدجة ، تختلج
بخفقات القلوب ، فيرن صداها فى جو المكان القاتم المهيّب .

وصعد الكاهن الدرجات المؤدية إلى البهو الخالد ، واقترب
من باب قدس الأقداس ، وأبرز المفتاح المقدس ، وفتح الباب

العظيم وانتحى جانبا، وركع ساجدا يصلى ، وتبعه الملك ودخل الحجرة المقدسة حيث يرقد تمثال النيل فى السفينة الإلهية، وأغلق الباب . وكان المكان واسعا، شاهق السقف ، شديد الظلة ، قوى الأثر ، وعلى مقربة من الستار المسدل على تمثال الآلهة أقيدت الشموع على مناضيد من الذهب الوهاج . ونفذت هيئة المكان إلى قلب الملك الكبير، فوهنت حواسه ، وتقدم فى إجلال إلى الستار المقدس، وأزاحه بيده، وأخنى ظهره الذى لا ينحنى أبدا، وسجد على ركبته اليمنى واثم قدم التمثال . وكان ما يزال مهيبا، ولكن غابت عن وجهه أى مجد الدنيا وكبريائها ، واكتست صفحته بلون باهت من الخشوع والتقوى . . . وصلى فرعون صلاة طويلة ، واستغرق فى العبادة ناسيا مجده التالذ وعظمته الدنيوية .

ولما بلغ النهاية لثم القدم المقدسة مرة أخرى ، وقام واقفا وأسدل الستار الكريم ، وانسحب إلى الباب ووجهه إلى الرب، حتى تنفس هواء البهو الخارجى ، ثم أغلق الباب .
وحيا القوم فرعون بالدعاء، وساروا وراءه إلى بهو المذبح، وتبعوه إلى خارج المعبد، وعرجوا جميعا إلى حافة الهضبة المطلة على النيل ، ورآهم الأهلون المتجمعون فوق أسطح السفن ،

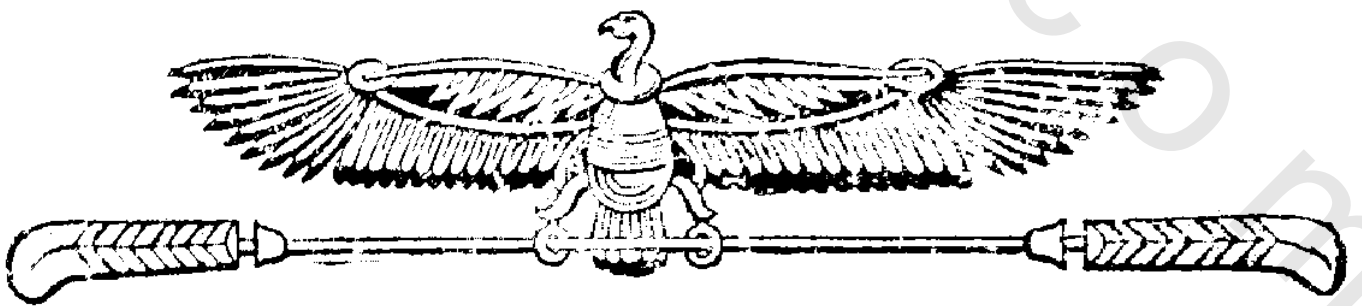
فتعالت أصواتهم بالهتاف ، ولوحوا بالأعلام والغصون ..
ودعى رئيس الكهنة إلى إلقاء الخطبة التقليدية ، فنشر بين
يديه ورقة طويلة من أوراق البردى ، وتلى بصوت قوى
النبرات :

— السلام عليك أيها النيل ، يا من يعم فيضيه الوادى بمشرب
بالحياة والسعادة ، إنك لتسكن الغياهب أشهراً ، فإذا أضحت
إلى توصلات عبادك ، ولأن قلبك الكبير رحمة بهم ، خرجت
من الظلمات إلى النور وانسبت فى بطن الوادى زائراً ، فتبعث
فى الأرض الحياة ، وسرعان ما تهتز النباتات طرباً ، وتفيض
الصحراء تحت بساط سندسى ، وتزدهر البساتين ، وتغنى المغارس ،
وتصدح الطير ، وتهتف القلوب بنشوة الفرح ، فيكسى العارى ،
ويطعم الجائع ، ويروى الصديان ، ويتزوج الأعزب ، وتتلفح
أرض مصر بالسعادة والمجد . . . تعاليت والمجد لك . . . تعاليت
والمجد لك . . .

ورتل كهنة المعبد أنشودة النيل على نغم القيثارة والمزمار
والناى ، وعلى توقيع الدفوف فى ألحان عذبة وأنغام شجية . .
ولما أن ضاعت الأنغام فى تضاعيف الفضاء ، تقدم الأمير
ناى من فرعون ، وأسلم إليه قرطاساً مختوماً من البردى ، يشتمل

على دعاء النيل المعبود ، فأخذه الملك ورفعاه إلى جبينه ، ثم تركه
يهوى إلى النيل فحملته أمواجه المتدافعة فى صخب صوب
الشمال ...

وهبط فرعون أدراج الحضبة ، وركب عجائته ، ورجع
الموكب كما أتى تحف به العظمة ، ويحوطه الجدد ، وتهتف له
قلوب الملايين من الرعايا المخلصين ، وقد أهاجهم الحماس ،
وأسكرتهم نشوة الطرب ...



الفصل الثاني

الصندل

عاد الموكب الملكي إلى السراى الفرعونية ، وظل الملك يحافظ على جلاله وهدوئه ، إلى أن خلا إلى نفسه ، فتبدى الغضب على وجهه الجميل بصورة وحشية ، وجبت لها قلوب الجوارى اللاتى يخلعن ثيابه ، فانتفخت أوداجه ، وتصلبت عضلات جسمه ، وكان سريع الانفعال شديد الغضب ، لا تطمئن نفسه حتى تنزل العقاب الصارم بمن أثارها ، وكان يدوى فى أذنيه الهتاف الآخرق ، فيظنه إنذاراً جريئاً موجهاً إلى رغباته ، فيشتد به الغضب وينذر بالويل والثبور . . .

وكان عليه أن ينتظر ساعة كاملة ، قبل أن يستقبل رجال مملكة الرسميين ، الذين جاؤوا من أقصى البلاد للاشتراك فى عيد النيل ، ولكنه لم يستطع صبراً ، فهرع كالريح الهوج إلى جناح الملكة ، واقتحم بابها بعنف . وكانت الملكة نيتوقريس جالسة بين وصيفاتها ، تلوح فى عينيها الصافيتين آى السلام والطمانينة ، فلما رأى الوصيفات الملك ، وشاهدن الغضب يصرخ فى وجهه ، وقفن مرتبكات مضطربات ، وانحنين له والملكة ، وانسجبن

عسرات لا يلوين على شيء . ولبثت الملكة جالسة هنية ، ترمقه بعينين هادئتين ، ثم قامت في جلال ، ودنت منه . ثم شبت على أطراف قدميها وقبالت كتفه وقالت :

— أغضب أيضا يادولاي ؟

كان يحس بالحاجة القصوى إلى إنسان يطلعه على النار الموقدة في دمائه ، فرتاح إلى سؤالها وقال بشدة :

— كما ترين يا نيتوقريس !

وكانت الملكة تشعر شورا قويا بعد درايتها بأخلاقه ، بأن أحبا الأول هو أن تذهب عنه حدة الغضب إذا أهاجه . فمالت بهدوء وهي تبتسم إليه :

— الحلم أحرى بالملك .

ولكنه هن كتفيه العريضين استخفافا وقال :

— أتوصيني بالحلم أيتها الملكة ؟ إنه لثوب زائف يتقنع به ضعفاء .

فقالت الملكة في تألم ظاهر :

— مولاي . . . لماذا تضيق بالفضائل ذرعا ؟

— أحقا أنا فرعون ؟ . . وهل حقا أتمتع بشبابى وقوتى ؟ . .

كيف إذا أريد ، ولا أستطيع نيل ما أريد ؟ . . كيف تنظر

عيناي إلى أراضى مملكتي فيتصدى لي عبد ويقول لن يكون هذا لك ؟ ...

فوضعت يدها على ذراعه وأرادت أن تجذبه إلى الديوان ، ولكنه تخاص منها ، ومضى يذرع الحجرة جيئة وذهابا ، غاضبا ساخطا فقالت باللهجة تنم على الأسف العميق .

— لا تصور الأمور لنفسك على هذا النحو ... وإذا كنت دائما أن الكهنة رعاياك المخلصون ، وأن أراضى المعابد كانت منحا تنازل عنها أجدادنا ولكنها اكتسبت صفة الحقوق الكاملة ، وأنت تريد يامولاي أن تستردها فمن الطبيعي أن يقلقوا ...

فقال الملك الشاب بحدة :

— أريد أن أشيد قصورا ومقابر ، وأن أتمتع بحياة سعيدة عالية ، ولا يقف في سبيل رغباتي إلا أن نصف أراضى المملكة في أيدي أولئك الكهنة ... أيجوز أن تعذبنى رغباتي كالفقراء ؟ ألا سمحنا لهذه الحكمة الفارغة ، أو تعلمين ماذا حدث اليوم ؟ ... لقد هتف نفر منهم في أثناء سير الموكب باسم ذلك الرجل خنوم حتب ... أرأيت أيتها المالكة ؟ ... أنهم يتحدثون فرعون عيننا لعين !

فاستولت الدهشة على الملكة، واصفر وجهها الوديع، وتمتمت
بكلمات غير مسموعة، فقال الملك بلمحة ساخرة مريرة :
— ماذا دهك أيتها الملكة ؟

أحست بلا شك بالزعاج واستياء، ولولا أن الملك غاضب
إلى حد الثورة لما حاولت أن تخفي غضبها، ولكنها تساطت على
انفعالاتها بارادة من حديد، وقالت بهدوء :

— دع هذا الحديث إلى وقت آخر، فإنك على وشك استقبال
رجال مملكتك وعلى رأسهم خنوم حتب، وينبغي أن
تقابلهم بالمقابلة الرسمية الكاملة . . .

فنظر فرعون إليها نظرة غامضة، وقال بسكينة مخيفة :
— إني أعرف ما أريد، وما ينبغي أن أفعل .

وفي الوقت المحدد، استقبل الملك رجال مملكته في البهو
الرسمي العظيم، واستمع إلى خطاب الكهنة. أراء حكام الأقاليم،
ولاحظ كثيرون أن الملك « لم يكن راضيا » . وحين تفرق
الجمع استبقى الملك رئيس وزرائه وحده، واختلى به زمنا غير
يسير. ومملكت الحيرة النفوس، ولكن لم يجرؤ أحد على التساؤل،
ثم ظهر رئيس الوزراء، وحاول كثيرون أن يقرؤوا صفة
وجهه، لعلهم يعثرون على بينة، ولكن وجهه كان جامدا

كالصخر لا يبين .

وأمر الملك مستشاريه المقربين ، سوختاب كبير الحجاب ، وطاهو رئيس الحرس ، أن يسبقاه إلى موضع سمرهم على شاطئ بركة الحديقة ، ودار في الممرات المعشوشبة ، يبدو على وجهه الأسمر الارتياح ، كأنه أرضى الغضب العنيف الذى طالبه بالتأثر منذ حين قليل ، فمشى الهوينى يستروح الشذا الطيب الذى تبعث إليه به الأشجار تحية وسلاما ، وينقل ناظريه بين الأزهار والثمار ، ثم اتخذ سبيله إلى البركة الغناء ، فوجد رجليه فى انتظاره ، سوختاب بحسبه النجيل الطويل ، ورأسه الأثيب ، وطاهو بحسبه القوى الغمولاذى الذى ترى على متون الخيل والعجلات . وحاول كلا الرجلين أن يقرأ صفحة وجه الملك بإمعان ليستكنه باطنه ، ويطنن على السياسة التى يشير باتباعها نحو الكهنة ، وكانا سمدا المهتاف الجرى ، الذى عد فى جميع الدوائر تحديا لسلطنة فرعون ، وكانا يترقدان له رجدا شديدا فى نفس الملك الشاب ، وعلموا بعد ذلك باستبقاء فرعون لرئيس وزرائه بعد انتهاء التشرىفات ، فخنق قلباهما ، وأشفق سوختاب من عواقب غضبة الملك ، لأنه كان ينصح دائما بالتؤدة والآنادة والصبر ، وبمعالجة مشكلة الإراضى بمنتهى الاعتدال ، أما طاهو

فكان يرجو أن يدفع الغضب الملك إلى الانضمام إلى رأيه ،
فيصدر أمره بنزع أملاك المعابد ، وينذر الكهنة إنذاراً
نهائياً ...

وجعل الرجلان المخلصان ينظران إلى وجه مولاهما. يرجوان ،
ويكابدان قلقاً أليماً ، ولكن فرعون كتم عواطفه ، وطالعهما
بوجه كأبي الهول ، وكان يعلم بما تضرب به نفسيهما ، وكأنه
رغب في أن يمدلها حبل الوسائس ، فجلس على أريكة في هدوء ،
وأمرهما بالجلوس ، وسرعان ما عاودت وجهه هيئة الجد
والاهتمام ، فقال :

— يحق لي اليوم أن أغضب وأتألم .

وفهم الرجلان ما يعنى ، ورن في أذنيهما الهتاف . جرى
مرة أخرى . فرفع سونخاتب يديه تألماً وإشفاقاً ، وقال بصوت
متهرج :

— تعالى مولاي عن دواعي الألم والغضب !

وقال طاهو بقوة :

— لا يجوز أن يألم مولاي وفي المملكة سلاح لا ينشلم ،

ورجال يفتدونهم بالأرواح . حقاً إن هؤلاء الكهنة على علمهم
وخبرتهم ، يتنكبون سبيل الرشاد ، ويركبون رؤوسهم ، ويعرضون

أنفسهم إلى تهلكة لا قبل لهم بها . . .
فأحنى الملك رأسه ناظرا إلى ما تحت قدميه . وقال :
— إني أتساءل ، هل قبول أحد من آبائي وأجدادي طوال
عهد حكمه يمثل ما قبولت به اليوم من هتاف ، وما مضى على
جلوسى سوى بضعة أشهر ؟ . . .

فالتفت عينا طاهر بنور خاضف مخيف ، وقال بيقين :
— القوة يا مولاي . . . القوة يا مولاي . . . كان أجدادك
المقدسون أقوياء ، يحققون إرادتهم بعزيمة كالجبال ، وسيف
كالقضاء ، كن مثلهم يا مولاي ، لا تتردد ولا تركن إلى الحلم ،
راضرب إذا ضربت ضربة شديدة لا تعرف الرحمة ، تذهل
الجبار عن نفسه ، وتخفق في صدره أوهى الأمل .

ولم يرق هذا الكلام ف عني الشيخ الحكيم سونغتاب ،
وذعر من حماس قائله ، وأشفق من عواقبه ، فقال :

— مولاي . . . إن الكهنة منبشون في أقطار المملكة كالدم
في الجسم ، منهم الولاة والقضاة والكتاب والمربون ، وسلطانهم
على القلوب مبارك بيد الأرباب منذ القدم ، وليس لدينا من
قوة حرية سوى الحرس الفرعوني وحامية بلاق ، فالضربة
القاسية قد تأتي بعواقب غير محمودة . . .

ولم يكن طاهو يؤمن بغير القوة ، فقال :
— وما عسى أن نفعل أيها المشير الحكيم ؟ .. أنستوصى
بالصبر حتى يقتحمنا عدونا ، ونرد في عينيه إلى الهوان ؟
— ليس الكهنة بأعداء لفرعون ، ومعاذ الرب ، أن يوجد
لفرعون من شعبه عدو ، فالكهنة طائفة مخلصنة أمينة ، وما تأخذ
عليهم إلا أن امتيازاتهم أكثر مما يقتضى الحال ، وأقسم أنى
ما يئست يوما من إيجاد الحل الموفق الذى يحقق رغبة مولاي ،
ويحفظ للكهنة حقوقهم . . .

وكان الملك يستمع إليهما فى هدوء ، وعلى فمه العريض
ابتسامة غامضة ، فلما أتم سونخاتب كلامه ، قال بهدوء وهو
يرمقهما بعينين ساخريتين :

-- أريحا نفسيكما أيها الرجلان المخلصان ، فقد أطلقت سهمي . .
واستولت الدهشة على الرجلين ، ونظرا إلى الملك فى إشفاق
وأمل وخوف ، وكان طاهو أدنى إلى الأمل ، أما سونخاتب
فامتقع وجهه . وعض على شفتيه ، وانتظار صامتا سماع الكلمة
الفاصلة ، وقال الملك بلهجة نمتت عن الزهو والتشفي .

— تعلمان أنى استبقيت الرجل بعد انصراف الناس جميعا ،
ولما أن خلا المكان ابتدرته قائلا أن الهتاف باسمه تحت سمعى

وبصرى عمل حقير خؤون، وأكدت له أنى لأعد الهاتفين من
شعبى النبيل الأمين، فرأيته يضطرب ويبهت، ويحنى رأسه الكبير
على صدره الضيق، وفتح فمه ليتكلم، ولعله كان يريد أن يعتذر
بصوته الهادىء البارد . . .

وقطب الملك جبينه، وصمت لحظة، ثم استطرد قائلاً بعنف :
— ولم أتركه يعتذر، فقطعت عليه بإشارة من يدي. وصارحته
بكلام صارم، مؤكداً له أنه من تفاهة العقل أن يظن مثل ذاك
التهافت يردنى عن رأى اعترمته . ثم أخبرته بأن نيتى انتهت إلى
ضم أملاك المعابد إلى أراضى التاج، وأنه لن يترك للمعابد منذ
اليوم إلا ما يقوم بحاجاتها من الأراضى والنذور . . .

وكان الرجلان يصغيان بكل حواسهما إلى حديث الملك، أما
سونخاتب فكان ممتقع اللون، منكفىء الوجه، يعانى مرارة الحمية،
وأما طاهو فكان متهاطلا فرحاً، كأنه يستمع إلى لحن جميل، يتغنى
بمجده وعظمته . . . واستدرك الملك قائلاً :

— لا شك أن قرارى أذهل خنوم حتب، وأخرجه عن
طوره، فبدا عليه الجزع، وتوسل إلى قائلاً أن أراضى المعابد
هى أراضى الأرباب، وأن خيراتها تعود فى الغالب إلى الشعب
والفقراء، وتنفق فى وجوه التعايم والتربية الخاقية، وحاول أن

يفيض ، ولكنى أوقفته بإشارة من يدي ، وقلت له إن هذه
هى إرادتى ، وأن عليه تنفيذها دون إبطاء ، وأذنته بانتهاء المقابلة .

فلم يتمالك طاهو أن صاح فرحا :

— باركتك الأرباب جميعا يا مولاي !

فابتسم الملك ارتياحا ، ولاحت منه نظرة إلى وجهه سوخاتب
فى ساعة خذلانه ، فأحس نحوه بعطف وقال له :

— أنت رجل مخلص يا سوخاتب ، ومشير نصوح . . . فلا
يحزنك أن خوئف رأيك .

فقال الرجل :

— لست يا مولاي من قوم مغرورين ، يغضبون أشد الغضب
إذا خوئفت نصيحتهم ، لا خوفا من العواقب ، ولكن ذودا
عن كراماتهم ، حتى ليبلغ الغرور بأحدهم أن يتمنى لو يقع شر كان
أنذره ، ليعرف من لا يعرف قدره . . أعوذ بالرب من شر
الغرور ، فما يدفعنى إلى محض النصيحة سوى الإخلاص ،
وما يحزنى حين مخالفتها سوى الإشفاق من صدق حدسى ،
وما أتمنى على الرب من شيء إلا أن يكذب رأيى ، ليطمئن
قلبي . . .

وكان فرعون أراد أن يطمئنه ، فقال :

— لقد نلت بغيتي ، وابن ينالوا شيئاً مني ، فمصر تعبد فرعون .

ولا ترضى عنه بدلاً . . .

فأمن الرجال على قول مولاهما بإخلاص . ولكن كان
سونخاتب مضطرباً ، يحاول عبثاً أن يقلل من خطورة الأمر
الذي أصدره فرعون ، ويذكر في ضيق صدر أن الكهنة
سيتلقون الأمر الشديد وهم مجتمعون في أبو ، فيتسع لهم المقام
لتبادل الرأي ، وتبث الشكوى ، فيعودون إلى ولاياتهم وقد
أطبقت أفواههم على التذمر والحزن . وأنه ليعلم علم اليقين من
هم الكهنة ، وما هو نفوذهم على القلوب والعقول . . . ولكنه
لم يبن عن آرائه ، لأنه وجد الملك فرحاً راضياً ضاحك الشجر .
فأشفق من تكبير صفوه ، وبسط صفحة وجهه ، ورسم على
شفتيه ابتسامة راضية .

وقال الملك بسرور :

— لم أشعر بمثل نشوة الظفر هذه منذ اليوم الذي انتصرت
فيه على قبائل المعصايو جنوب النوبة في حياة أبي ، فلنشرب نخب
هذا الفوز السعيد .

وجاءت الجوارى بأبريق من خمر مريوط وكؤوس ذهبية .
وصيبن الخمر ، وقدمن كؤوساً مترعات إلى الملك والرجلين

المخلصين ، فشرّبوا في صفاء وهناء . وعلّوا في نشوة ، وجعل
سوخفات يذب عن قلبه الخواطر المقلقة ، ليركز حواسه في
رحيق مريوط ، ويشترك الملك والقائد سعادتهما . وكانوا
جلوسا صامتين يتبادل أعينهم المودة والصفاء ، والبركة من تحتهم
يستحم في مائها الطرب شعاع الشمس المائل ، والأشجار من حولهم
ترقص أغصانها على شدو الأغاريد ، وتنشق الأزهار من بين
أوراقها انبثاق الخواطر السعيدة من غيايات النفوس . . .
واستسهبوا إلى نقطة ناعمة زمنا يسير يسير ، حتى انتبهوا على
حادثة غريبة انتزعهم من أحلامهم بعنف . إذ سقط شيء في
حجر الملك من عل . فانتفض واقفا ، وتبعه الرجلان ، فسقط
الشيء عند قدميه ، وإذا به صندل ذهبي ، ونظروا إلى أعلى
دهشين ، فرأوا نسرا هائلا يحلق في سماء الحديقة فوق رؤوسهم ،
ويبعث في الفضاء صرصره مخيفة ، ويصلبهم نظرات ملتفة من
عينين متقدتين ، ثم ضرب بجناحيه الهواء ضربة عنيفة حلق بها
في آفاق بعيدة . . .

وعادوا بالنظر إلى الصندل ، والتقطه الملك بيده ،
وجلس يتأمله بعينين مبتسمتين تلوح فيهما آي الدهشة ،
ونظر الرجلان إلى الصندل بغرابة ، وتبادلا نظرات الإنكار .

والدهشة والارتباب .

ومضى الملك فى تأمله ، ثم غمغم قائلاً :

— هذا صندل امرأة بلا ريب ، ما أجمله وما أئمنه . . .

وتساءل طاهو وعينه تلتهمان الصندل .

— ترى هل خطفه النسر ؟

فابتسم الملك قائلاً :

— لا يوجد فى حديقة شجر يتساقط منه نبت طيب

كهذا . . .

وقال سونغتاب :

— يعتقد العامة يا مولاي أن النسر يتعشق الحسان ، وأنه

يخدلف من العذارى من تهوى إليها نفسه ، ويطير بها إلى قمم

الجبال ، فلعل هذا النسر عاشق هبط منهف وابتاع الصندل لحبيته ،

ثم خانه الحظ فأفلت من بين مخالبه ، وسقط عند قدمى مولاي .

وجعل الملك يتأمله مسروراً منفعلاً ، ويقول :

— ترى كيف خطفه ؟ . . . أخشى أن يكون لإحدى

ساكنات السماء . . .

فعاد سونغتاب يقول باهتمام :

— أو لإحدى ساكنات الأرض يا مولاي ، خلعتة مع

ثيابها على شاطئ بركة ، وتعرت تستحم ، فجاء النسر وخطفه ..
— ورمى به إلى حجرى .. يا للعجب ، لكأنى به يعلم بحبى
الحسان !

فابتسم سوخاتب ابتسامة ذات معنى ، وقال :
— أسعدت الآلهة أيامك يا مولاي .

وتبدت الأحلام فى عيني الملك ، وابتسمت أساريره ، ولان
جبينه ، وتوردت وجنتاه ، وكان ينظر إلى الصندوق لتفارقة عيناه ،
ويسائل نفسه ترى من صاحبه ؟ وما صورتها ؟ وهل هى جميلة
كصندلها ؟ وكيف ، لا تدرى أن صندلها سقط فى حجر الملك ؟
وما شأن الأقدار التى نصبتة هدفاله ؟ .. وعثر بصره بصورة
منقوشة على باطنه ، فقال وهو يشير إليها :

— ما أجمل هذه الصورة . : إنه فارس وسيم ، يقدم قلبه هدية
على يده المبسوطة ..

ووقعت هذه العبارة من قلب الرجلين موقع الانتباه الشديد ،
فالتفت أعينهما بنور خاطف ، وتطلعا إلى الصندوق باهتمام عظيم ،
وقال سوخاتب :

— هل يتنازل مولاي لى عن الصندوق لحظة ؟
فأعطاهاه ، ونظر إليه كبير الحجاب ، كما نظر إليه طاهو ، ثم

رده الرجل إلى الملك وهو يقول :

— صدق حدسى يا مولاي .. هذا صندل رادوبيس غانية
بيجة الشهيرة .

فتساءل الملك قائلاً :

— رادوبيس .. يا له من اسم جميل .. من عسى أن تكون
صاحبه ؟ !

وساور القلق قلب طاهو ، واختلجت عيناه ، فقال :

— هى راقصة يا مولاي يعرفها أهل الجنوب جميعا ..
فابتسم فرعون وقال

— ألسنا من أهل الجنوب ؟ .. حقا إن الملوك قد تخترق
أعينها سجف الأفق القصى ، وتعمى عما يقع عليه ظلمها ...
واشتد القلق بطاهو ، فقال ، وقد امتقع لونه :

— إنها امرأة يامولاي قد طرق بابها رجال أبو وبيجة وبلاق .
وكان سونخاتب يعلم بما يساور قلب صاحبه من المخاوف ،
فقال وهو يبتسم ابتسامة غامضة ماكرة :

— على أية حال هى صورة أنثوية يا مولاي ، جعلتها الآلهة
آية على قدرتها وإعجازها .

فردد الملك ناظريه بين الرجلين ، وقال مبتسما :

— وحق الرب سوتيس إنكما لا أخبر أهل الجنوب بها . .

فقال سونخاتب بهدوء :

— إن بهر استقبأها يامولاي ملتقى أهل الرأى والفن والسياسة .

— حقا إن الجمال عالم ساحر ، يطالعنا كل يوم بالمعجزات ،

هل هى أجمل من رأيت ؟

فقال سونخاتب باطمئنان :

— هى الجمال عينه يامولاي ، هى فتنة قهارة ، وعاطفة لا تقاوم .

لقد صدق الفيلسوف هوف وهو من أصدقائها المقربين إذ قال

يوما : إنه من أخطر الأمور فى حياة الرجل أن تقع عيناه على

وجه راديس .

وتهدطاهو يائسا ، وحنج كبير الحجاب بنظرة خاطفة فهم

معناها ، ثم قال :

— إن جمالها يامولاي جمال شيطانى رخيص ، لا تضن به

عائطالب !

فضحك الملك بصوت عال ، وقال :

— كلا كما يغرينى وصفه . . .

فقال سونخاتب :

— ألا فلتروك سماء مصر بأجمل ما تظل من السعادة يامولاي .

ونزع خيال الملك به إلى النسر ، فتولاه عجب ساحر ، أضفى عليه ما سمعه نسيجاً رقيقاً من الفتنة والأحلام ، فتساءل وكأنه يحدث نفسه :

— ترى أحسن النسر في اختيارنا هدفاً له أم أساء ؟
واختلس طاهو نظرة عاجلة من وجه مولاه المكب على ما بين يديه ، وقال في حيرة :

— ما هي إلا مصادفة يا مولاي . وما يؤسفني إلا أن أرى هذا الصندل الملوث بين يدي مولاي المعبودتين .

ولحظ سونخاتب صاحبه بنظرة ساخرة متشفية ، وقال بهدوء :
— مصادفة ؟ .. إن هذه الكلمة يا مولاي مضمومة الحق ، يظن بها التخبیط والعمى ، ومع هذا فهي المرجع الوحيد لأغلب السعادات وأجل الكوارث ، فلم يبق الآلهة إلا القليل النادر من حادثات المنطق ، كلا يا مولاي ، إن كل حادثة في هذا العالم لا شك موكلة بإرادة رب من الأرباب ، ولا يجوز أن تخلق الآلهة الحادثات — جلت أو تفهت — عبثاً أو لهوا ..

فجن جنون طاهو ، وكظم بقوة تيار غضب جنوني كاد أن يحرف هدوءه في حضرة الملك ، وقال لسونخاتب بلهجة تنم على اللوم والتعنيف :

— أتريد أيها المعظم سونخاتب أن تشغل بال مولاي ، في هذه الساعة الجليلة ، بأمثال هذه الأوهام ؟

فقال سونخاتب بهدوء :

جـ إن الحياة جد ولهو ، كما أن اليوم نهار وليل ، والرجل الحكيم من لا يذكر في أوقات جده أسباب لهوه ، ولا يعكر صفوه بأمور جده . فمن أدراك أيها القائد ، فلعل الآلهة لسابق علمها بحب مولانا الجمال ، أرسلت إليه هذا الصندل على يد النسر العجيب . وقلب الملك عينيه في وجهيهما واستضحك قائلاً :

— أداما على اختلاف أيها الرجلان ؟ كما تشاءان . ولكن كان ينبغي أن أجد في طاهو الرجل مغرباً بالهوى ، وفي سونخاتب الشيخ زاجراً عنه . وعلى أية حال لا مندوحة لي من الميل مع رأى سونخاتب في الحب ، كما ملت إلى رأى طاهو في السياسة . . . وقام الملك واقفاً ، فقام الرجلان . وألقى نظرة على الحديقة الواسعة وهي تودع الشمس المائلة نحو الأفق الغربي ، وقال وهو يهيم بالمسير :

— أمامنا ليلة عمل شاقة . فإلى الغد ، واسوف نرى .

وذهب فرعون والصندل في يده ، فانحنى الرجلان في إجلال . ووجدوا نفسيهما منفردين مرة أخرى . فوقف كل منهما بإزاء

صاحبه ، طاهو بجسمه الطويل و صدره العريض وعضلاته
الفولاذية . و سونخاتب بجسمه الدقيق النحيل و عينيه الصافيتين
العميقتين وابتسامته الجميلة العظيمة . وكان كل منهما يحس :
يحتاج في صدر صاحبه ، فيبسم سونخاتب ، ويقطب طاهو جبينا
و لم يستطع القائد أن يودع الحاجب بغير قول ينفس به عن
صدره الكظيم ، فقال :

— غدرت بي أيها الصديق سونخاتب ، بعد أن لم تطق منازلة
وجهها الوجه

فرفع سونخاتب حاجبيه انكارا ، وقال :

— ياله من كلام بعيد عن الحق أيها القائد . مالى أنا والحب
ألم تعلم بأنى شيخ فان ، وأن حفيدى سنب طالب فى جامعة أوز
— ما أسهل تزوير الكلام عليك أيها الصديق ، والى
الحقيقة تهزأ بلسانك اللبق الحكيم . . . ألم يمل قلبك الفتى يو
إلى رادوبيس ؟ ألم يسؤك أن تهبنى عطفاً لم تظفر به أنت ؟

فرفع الشيخ يديه يستعيز من كلام القائد ، وقال :

— إن خيالك لا يقل قوة عن عضلات ساعدك الأيمن
والحق أنه إذا كان قلبى مال إلى هذه الغانية يوما ، فعلى طريق
الحكام المبرأة من الطمع !

— أما كان يحمل بك ألا تفتن خيال مولانا بحسنها
إكراماً لي؟

فبدت الدهشة على وجهه سوخفاتب ، وقال باهتمام وأسف
صادق :

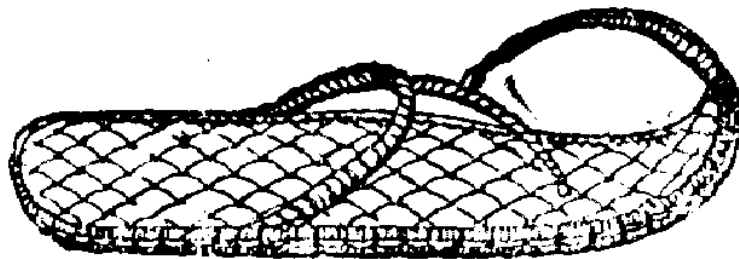
— أحق أنك تجد في الأمر جداً ؟ .. أم أنك ضقت
بدعابتي ذرعاً ؟

فقال طاهو بسرعة :

— لا هذا ولا ذاك أيها المعظم ، ولكن يسوءني فقط أن
تختلف دائماً .

فابتسم كبير الحجاب ، وقال بهدوءه الطبيعي :

— لن يزال يجمعنا رباط وثيق هو الإخلاص لصاحب
العرش !



الفصل الثالث

فصل بحجـة

غاب الموكب الفرعونى عن الأنظار ، ورفعت تماثيل ملوك الأسرة السادسة، فاندفع الناس من جانبي الطريق، فتلاطمت أمواجهم ، واختلطت أنفاسهم، كأنهم بحر موسى الذى انشق له طوعا ، وانقض على أعدائه كاسرا . فأمرت رادوبيس عبيدها بالعودة إلى السفينة . وكانت نشوة الحماس التى انبعثت فى قلبها لدى ظهور فرعون ما تزال تلتهب فى قلبها نارا ، وتندفع إلى أطرافها دما حارا . وكانت صورته لا تفارق خيلتها لشبابه الغض ، ونظرته المتعالية ، وقده الرشيق ، وعضلاته المفتولة .

وكانت رآته قبل ذلك فى يوم التتويج العظيم منذ شهور قلائل ، وكان يقف فى عجلاته كما وقف اليوم فارع الطول جاهر الجمال، مرسلا بناظره إلى الأفق البعيد ، وقد تمت يوم ذاك كما تمت اليوم لو عطف إليها عينيه .

ترى لماذا ؟ .. لأنها تطمع فى أن يفوز جمالها منه بما هو أهله من التكريم ؟ أم لأنها تود فى أعماقها لو تراه فى هيئة البشر بعد أن برأته فى قداسة الأرباب المعبودة ؟ كيف السبيل إلى

فهم هذا التمني ؟ .. على أنه مهما كانت حقيقته، فقد تمت صادقة،
وتمت مخرصة مشوقة ...

لبثت الغانية مستغرقة في غمرات أحلامها ، فلم تعن
بالالتفات إلى الطريق المزدحم الذى يجتازه ركبها الصغير بشق
الأنفس ، ولم تلق أدنى انتباه إلى الآلاف من الخلق الذين
يكادون أن يلتهموها بنهم وشراسة ، وصعد بها إلى السفينة ،
ونزلت من الهودج فى المقصورة ، واطمأنت إلى عرشها الصغير ،
وهى فى شبه غيبوبة تسمع ولا تعى ، وتنظر ولا ترى ...
وانسابت بها تشق وجه النيل الرزين ، حتى رست إلى سلم حديقة
قصرها الأبيض ، عروس جزيرة بيضاء . وكان القصر يرى عن
بعد فى نهاية الحديقة الياضعة التى تنتهى معارجها إلى سيف النيل ،
تحوط به أشجار الجميز ، ويحنو عليه النخيل كأنه زهرة بيضاء
نبتت فى أحضان تلك الجنة الوارفة ، فهبطت أدراج السفينة ،
ووضعت قدمها على أول درجات الحديقة ، وصعدت سلمها من
المرمر المصقول ، يمتد بين سورين من الجرانيت ، تنتصب على
الجانبين مسلات عالية نقشت عليها أشعار رقيقة لرامون حتب ،
إلى أن بلغت أرض الحديقة السندسية .

واجتازت بوابة من الحجر الجيري ~~التي~~ اسمها على واجهتها

باللغة المقدسة ، وقام في وسطها تمثال لها بالحجم الطبيعي ، نحته
هزفر ، وأقى فيه دهرًا جميلًا من أسعد أيام حياته ، يمثلها جالسة
على عرشها الجميل الذي تستقبل عليه المقربين ، ويكشف في
روعة فنية رائعة عن جمال الوجه ، وتكعب الشدين ، ورشاقة
القدمين ، ثم خلصت إلى ممر وسيط اصطفت على جانبيه الأشجار
تعانقت أعالي أغصانها ، فظلت عليه سقفًا من الأزاهر
والأوراق الخضراء ، وفريشت أرضه بالحشائش والأعشاب ،
وكانت توازيه عرضًا من اليمين والشمال ممرات جانبية قدت
على نفس الصورة ، تنتهي ذات اليمين إلى سور الحديقة الجنوبي ،
وذات الشمال إلى سورها الشمالي ، وكان هذا الممر ينتهي إلى
الكرمة المتفرعة المتسلقة على أعراس من عمد رخامية ، تنبسط
إلى يمينها غابة من الجميز ، وتمتد إلى يسارها غابة من النخيل
أقيمت فيها هنا وهناك بيوت القردة والغزال ، وانتشرت في
جنباتها المترامية التماثيل والمسلات

وانتهت بها قدماها إلى بركة واسعة من ماء غير آسن ، ينطلق
على شطآنها نبات اللوتس ، ويسبح على سطحها الأوز والبط ،
وتغنى في جوها الأطياف ، وقد انتشر شذى العطر وأريج الزهر
وغردت الب

ودارت حول البركة نصف دورة كاملة ، فصارت أمام
الحجرة الصيفية ، ووجدت في استقبالها جماعة من الجوارى
انحنين لها إجلالا ، ثم وقفن ينظرن أوامرها ، وأسدت
الغانية نفسها إلى أريكة مظلمة تستريح . . . ولم يطل بها المقام ،
فانتفضت واقفة ، وقالت لجوارىها . .

— كم ضايقتنى أنفاس القوم الحارة . . . وكم أرهقنى الحر . .
اخلعن ثيابى ، فقد تفتت إلى مياه البركة الباردة .
فدنت الجارية الأولى من سيدتها ، ورفعت بخفة خمارها
الموشى بالذهب ، نسيج منف الخالدة .

ثم تقدمت اثنتان فخلعتا العباءة الحريرية ، فكشفتا عن قميص
شفاف انحسر عما فوق النهدين وما تحت الركبتين . ثم تبعتهما
جارتان فسحبتا بيدين رقيقتين القميص السعيد ، وروعتا الدنيا
بحسد طليق ، خلقتة الآلة جميعا ، وادعاه كل لقدرته وفنه !

واقتربت جارية أخرى وحلت عقدة شعرها الفاحم ، فانساب
على جسدها ، وغشاه من الجيد إلى الرسغين ، وانحنت على قدميها
وخلعت صندلها الذهبى ، ووضعت على حافة البركة . ومشت الغانية
تتهادى ، وهبطت درجات البركة المرمية ~~على~~ ، ومضى الماء
يغمر القدمين ، فالساقين ، فالفخذين ، ثم ~~على~~ الماء الهادى .

يأخذ منه عطرا ويعطيه بردا وسلاما . واستسلمت لمذاعبة الماء في
رخاوة ، ولعبت فيه ما شاء لها الهوى والمرح ، وسبحت طويلا
تارة على بطنها ، وتارة على ظهرها ، وثالثة على أحد جانبيها .

وما كانت لتعير شيئا اهتماما ، لولا أن صك أذنيها صراخ
فزع يرسله جوارئها ، فتوقفت عن السباحة ، والتفتت إليهن ، فراعها
أن رأت نسرا هائلا يحلق على علو قريب من شاطئ البركة ،
ويرف بجناحيه ، فقرت من بين شفتيها صرخة فزع ، وغاصت في
الماء تنتنفص فزعا ورعبا ، وتصبرت بجهد جهيد ، وحبست
أنفاسها طويلا حتى أحست بالاختناق ، ونفدت قدرتها ، فرفعت
رأسها في خوف وحذر ، ونظرت فيما حولها وهي تخشى ، فلم تر
شيئا ، فنظرت إلى السماء فرأت النسر يولى بعيدا يوشك أن يلج
باب الأفق ، فسبحت إلى الشاطئ على عجل ، وصعدت الأدراج
مسرعة مضطربة ، ووضعت قدمها في إحدى زوجي صندلها ،
ولكنها لم تجد الأخرى ، وبحشت عنها طويلا ، ثم سألت :

— أين الأخرى ؟

فأجابها الجوارى في قلق

— خطفها النسر !

وتبدى الأصف على وجهها ، ولكنها لم تجد متسعا من الوقت

لإعلان سخطها ، فدلفت إلى الحجرة الصيفية ، والجوارى من حولها
وبين يديها يحفزن جسدها الغض ، تنحدر عليه نقط الماء كأنها
لؤلؤ ينتشر على أديم عاج .

ولدى الغروب تأهبت لاستقبال الضيوف ، وما أكثرهم في
أيام العيد التي تجذب الناس إلى الجنوب من كل صوب ، فارتدت
أجمل ثيابها ، وازينت بأفخر حليها ، ثم تركت المرأة إلى بهو الاستقبال ،
تنتظر القادمين وقد آن موعدهم .

وكان البهو آية من آيات الفن والعمارة ، بناه المعمار هني ،
وجعل صورته على هيئة بيضاوية ، وشيد جدرانه من الجرانيت
كبيوت الأرباب ، وكساه بطبقة من الصوان ذات ألوان تسر
الناظرين ، وكان سقفه مقببا تزينه الصور والتهاويل ، وتبدل
منه المصاييح المكففة بالذهب والفضة . .

وزخرف الجدران المثل هنفر ، وتنافس العشاق في تأنيثه
بإهداء المقاعد الوثيرة ، والدواوين الفاخرة ، والرياش الجميلة .
وكان عرش الغانية أبدع هذه التحف جميعا ، فهو من العاج الثمين
على قوائم من سن الفيل ، وقاعدته من الذهب الخالص المحلى

بالزمرد والياقوت ، وقد أهداه إياها آنى حاكم جزيرة بيجة . .
ولم يطل انتظار الغانية ، فدخل عبد من عبيدها ، وأعلن قدوم
السيد عانن تاجر سن الفيل . ودخل الرجل على الأثر يهرول
فى ثيابه الفضفاضة ، ويزهو بشمره المستعار ، يتبعه عبد يحمل
صندوقا من العاج المطعم بالذهب ، وضعه على كئشب من كرسي
الغانية ، ورجع من حيث أتى . وانحنى التاجر على يد رادوبيس ،
ولثم أناملها ، فابتسمت إليه ، وقالت بصوتها الخلو :

— أهلا بك أيها السيد عانن . كيف حالك . . أهكذا لا نراك
إلا كل دهر طويل !

فضحك الرجل سعيدا مسرورا ، وقال :

— ماذا أصنع يا مولاتى ! . . هى حياتى التى اخترتها أو التى
فرضتها الأقدار على ، أن أكون أخاسفر ، جواب أرض ، تتقاذقنى
البلدان ، فأقضى نصف عامى فى بلاد النوبة ، ونصفه الثانى ما بين
الجنوب والشمال ، أشتري وأبيع ، وأبيع وأشتري ، لا أعرف
لحياتى مستقرا !

فنظرت إلى الصندوق العاجى وهى لا تزال تبسم وسألته :

— وما هذا الصندوق الجميل ؟ أخال إنه هدية من هداياك

النفيسة !

— ليس الصندوق بالذات ، ولكن ما فيه . . . هو سن فيل
مفترس ، أقسم لى التاجر النوبى الذى ابتعته منه أن صيده كلفه
أربعة من رجاله الأشداء ، فحفظته فى مكان أمين ، ولم أعرضه على
الطالبين ، ولما ألقيت عصا الترحال فى تنيس ، دفعت به إلى أيدي
صائغيها المهرة ، فبطنوه بقشرة من خالص الذهب ، وطلوه من
الخارج ، فصار كأسا لا يشرب منها إلا الملوك . . . وقلت لنفسى
أحرى بتلك الكأس التى كلفت نفوسا غالية : أن تهدي إلى من
تبذل فى سبيلها النفوس العزيزة رخيصة ، وهى راضية . . .

فضحكت رادوبيس ضحكة رقيقة ، وقالت :

— شكرا لك أيها السيد عان . . . إن هديتك على نفاستها
لا تعدل بجمال حديثك !

فطرب أيما طرب ، ورننا إليها بعين ناطقة بالأعجاب والتوسل ،
وقال بصوت خافت :

— ما أجملك . . . ما أفنتك . . . كلما عدت من سفر طويل
أجدك أجمل وأفتمن مما تركتك ، وكأنى بالزمان ولا عمل له إلا
السمو بحسبك الفاتن .

وكانت تصفى إلى أطراء حسنها ، كمن يصفى إلى نعمة معادة ،
فطاب لها أن تهكم به فسأله :

— كيف حال أبنائك ؟ !

فأحس بشيء من الخيبة ، وصمت لحظة ، ثم انحنى على الصندوق ورفع غطاءه ، فبدا الكأس الجميل نائما على جانبه . ثم قال وهو يرفع رأسه إليها :

— ما ألدع سخريتك ياسيدتى . ومع هذا فلن تجدى شعرة بيضاء برأسى ، وهل تستطيع من تقع عيناه على وجهك أن يحتفظ في قلبه بأدنى حرارة لامرأة سواك !

فلم تجبه ، وما تزال تبتسم ، ثم دعتة للجلوس فجلس قريبا منها . واستقبلت على أثر ذلك جماعة من التجار وكبار المزارعين ، منهم من يتردد على قهقهة كل مساء ، ومنهم من لا تراه إلا في الأعياد والمناسبات ، فرحبت بهم بابتسامتها الفاتنة . ثم رأت المثال هنفر ياج باب البهو بقامته الرشيقة ، وحنجرة الناتئة ، وشعره المفلفل وأنفه الأفطس ، وكان من الرجال الذين تستخف ظلمهم ، فأعطته يدها ، ولثمها الرجل في حب عميق . وقالت تداعبه :

— أيها الفنان الكسول .

ولم يرض هنفر عن هذا الوصف فقال :

— لقد انتهيت من عملي في زمن قصير .

— والحجرة الصيفية ؟

— هي الباقية بلا زخرف ، وإنه ليؤسفني أن أقول لك بأنني
لن أزخرفها بنفسى .

فبدأ التساؤل على وجه رادوبيس ، فقال الرجل :

— سأرتحل بعد غد إلى بلاد النوبة ، لأن أمى مريضة ، وقد
بعثت إلى رسول يبلغنى رغبته فى رؤيتى ، فلم أر بدا من السفر .
— خففت الأرباب عنها وعنك .

فشكرها هنفر وقال :

— لا تظنى أنى نسيت الحجرة الصيفية ، فى الغد يأتيك أنبغ
تلاميذى بنامون بن بسار ، ويقوم بزخرفها على أكمل الوجوه ،
إنى أثق به ثقتى بنفسى ، ولعلك ترحبين به وتشجعينه . .

فشكرته على عنايته بها ، ووعدته خيرا .

واطرد تيار القادمين ، فجاء المعمار هنى ، وقفاه آنى حاكم
الجزيرة ، وتبعهما بعد حين قليل الشاعر رامون حتب ، وكان
آخر من أتى الفيلسوف هوف ، الذى كان فى يوم من الأيام
أستاذ جامعة أون الأكبر ، وقد عاد أخيرا إلى أبو مسقط
رأسه ، بعد أن نيف على السبعين من عمره ، وكانت رادوبيس
لا تفتأ تداعبه ، فقالت له وهى تستقبله :

— مالى إذا رأيته أشتهى أن أقبله ؟

فقال الرجل بهدوء :

— لعلك يا مولائي من غواة التحف القديمة .

ودخلت جماعة من الجوارى يحملن آواني من الفضة ملئت طيبا ، وباقات من أزهار اللوتس ، فدهن رؤوس الحاضرين وأيديهم وصدورهم بالطيب ، وأهدين إلى كل منهم زهرة من اللوتس .

وقالت رادوبيس بصوت عال :

— ألم تعلموا بما حدث لي اليوم ؟

فتطلع إليها الجمع بانتباه ، وسادهم الصمت ، فقالت باسمه :

— نزلت أستحم ظهر اليوم في البركة ، فهبطت نسر بغتة ، وخطف فردة صندلي الذهبي ، وطار بها .

فبدت الدهشة والابتسام على الوجوه ، وقال الشاعر

رامون حتب :

— إن رؤيتك في الماء عارية تهيج الطيور الكاسرة !

وقال عانن بحماس :

— أقسم بالرب سوتيس على أن النسر كان يتمنى لو ينطف

صاحبة الصندل .

فقلت رادوبيس آسفة :

— كم كان عزيزا لدى .

فقال هنفر المثل :

— من المحزن حقا أن يضيع شيء تمتع بلمسك أياما وأسابيع ،
وما مصيره في النهاية إلا السقوط ، وقد يسقط في حقل ناء
فتطأه قدم ريفية بسيطة !

فقلت رادوبيس بحزن :

-- مهما يكن مصيرة ، فلن يعود إليّ ..

وكان الفيلسوف هوف يعجب لحزن رادوبيس على صندل
تافه ، فقال يعزيها :

— على أية حال إن خطف النسر لصندلك قال حسن ،
فلا تحزنى .

فسأله أحد الأعيان المبرزين :

— وماذا ينقص رادوبيس من السعادة ، وجميع هذه الوجوه
من عشاقها ؟

فرد عليه الفيلسوف قائلا ، وهو يحدجه بنظرة ساخرة :

— ينقصها أن تتخلص من بعضهم !

ودخلت جماعة أخرى من الجوارى يحملن أباريق الخمر

وكؤوس الشراب الذهبية ، ودرن بها على الحاضرين كلما لاح العطش على واحد منهم روينه بكأس مترعة ، تطفئ الظمأ في النعم ، وتوقد النار في القلوب . وقامت رادوييس على مهل ، وسارت إلى الصندوق العاجي ، ورفعت الكأس العجيبة ، وودت بها يديها إلى الساقية وهي تقول :

— لنشرب نخب السيد عانن هديته الجميلة ، وعودته السالمة . فشربوا جميعا هنيئاً ، وشرب عانن كأسه حتى الثمالة ، وأرسل إلى الغانية نظرة امتنان وشكران ، ثم التفت إلى صاحب له ، وقال :

— أليس من كبريات النعم أن يجري ذكر اسمي على لسان رادوييس ؟

فآمن الرجل على قوله ، وتنبه عند ذاك الحاكم آنى إلى وجود السيد عانن ، وكان يعرفه ، ويعلم بأنه كان في رحلة في الجنوب ، فقال له :

— عود سعيد يا عانن ، كيف كانت سفرتك هذه المرة ؟

فأخى الرجل رأسه احتراماً ، وقال :

— حفظتك الآلهة من كل سوء أيها الحكم الجليل ، لم أتوغل

هذه المرة فيما وراء إقليم الواوايو ، وكانت رحلة موفقة موفورة

الخيرات مأمونة العواقب .

— وكيف حال صاحب السمو كارقرو حاكم الجنوب ؟

— الحق أن سموه يلقى متاعب جمة بسبب تمرد قبائل

المعصايو ، فهم يضمرون الكراهية للمصريين ، ويتربصون لهم ،

فإذا وقعوا على قافلة هاجموها بلا رحمة ، وقتلوا رجالها ، ونهبوا

تجارتها ، ولاذوا بالفرار قبل أن تبلغهم القوات المصرية .

فبدأ الاستياء على وجه الحاكم ، وسأل التاجر باهتمام :

— ولماذا لا يسير سموه إليهم قوة تأديبية ؟

— إن سموه لا ينفك يرسل قواته في أعقابهم ، ولكنهم

لا يواجهون القوات الحربية ، ويفرون في الصحارى والغابات ،

فتضطر القوات إلى العودة بعد نفاد المؤن ، ويستأنف العصاة

غاراتهم على طرق القوافل .

وكان الفيلسوف هوف يصغى بانتباه إلى كلام عانن ،

وكانت له خبرة ببلاد النوبة ، وكان على علم واف بقضية

المعصايو ، فسأل التاجر قائلاً :

— لماذا يصر المعصايو دائماً على العصيان !... إن البلاد

المشمولة بحكم مصر تتمتع في ظله بالطمأنينة والرفاهية ، ونحن

لا نتعرض لعقائد غيرنا ، فلماذا يناصبونا العداوة ؟ !

ولم يكن عائن يعنى بمعرفة الأسباب ، وظن أن نفاسة التجارة هي التي تغرى النوم بالانقضاء عليها ، ولكن الحاكم آنى كان متبحرا في هذه المسائل ، فقال للفيلسوف :

— الحق يا سيدى الأستاذ أن العصيان لا يرجع إلى أسباب سياسية أو دينية ، وحقائق المسألة أن القوم قبائل رحالة ، يعيشون في أرض جدياء ، ويهددهم الجوع في كل حين . وبين أيديهم كنوز من الذهب والنخعة لا تغنى ولا تشبع من جوع ، فإذا انبرى المصريون لاستثمارها ، هاجموهم ونهبوا قوافلهم . . . فقال هوف :

— إذا كان الأمر كذلك ، فالحملات التأديبية عديمة الجدوى ، وإنى أذكر يا سيدى الحاكم أن الوزير أونا — تقدرت روحه في عالم أوزوريس — منى نفسه يوما بعقد معاهدة معهم على أساس المنفعة المتبادلة ، فيمددهم بالغذاء في مقابل أن يؤمنوا له طرق القوافل . . . منى فكرة ثاقبة أليس كذلك ؟

فهز الحاكم رأسه دلالة على الموافقة ، وقال :

— لقد أحيا رئيس الوزراء خنوم حتب مشروع الوزير أونا ، وعقد المعاهدة قبل عيد النيل بأيام ، وإن نعرف نتيجة سياسته قبل زمن طويل ، والمتفائلون كثيرون . . .

وكان الحاضرون ملوا سريعا حديث السياسة ، فانقسموا
حلقات ، ومنهم عائن ، وشتمهم شجون الحديث ، وحاولت كل
حلقة أن تجذب رادوبيس إليها ، ولكن الغاية جذبها ذكر اسم
خنوم حتب ، وذكر الهتاف الذى دوى باسمه فى أثناء سير
الركب الفرعونى ، فعاودها استيلاء غمرها وقتذاك ، وأحسست
بلفحة غضب ، فدلفت إلى حيث يجلس آنى ، وهوف ، وهنفر ،
وهنى . ورامون حتب ، وقالت بصوت خافت :

— ألم تسمعوا ذلك الهتاف العجيب ؟

وكان زوار القصر الأبيض أخوة ، لا تقوم بينهم كلفة ، ولا
يعقل ألسنتهم خوف . وكانت أحاديثهم تتناول كل شىء فى حرية
مطلقة ، وطمأنينة كاملة . وقد سمع هوف مرات ينتقد سياسة الوزراء ،
كما سمع رامون حتب وهو يبدى شكوكه وخاوفه من . . . تعاليم
اللاهوت ، ويعلن عن إيمانه باللذة ويدعو إلى متاع الدنيا .
وتناول المعمار هنى جرعة من كأسه ، وقال وهو ينظر إلى
وجه رادوبيس الجميل :

— إنه هتاف جريء لم يسمع بمثله من قبل فى وادى النيل .
فقال هنفر :

— نعم ولا شك أنه كان مفاجأة مخزنة لفرعون الشاب فى

أول عهده بالحكم :

وقال هوف بهدوء :

— لم تجر العادة قط بأن يهتف باسم إنسان ما مهما كانت مكانته ، في حضرة فرعون !

فقالت رادوبيس باهجة دلت نبراتهما على الغضب :

— ولكنهم خرقوا هذه العادة بمنتهى الوقاحة .. لماذا أقدموا على ذلك أيها السيد آنى ؟

فرفع الرجل حاجبيه الكشيفين ، وقال :

— أراك تسألين عما يتحدث عنه الناس فى الطرقات ... فكثير من العامة يعلم الآن أن فرعون يرغب فى أن يضم كثيرا من أملاك المعابد إلى أملاك التاج ، وأن يسترد المنح الواسعة التى أسبغها آباؤه وأجداده على رجال الكهنوت .

وقال الشاعر رامون حتب بلهجة لم تخل من عنف :

— كان الكهنة دائما موضع عطف الفراعنة ، يقطعونهم الأراضى ، ويهبونهم الأموال ، حتى صاروا يملكون ثلث الأراضى المنزرعة ، وتغلغل نفوذهم فى الأقاليم ، وبسط على الرقاب ، ولا شك أن هنالك وجوهاً من المنافع أحق بالمال من المعابد ...

فقال هوف :

— يزعم الكهنة أنهم يصرفون ريع الأراضى على أعمال الإحسان والبر، ويصرحون دائماً بأنهم يتنازلون عن أملاكهم عن طيب خاطر إذا دعت الضرورة إلى ذلك .

— وما هذه الضرورة ؟

— أن تشتبك المملكة فى حرب مثلاً تحتاج للإنفاق الكثير .

ففكرت الغانية قليلاً ، ثم قالت :

— لا يجوز على أى حال أن يناهضوا رغبة الملك .

فقال الحاكم آنى :

— لقد تورطوا فى خطأ بالغ ، وفوق ذلك فهم يبدون

دعوتهم فى الأقاليم ، ويدخلون فى روع الفلاحين أنهم يدافعون

عن أملاك الأرباب المعبودة . . .

فتساءلت رادوبيس دهشة :

— كيف تؤاتىهم شجاعتهم ؟ !

فقال آنى :

— البلاد فى سلام ، والحرس الفرعونى هو القوة المسلحة

الوحيدة التى يعتد بها ، والكهنة تؤاتىهم شجاعتهم إذا أيقنوا أن

قوة فرعون غير كافية !

فتضيق رادوبيس وقالت بحق :

— يا لهم من أوغاد !

فابتسم الفيلسوف هوف ، ولم يكن يرضى أن يحبس رأيا فقال :

— إن أردت الحق فالكهنة طائفة مطهرة ، تسهر على دين هذه

الأمة وآدابها وتقاليدها الخالدة ، أما الطمع في السلطان فداء قديم ،

فخدجه الشاعر رامون حتب بنظرة تحذير ، وكان مغرما بإثارة

الزوابع ، وسأله في اقتضاب :

— وخنوم حتب ؟ !

فهز هوف منكبية استهانة ، وقال بهدوءه الغريب :

— هو كاهن كما ينبغي ، وسياسي نافع ، وليس من ينكر عليه

قوة الإرادة ، ونفاذ البصيرة .

وتلملم الحاكم آني ، وهز رأسه بشيء من العنف ، وقال :

— لم يثبت إلى الآن إخلاصه للعرش !

فقالت رادوبيس بحدة :

— بل أعان غير ذلك !

ولم يكن الفيلسوف يوافقهما ، فقال :

— أنا أعرف خنوم حتب جيدا ، وهو بلا شك مخلص

لمولاه ولوطنه .

فقال آنى بفراية :

— لم يبق إلا أن تصرح بأن فرعون مخطيء .

— كلا . . . إن فرعون شاب سامى الآمال ، يرغب فى أن
يسكسو بلاده حلة من البهاء ، ولأن يتأتى له ذلك إلا بالاستعانة
بجانب من موارد الكهنة .

فتساءل رامون حتب فى حميرة شديدة :

— فمن المخطيء إذا ؟ !

فقال هوف :

— عسى أن يخلف اثنان وكلاهما على حق !

ولكن رادوييس لم ترح إلى تفسير الفيلسوف ، ولم ترض
عن الموازنة التى يجريها بين فرعون ووزيره ، كأنهما ندان ،
وكانت تؤمن بحقيقة ثابتة ، وهى أن فرعون سيد البلاد دون
منازع ، وأنه لا تجوز مخالفته بأى حال ، ولأى سبب ، ونفر قلبها
من كل رأى يخالف عقيدتها هذه ، وصرحت برأىها لأصحابها ،
وختمت كلامها بقولها :

— إنى أعجب متى آمنت بهذا الرأى ؟ !

فقال رامون حتب مداعبا :

— حين وقعت عيناك على فرعون لأول مرة . . . لا تفرطى

فى العجب فالجمال مقنع كالحق سواء بسواء .

وضاق صدر المثال هنفر فصاح بصوت مسموع :

— أدرن الكئوس أيتها الجوارى ... وهلى أيتها الغانية
رادوبيس أسمعينا لحنا شجيا ، أو سعى أعيننا بحركة من الرقص
الرشيق ، فإن نفوسنا التى أسكرتها خمر مريوط ، وهياها العيد
للفرح والمسرة ، لتتوق إلى نشوة الطرب ولذعة المجون ...

فضربت عنه صفحا ، وأرادت أن تسترسل فى حديثها ، ولكن
لاحت منها التفاتة إلى التاجر عان ، فرأته كالنائم ، وكان منفردا
بعيدا عن الجماعات ، فتذكرت أنها أطالت المكث فى حلقة
آنى ، فانسحبت من بينهم وسارت إلى التاجر ، وصرخت فى
وجهه « اصح » فانتبه الرجل فزعا ، ولكن سرعان ما أشرق
وجهه لرؤيتها ، فجلس إلى جانبه وسأله :

— أكنت نائما ؟

— بل كنت أحلم .

— آه ... فيمه ؟

— فى ليالى بيجة السعيدة . وكنت أسائل نفسى حيران ترى

هل أفوز اليوم بإحدى هاتيك الليالى الخالدات ؟ ! أيمكن أن
أظفر الآن بمجرد وعد !

فهزت رأسها أن لا ، فجزع ، وسألها بخوف واشفاق .

— لمة ؟

— قد تطلبك نفسى ، وقد تطلب غيرك ، فلم أقيدها بوعده

خائن ؟ !

وتركته إلى جماعة أخرى كانت منهمكة فى الحديث والشراب ،

فرحبوا بها فيما يشبه الصياح ، وأحاطوا بها من كل جانب ، وقال
واحد منهم يدعى شامة :

— ألا تشتركين معنا فى الحديث ؟

— وفيم تتحدثون ؟

— يتسامل بعضنا عما إذا كان الفنانون أهلا للتكريم

الذى يحبوهم به الفراعنة والوزراء .

— وهل أجمعتم على رأى ؟

— نعم بامولآتى . . . على أنهم لا يستحقون شيئا .

وكان شامة يتكلم بصوت مرتفع لا يبالى شيئا ، فنظرت

رادوييس إلى حيث يجلس الفنانون ، رامون حتب ، وهنفر ،

وهنى ، وضحكت ضحكة ساخرة ذات جرس فائن ساحر ، وقالت

بصوت يبلغ آذان الفنانين :

— ينبغى أن يكون هذا الحديث عاما . ألا تسمعون أيها

السادة ما يقال عنكم . . . يقال هنا إن الفن غرض تافه . وإن الفنانين غير أهل للتكريم . . . فما رأيكم ؟ !

وعلمت قم الفيلسوف الشيخ ابتسامه ساخرة ، أما الفنانون فقد نظروا إلى الجماعة التي تستهين بهم نظرة متعالية ، وابتسم هزئهم ابتسامه هزء ، أما رامون حتب فاصفر وجهه غضبا ، لأنه كان شديد التأثير . وكان شامة معجبا بما يقول لأصحابه فأعاد قوله بصوت عال قائلا :

— إني رجل عمل وجد . أضرب الأرض بيد من حديد ، فتذل وتبذل لي خيراتها من الأنعم السابغة ، فأفيد ويفيد معي آلاف من المحتاجين . كل هذا دون حاجة إلى قول موزون أو لون براق . . .

وأدلى كل من الرجال بدلوه ، إما للتنفيس عن حقد طال حفظه ، أو لمجرد الثثرة والإعلان عن النفس ، فقال أحد الكبار يدعى رام :

— من الذى يحكم ويسوس الناس ؟ . . . من الذى يفتح البلدان ويغزو المعازل ؟ . . . من الذى يجلب الثروة والخيرات ؟ . . . أناس غير الفنانين بلا ريب . . .

وقال عانن وكان سريع التلمية للخمر :

— إن الرجال يهيمون بحب النساء ، ويهذون بذكرهن في خلواتهم ، أما الشعراء فيسطرون هذيانهم في كلام موزون ، وإلى هنا لا يجد العاقل ما يؤاخذهم عليه إلا إنهم يضيعون وقتهم فيما لا طائل تحته ، ولكن السخافة والخرافة أن يطلبوا لهذيانهم ثمتا من المجد والخلود .

وقال سامة مرة أخرى :

— ويكذب آخرون كذبا طويلا منظما ، ويهيمون في وديان بعيدة ويستوحدون الأشباح والأوهام ، يزعمون أنهم رسل وحى كريم ... والأطفال تكذب كذبهم ، وكثير من العامة ، ولكنهم لا يزعمون شيئا .

فضحكت رادوبيس طويلا ، وانتقلت من مجلسها إلى قريب من هنفر وقالت له هازئة :

— ويحك أيها الرجل ... لماذا إذا تسير مختالا نغورا كأنك بلغت الجبال طولا ؟

فابتسم المشال ابتسامة صفراء ، ولكنه لازم الصمت كصاحبيه تعاليا منهم عن الرد على « المتهمين بغير علم » ، وإن انطوى كل منهم على غضب شديد ، وكرهت رادوبيس أن تنتهى المعركة عند ذلك ، فالتفتت إلى الفياسوف هوف ،

ووجهت إليه هذا السؤال :

— وما رأيك أنت أيها الفيلسوف في الفن والفنانين ؟

— الفن لهو ولعب ، والفنانون لاعبون مهرة .

ولم يستطع الفنانون أن يخفوا غضبهم ، فلم يملك الحاكم أنى نفسه من الضحك ، وتصايح التجار والملاك فرحين .

وصاح رامون حتب بغضب :

— أتريد أيها الفيلسوف أن تكون الحياة جداً خالصة ؟

فهر الشيخ رأسه في هدوء ، وقال والابتسامة لا تفارق

شفتيه :

— كلا ، ما إلى هذا قصدت . فاللعب ضرورة ، ولكن ينبغي

أن تذكر أنه لعب .

فسأله هنفر بتجد :

— هل الإبداع الملهم لعب ؟

فقال الفيلسوف باستهانة :

— أنت تسميه الإلهام والإبداع ، أما أنا فأعلم أنه لعب

الخيال .

ونظرت رادويديس إلى المعمار هنى تحته على خوض المعركة ،

وتحاول أن تخرجه عن صمته الطبيعي ، ولكن الرجل لم يلب

إغراءها ، لا استهانة منه بالموضوع الذى يثير النقاش ، ولكن اعتقاداً منه — إن حقاً كان أوهما — أن هوف لا يعنى ما يقول ، وأنه يداعب هنفر ورامون حتب — على الأخص — بأسلوبه القاسى ، أما الشاعر فاشتد به الغضب ، ونسى أنه فى قصر بيجة ، وسأل الفيلسوف باللهجة حاقدة :

— إذا كان الفن لعب خيال ، فلماذا يكلف أهله ما لا طاقة لهم به ؟

— لأنه يتقاضاهم إغفال ما تعودوا عليه من الفكر والمنطق ، واللياذ بعالم الطفولة والخيال !

فهن الشاعر كتفيه استهانة ، وقال إن هذا كلام لا يستحق الرد عليه ، وآمن على قوله هنفر ، وابتسم هنى موافقا ، ولكن رامون حتب لم يستطع صبرا ، ولم يطق غضبه السكوت ، فجال بناظريه فى الوجوه الساخرة ، وقال بحدة :

— أليس يخلق الفن لكم لذة وجمالا ؟

فقال له عانن ، وهو لا يكاد يدرى ما يقول لأن الحمر كانت لعبت برأسه :

— ما أتفه هذا .

فاحتد الشاعر ، وترك زهرة اللوتس تقع من يده ، وقال فى عنف :

— ما بال هؤلاء الناس لا يفقهون لما يقولون معنى ! أيجوز أن أذكر اللذة والجمال ، فيقال لي إنها شيء تافه
وهل توجد غاية في الدنيا وراء الجمال واللذة ؟ !
وطرب هنفر لقول رفيقه ، وأخذته نشوة حماس ، فمال برأسه ناحية أذن الغانية ، وقال :

— صدق وحق جمالك يا رادوبيس . إن الحياة تمضي كالم سريع الزوال ، فأنا أذكر مثلاً أني حزنت لموت أبي حزناً بالغاً وبكيتته مر البكاء ، ولكني الآن إذا عاودتني ذكراه أسأئل نفسي أحقاً عاش ذلك الإنسان على الأرض ؟ أم أنه وهم خادع يتراءى لي في غيش الظلام ؟ ! . . . هكذا الحياة . . . فماذا أفاد الأقوياء بما أحدثوا فيها من قوة ، وماذا نال العاملون بما أنتجوا من مال وثراء ، وماذا اكتسب الحاكمون بما حكموا ، وما ساسوا ؟ ! هباء في هباء . . . قد تكون القوة حماقة ، والحكمة خطأ ، والثروة غروراً ، أما اللذة فهي لذة ، ولا يمكن أن تكون غير ذلك . . . فكل ما خلا الجمال باطل !

فبدا الجد على وجه رادوبيس الفاتن ، وقالت له ، وقد لاحظت في عينها الأحلام .

— ومن يدريك يا هنفر ، فلعل الجمال واللذة من الأباطيل

أيضا؟ .. ألا ترانى أمضى العمر فى دعة ، وانتهاب لذة ، وتملى
الحسن والجمال ؟ . . . ومع هذا فكىم ذا يطاردنى الملل
والسقم ! ..

ووجدت رادوييس أن رامن حتب فى حالة سيئة ،
وطالعت الاستياء فى وجه هنفر ، وصمت هنى ، فاشفقت من
إيلاهم ، وعدت نفسها مسؤولة عما أصابهم ، فقالت تغير مجرى
الحديث :

— حسبكم أيها السادة . . . ففهما قلتم ، فلن تنفكوا تطلبون
الفن والفنانين . . . كم تحبون يا هؤلاء الخصام ، إنكم لتجعلون
السعادة نفسها موضوعا للجدل والخصام ! ..

وضاق الحاكم آنى بالحديث ذرعا ، فقال لها بتوسل :

— اطردى الخصام بلحن من أغانيك السعيدة .

وكان الجميع يتوقعون للسمع والطرب ، فضموا توسلاتهم
إلى توسل الحاكم ، ووافقت رادوييس ، وكانت شبعت من
الكلام ، واستولى عليها قلق غريب تردد عليها مرات فى يومها ،
وظنت أن الغناء أو الرقص يزيله ، فقامت إلى عرشها ، وأمرت
بالعازفات ، فجئن بالدفوف والمزمار والقيشارة والناي والونج
والصفارة ، ووقفن وراءها صفا .

ثم أشارت بيدها العاجية ، فأخذن جميعا فى التوقيع الجميل
والنقر الرشيق ، يهينن لصوتها الرخيم جوا فاتنا من الموسيقى
والطرب ، ثم مضت تخفت أنغام آلاتهن حتى صارت كهمس
العاشقين الداهلين ، وأنشأت رادوييس تغنى قصيدة
رامون حتب :

يا من تسمعون إلى وعظ الحكماء ، أعيرونى آذانكم
لقد شهدت الدنيا منذ الأزل زوال أسلافكم
الذين عبروا ساحتها عبور الخواطر رأس الحالم
وقد شبعت ضحكا من وعدمهم وووعيدهم ، فأين
الفراغة ، أين الساسة ، أين الغزاة ، هل حقا القبر عتبة
الخلود ، ولكن لم يأت من القبر رسول يطمئن
قلوبنا ، فلا يفوتكم طرب ، ولا تفوتكم لذة .
لصوت الساقى أبلغ حكمة من صراخ الواعظ
أنشدت الغانية اللحن بصوت إلهى حنون ، أطلق الأرواح
من قيود الأجسام ، فهامت فى سموات الجمال والسعادة ، وذهلت
عن متاعب الأرض وهموم الدنيا ، وشاركت فى التجلى الأعلى ،
وظل القوم بعد إمساكها نشاوى يتنهدون فرحا وحزنا ولذة
والما ...

وطرد الحب من صدورهم كل عاطفة إله ، فاستبقوا إلى
الشراب ، وهدنوا بأعينهم إلى الغاية تنتقل بين الجالسين ،
وتداعبهم ، وتماجنهم ، وتشاربهم ، ولما دنت من آتى همس
في أذنها :

— أسعدتك الأرباب يا رادوبيس ... جئتك شبحا مثقلا
بالتبعات ، وإخال نفسي الآن طيرا يحلق في السماء ، فابتسمت
إليه ، وانتقلت إلى جانب رامون حتب ، وأهدته زهرة لوتس
عوضا عما فقد ، فقال لها :

— يقول هذا الشيخ إن الفن لعب خيال ، ألا سحقا لرأيه ...
إنه ومضة إلهية تشع من عينيك ، وتدور مع وجيب قلبي ، ثم
تأتى بالأعاجيب ...
فقالت له ضاحكة :

— أخرج مني شيء يأتى بالأعاجيب ، وأنا أعجز من الرضيع ؟
ثم هرعت إلى حيث يجلس هوف ، وجلست إلى جانبه ،
ولم يكن ذاق خمرا ، فخدجته بنظرة فاتنة ، فضحك الرجل ،
وقال متهمكا :

— يا سوء ما اخترت جليسا .

— ألا تحبني كهؤلاء ؟

— ليتنى أستطيع . . . ولكنى أجد فىك ما يحده المقرر فى المدفأة .

— إذا انصحنى ماذا أصنع بحياتى لأنى اليوم أشكو ؟

— أتشكبن حقاً . . . أنعم و ثراء وشكوى ؟

— كيف غاب عنك هذا أيها الحكيم ؟

— الجميع يشكو يارادوبيس . طالما استمعت إلى شكاة

الفقراء والبهائسين الذين يتلمعون على كسرة خبز، وطالما استمعت

إلى شكاة السادة وهم يثنون تحت عبء التبعات الجسام، وطالما

استمعت إلى شكاة الأغنياء السادرين وقد برموا بالذعة والسعادة،

فالجميع يشكو، وما من فائدة ترجى من التغيير، فاقنعى بما قسم لك.

— وهل يشكو الناس فى عالم أوزوريس ؟

فابتسم الشيخ وقال :

— آه . . . إن صاحبك رامون حتب يهزأ بهذا العالم الخطير ،

أما الكهنة العالمون فيقولون إنه عالم الأبدية ، فصبراً أيتها الحسناء،

إنك مازلت قليلة التجارب .

فعاودتها موجة المجون والسخرية، وأرادت أن تداعب

الفيلسوف ، فقالت بلهجة جدية متصنعة :

— أحق أنى قليلة التجارب . . . إنك لم تر مما رأيت شيئاً ؟

— وماذا رأيت مما لم أر ؟

فأشارت بيدها إلى القوم اللاهين وقالت ضاحكة :

— رأيت هؤلاء الرجال المبرزين ، وصفوة مصر سيدة الدنيا

يسجدون عند قدمي ، وقد ردوا إلى الوحشية ، ونسوا حكمهم
ووقارهم ، كأنهم كلاب أو كأنهم قرود !

ثم ضحكت ضحكة رقيقة ، وجرت في خفة الغزلان إلى وسط
الهبوط ، وأشارت إلى العازفات فلعبت أناملهن بالأوتار ، ورقصت
الغانية رقصة من رقصاتها المختارة التي يبدع فيها جسمها اللدن ،
ويأتى بالمعجز من الخفة والتثني . وغلب الطرب القوم على
أنفسهم ، فاشتركوا بأكفهم مع الدفوف ، واتقدت في الأعين
أنوار خاطفة ، وختمت رقصتها ، ثم طارت كالحمامة إلى عرشها ،
وجالت بعينها في أوجه القوم الجشعة . فرأت ما أضحكها قهرا ،
وقالت :

— لكأني شاة بين الذئاب .

وأعجب عائن التمل بالتشبيه ، وتمنى لو كان ذئبا ليقتنص
الشاة الجميلة ، وحققت له الخمر ما تمنى ، وظن نفسه ذئبا حقا ،
فعوى بصوت عال ضج له السادة ضحكا ، ولكنه تابى على العواء ،
وانكب على أربع ، وزحف صوب الغانية بين ضحك القوم

العاصف ، حتى صار منها على قيد شبر ، ثم قال لها :

— اجعلي هذه الليلة من نصيبي .

ولكنها لم ترد عليه . والتفتت إلى الحاكم آتى ، وقد جاء يحيطها تحية الوداع فأعطته يدها ، ثم تلاه الفيلسوف هوف وقد سأله ضاحكة :

— ألا ترغب فى أن أجعل هذه الليلة من نصيبك ؟

فهن رأسه ضاحكا وقال :

— أيسر على أن أسخر مع الأسرى فى مناجم قفط !

ورجا كل أن تكون الليلة له ، وألحف فى الرجاء ، وتنافسوا فى ذلك تنافسا شديدا ، حتى خرج الأمر وانبرى هنفر لإيجاد حل له فقال :

— ليكتب كل منكم اسمه فى ورقة ، ولنضع الأسماء جميعا فى صندوق عائن العاجى ، ثم تمد رادوييس يدها فتأخذ اسم السعيد الحظ

واضطر الجميع إلى الموافقة وبادروا إلى كتابة أسمائهم إلا عائن خشى أن تفلت الليلة من بين يديه فقال بتضرع :

— مولاتى ، أنا رجل سفر ، اليوم بين يديك ، وغدا فى بلد بعيد لا أبلغه إلا بشق الأنفس ، وإن فاتتني الليلة فقد أخسرها

إلى الأبد ...

ولكن أثار دفاعه ثائرة القوم، وردوا عليه هازئين . وكانت رادوبيس صامته ، تشاهد عشاقها بعينين جامدتين ، وقد عاودها القلق الغريب ، فأحست برغبة فى الفرار والانفراد ، وضجرت من الصراخ ، فأشارت لهم بيدها فكفوا ، وهم بين الأمل والخوف فقالت :

— لا تتعبوا أنفسكم أيها السادة ، فلن أكون الليلة لإنسان ! وجدت أفواههم ونظروا إليها منكرين ، لا يصدقون آذانهم ، ثم لم يلبثوا أن ضجوا بالاحتجاج ، وجأروا بالشكوى ، فوجدت ألا فائدة ترجى من توجيه الكلام إليهم ، فقامت واقفة ، وقد بدا على وجهها التصميم والعزم ، وقالت :

— إني تعب . . . دعونى أستريح !

ولوحت لهم بيدها البضة وولتهم ظهرها ، وغادرت المكان على عجل . . .

وصعدت إلى مخدعها مسرورة لما فعلت ، سعيدة بخلاصها تلك الليلة . وما تزال تطن بأذنيها تأوهات القوم الحارة . . وشخصت إلى النافذة رأسا ، وأزاحت عنها الستار ، ونظرت إلى الطريق المظلم ، فرأت على البعد أشباح عجلات وهوادج تحمل النشاوى

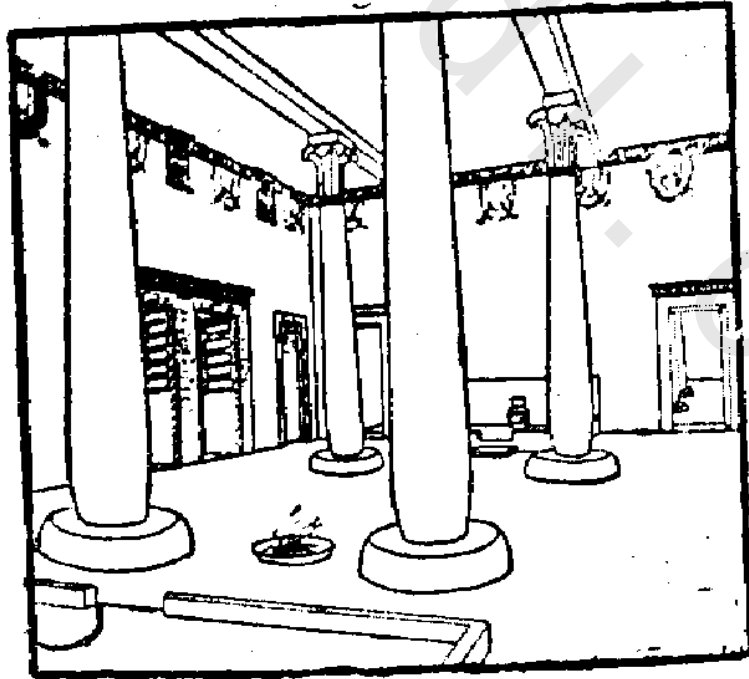
البائين بالحسرة والخذلان ، فلذها منظرهم . وارتسمت على شفثيها ابتسامة ساخرة قاسية .

كيف فعلت ما فعلت ؟ . . لا تدري ! ولكنك تشعر
باضطراب وقلق . . .

واها . . . ماذا وراء هذه الحياة الراتبة ؟ . . لقد حارها
الجواب . ولم يرو غلتها الحكيم هوف نفسه . ثم استلقت على
سريرها الوثير ، واستسلمت للأحلام ، فمرت بصفحة خيالها
حوادث اليوم العجيبة واحدة في أثر الأخرى ، فرأت جموع
المصريين المحتشدة . . . ورأت عيني الساحرة المتقدتين اللتين
جذبتاهما إليها بقوة قاهرة ، وسمعت صوتها البشع الذى يبعث
الرعشة فى المناصل . . ثم شاهدت فرعون الشاب فى هالة المجد
والجمال ، ثم ذلك النسر الهصور الذى انقض على فردة صندلها
وطار بها إلى السماء . حقاً كان يوماً حافلاً ، ولعل هذا ما أيقظ
عواطفها ، وشرذ خيالها ، ووزع نفسها أشتاتاً مما ذهب ضحية له
العشاق البائسون . إن قلبها يخفق خفقاناً شديداً ، ونفسها
تضطرم بلهب غامض ، وخيالها يتيه بها فى وديان غريبة ، وكأنها
تود أن تنتقل من حال إلى حال ، ولكن أى حال هذه ؟ ! إنها
حيرى لا تدري شيئاً، فهل يكون ما بها نفثة سحر أصابتها بها تلك

الساحرة الملعونة ؟ !

إن ما بها لسجرا مبينا ، فإن لم يكن سحر ساحر ، فهو سحر
الأقدار المسيطرة على المصائر . . .



طاهو

كانت قلقة مبللة موزعة النفس، فيئست من النوم، وغادرت السرير مرة أخرى، ودلفت إلى نافذة تطل على الحديقة، وفتحتها على مصراعها، ووقفت وراءها كالتمثال، ثم حلت عقدة شعرها، فانساب في خصلات مرعشة على عنقها ومنكبيها، ولفح جلبابها الأبيض بسواد عميق، وملأت رئتيها بهواء الليل الرطب، ثم وضعت مرفقيها على حافة النافذة، وأسندت ذقنها إلى كفيها، وتاهت عينها في الفضاء الشامل للحديقة، والنيل الجاري وراءها، كانت ليلة ظلماء، معتدلة الجو، يهب نسيمها ممتطعا خفيفا ضعيفا، فيرافق الغصون والأوراق رقصا رحما رقيقا، وكان النيل يرى عن بعد كقطعة من الظلماء، أما السماء فمزدانة بالنجوم اللوامع، ترسل شعاعا باهتا ما أن يقترب من الأرض حتى يغرق في بحار الظلمة.

هل يستطيع الليل المظلم والسكون المطبق أن يلقيها على رأسها القلق ظلا من السكينة والطمأنينة؟... هيات... وبلغ بها اليأس من الطمأنينة منتهاه، فأنت، بوسادة ووضعتها على حافة

النافذة . وأسلمت إليها خدها الأيمن ، وأغمضت عينيها . . .
وطرقت ذاكرتها بغتة عبارة الفيلسوف هوف : . . .
فالجميع يشكو . وما من فائدة ترجى من التغيير ، فاقنعي بما قسم
لك ، وتهدت من أعماق قلبها ، وتساءلت في حزن . . أما من
فائدة ترجى من التغيير حقا ؟ . . أحق أن الشكوى تلاحق
الإنسان أبدا ؟ . . ولكن كيف تستطيع أن تؤمن بهذا إيمانا
صادقا يصرف قلبها عن طلب التغيير ؟ إن ما بقلبها ثورة جامحة ،
تود لو تدمر بها حاضرها وماضيها ، وتفر خالصة إلى آفاق غامضة
مجهولة ، فكيف تجد الراحة والقناعة ؟ إنها تحلم بحالة تبطل فيها
الشكوى ، ولكنها جزعة برمة بكل شيء . . .
ولم تترك لأفكارها وأحلامها ، إذ سمعت طرقا خفيفا على
باب مخدعها ، فأرهفت أذنيها دهشة ، ونادت قائلة ، وهي ترفع
رأسها :

— من ؟

فأجابها صوت تعرفه حق المعرفة :

— أنا يا مولاتي . . . أسمحين لي بالدخول ؟

فقلت :

— تعالى يا شيث .

ودخلت الجارية على أطراف أصابعها ، ودهشت لوقوف
سيدتها ، وأن سريرها لم يمس ، وعاجلتها الغانية قائلة :
— ماذا وراءك يا شيث ؟

— ورأى رجل ينتظر الإذن بالدخول .
فقطبت جبينها ، وقالت بصوت ينطوى على الغضب :
— أى رجل ! . . . اطرديه دون تردد . . .
— كيف يا مولاتى . . . إنه رجل لا يغلق دونه باب فى هذا
القصر .

— طاهو !
— هو بعينه .
— وما الذى جاء به فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟
فلاحت فى عيني الجارية نظرة ماكرة ، وقالت :
— هذا ما سوف تعلمينه بعد حين يا مولاتى :
فأشارت لها بيدها أن تدعوه ، وغابت الجارية لحظات ،
ثم لم يلبث أن ملأ فراغ الباب جسم القائد ذو الطول والعرض ،
وحياها بانحناءة من رأسه ، ووقف أمامها ينظر إلى وجهها
بارتباك ، ولم يخف عليها شحوب لونه ، وتجمد جبينه ، وظلمة
عينيه ، فأنكرته ، وسارت إلى الديوان ، وجلست عليه ،

وسألته :

— أراك متعبا . . . هل أجهدك العمل ؟

فهز رأسه بالنفي ، وقال باقتصاب :

— كلا .

— لست كعهدي بك .

— حقا ؟

— لا شك أنك تعلم هذا . . . ماذا بك ؟

هو يعلم كل شيء بلا ريب ، وستعلمه بعد حين سواء أأداه إليها بنفسه أم لم يؤده ، وهو يشفق من الإقدام على الكلام لأنه يغامر بسعادته ، ويخشى أن تفلت من يده إلى الأبد ، ولو أنه كان يستطيع أن يتسلط على إرادتها لكان كل شيء ، ولكنه يكاد أن ييأس من هذا ، فاستولى عليه ألم ممض ، وقال لها :

— آه يا رادوبيس لو كنت تبادليني الحب ، لأمكن أن

أتوسل إليك باسم حبنا !

ترى ما حاجته إلى التوسل ؟ . . . عهدا به رجلا عنيفا

يكره التوسل والرجاء ، وطالما قنع بفتنة جسمها ، فما الذي

أفزعته ؟ ! . . . وخفضت عينيها ، وقالت :

— هذا حديث قديم معاد .

فأغضبه قولها على صدقه ، واحتد قائلا :

— أعلم ذلك .. ولكنى أعيده لدواع حاضرة ... آه ...

لكأن قلبك غار أجوف في قاع نهر بارد ..

كانت ألقت أمثال هذا المقال ، ولكنها قالت متململة :

— هل منعتك شيئا تشبهه ؟

— كلا يا رادوبيس . لقد وهبتى جسمك الفاتن الذى خلق

عذابا للبشر ، ولكن طالما طمعت فى قلبك ، ياله من قلب

يا رادوبيس ... إنه يقف وسط زوابع الشهوات جامدا كأنه

ليس منك ، ولطالما ساءلت نفسى متحيرا مغیظا ، ماذا يعينى ؟ ..

ألست رجلا ... بل أنا رجولة كاملة ، والحقيقة أنك بدون

قلب ...

وازداد إنكارها له . ليست هذه المرة الأولى التى تسمع

فيها هذا الكلام ، ولكنه كان يقوله ساخرا ، أو غاضبا غضبا

خفيفا ، أما فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ، فإنه يتكلم

بصوت متهدج ، ويتميز غیظا وحنقا ، فما الذى أهاجه ، وكأنها

أرادت أن تستحثة ، فسألته :

— أجيئت فى هذه الساعة من الليل يا طاهو لتعيد على أذى

هذا الحديث ؟

— كلا لم أجيء من أجل هذا الحديث ... ولكنني جئت من أجل أمر خطير ... إن لم يسعفني الحب فيه ، فلتسعفني حريرتك التي تحرصين عليها .

فانظرت إليه في اهتمام شديد ، وانتظرت أن يتكلم ، وبلغ به الضيق أشده ، فعزم على أن يخلص إلى غرضه بلا لف ، ولا دوران ، فقال لها بهدوء وحزم ، وهو يصوب عينيه إلى عينيها :

— ينبغي أن تهجري قصر بيجه ، وأن تفرى من الجزيرة فرارا في أقرب وقت ... قبل أن ينبلج الصباح .
فارتاعت المرأة لقوله ، ونظرت إليه بعينين لا تصدقانه ، وسألته :

— ما هذا الذي تقول يا طاهو ؟

— أقول إنه ينبغي أن تختفي ... أو تفقدي حريرتك .

— وماذا يهدد حريرتي في بيجه ؟

فأصر على أسنانه ، وسألها بدوره :

— ألم تفقدي شيئا ثميناً ؟

فقالت داهشة :

— بلى . فقدت فردة صندلى الذهبى الذى أهديتنيه .

— كيف ؟

— خطفه النسر وأنا استجيم فى بركة الحديقة . . . ولكنى لا

أدرى أى علاقة توجد بين حريرتى المهددة ، وصندلى المفقودة ؟

— مهلا يا رادوبيس . . لقد خطفه النسر حقا ، ولكن ألا

تدرين أين سقط ؟

وجدته يتكلم بلهجة العارف ، فاستولى عليها العجب ،

وتمتت قائلة :

— من أين لى بهذا يا طاهو ؟

فتنهده قائلا :

— سقط فى حجر فرعون .

وقرعت هذه الكلمة أذنيها فى هالة من دوى هائل ، ملأ

حواسها جميعا ، وأذهلها عن كل شىء . فنظرت إلى طاهو بعينين

حائرتين ، ولم تستطع أن تخرج عن صمتها . وكان القائد يتفرس

وجهها بعينين قلقتين مرتابتين ، ويتسائل ترى ما وقع الخبر فى

نفسها ؟ . . وما الإحساس الذى يعتاج فى صدرها ؟ . . وضاق

ذراعا ، فسألها بصوت خافت :

— ألم أكن محقا فى طلبى ؟

ولكنها لم ترد عليه ، ولم يبد عليها أنها كانت تصغى إليه .
كانت غارقة في لجج تانتظم في قلبها الحائر ، فماله جمودها ، وكبرت
عليه حيرتها ، ورأى في ذلك آية نقر منها قلبه ، فذهب صبره ،
واستفزه الغضب ، فغشى بصره ، وصاح بها بصوت أجش شديد :
— في أى واد تذهين يا هذه ؟ .. ألم يفزعك هذا الخبر الهائل ؟
فارتجف جسمها من شدة صوته . . والتهب الغضب بقلبها ،
وحدجته بنظرة حقد شديد ، ولكنها كظمت ما بنفسها لتحصل
منه على ما تريد . وسأله برود :

— أترى أنه كذلك ؟

— أرى أنك تتغابين يا رادوييس .

— كم إنك ظالم . . هب أن الصندل سقط في حجر فرعون ،
فهل تراه قاتلى لذلك ؟

— كلا ، ولكنه قلب الصندل بين يديه ، وتساءل عن عسى
أن تكون صاحبه .

نخفق قلب الغانية بشدة وسأله :

— وهل وجد الجواب ؟

فأظلمت عيناه ، وقال بصوت متهدج :

— كان هناك إنسان يتربص بى ، جعلته الأقدار صديقا عدوا

وعدوا صديقا ، فانتهن الفرصة السانحة ، وطعننى طعنة نجلاء ،
فذكرك عند فرعون ذكرا جميلا مغريا ، قدح الرغبة فى قلبه ،
وأهاج الشهوة فى صدره . . .

— سوخاتب !

— هو بعينه ذاك الصديق العدو . . . وقد عبث الإغراء بقلب
الملك الشاب .

— وماذا يريد ؟

فعمد طاهو ذراعيه على صدره ، وقال بشدة :

— ليس فرعون بالإنسان الذى يرغب فى شىء ، ويعز عليه ،
وهو إذا هوى شيئا يعرف كيف يستأثر به .

وساد الصمت مرة أخرى ، ووقعت المرأة فريسة عواطف
مضطربة . وجثم الكابوس على صدر الرجل ، واشتد به الحنق
لصمتها ، ولأنها لم تفرع ولم ترتعب ، فقال لها بغیظ :

— ألا ترين أن حريتك مهددة بالأسر ؟ حريتك يا رادوبيس
التي تحرصين عليها ، ولا تفرطين فيها ، حريتك التي دمرت قلوبا
وأهلك نفوسا ، وجعلت اللوعة والحسرة واليأس أوبئة
تفتك بأهل بيعة جميعا . . . لماذا لا تفرعين إلى الفرار بها ؟

واستاءت لوصفه هذا لحريتها ، وقالت له بسخط :

— أتتذقنى بهذا الوصف، الذى تقشعر منه الأبدان . وكل
ذنبى أنى لم أستبج نفسى للرياء ، وأقول لإنسان كذبا إني أحبه ؟
— ولماذا لا تحبين يا رادوبيس . . لقد أحب طاهو الجندى
الجبار الذى خاض غمار الحرب فى الجنوب والشمال ، وترجى
على ظهور العجلات . . فلماذا لا تحبين أنت . . ؟ !

فابتسمت ابتسامة غامضة ، وتساءلت :

— ترى هل أمالك جوابا على سؤالك ؟

— لست أبالى هذا الآن ، فما لهذا جئت . . أسألك ماذا أنت

فاعلة ؟

فقالت بهدوء ، واستسلام عجيب :

— لست أدرى .

فاضطربت عيناه كجمرتين . والتهمتهاها بحنق ، وأحس برغبة

جنونية فى تحطيم رأسها ، وحدث أن نظرت إليه فتنفس تنفسا

عميقا ، وقال :

— حسبتك أشد حماسا لحررتك .

— وما عسى أن أفعل ؟

فضرب يدا بيد ، وقال :

— تفرين يا رادوبيس ! تفرين قبل أن تحملى إلى قصر الحریم

جارية من الجوارى ، وتودعين حجرة من حجراته التى لا عداد لها ، ثم تعيشين هنالك فى وحدة وعبودية ، تنتظرين نوبتك مرة كل عام . . تعيشين ما بقى من حياتك فى جنة حزينة يطوف بها سور سجن كئيب . . هل خلقت رادوبيس لمثل هذا الحياة ؟ !

و ثارت ثائرتها غضبا لكرامتها وكبريائها . ترى من الممكن أن يكون حظها ونصيبها مثل هذه الحياة البائسة ؟
أيقدر لها فى النهاية — هى التى يستبق إلى رضاها صفوة الرجال — أن تقاسم الجوارى قلب فرعون الشاب ، وأن تقنع من الدنيا بحجرة فى الحرم الفرعونى ؟ أتهدى إلى الظلمات بعد النور ، وتتلفع بالهوان بعد العزة ، وتقنع بالعبودية بعد السيادة الجبارة الكاملة ؟ . . أوّاه . . ما أبشع التصور وأغرب الخيال . . ولكن هل تفر كما يريد طاهو ؟ . . أترضى بالفرار ؟ . . رادوبيس المعبودة التى لم يحظ بحسنها وجه ، ولم يشحن بسحرها جسم ، تفر من العبودية ؟ . . فمن إذا التى تطمع فى السيادة والتفوق والاستئثار بالقلوب ؟ !

ودنا منها خطوة ، وقال لها بتوسل :

— رادوبيس . . ماذا تقولين ؟

فعاودها الغضب ، وقالت بسخرية :

— ألا يسوءك أيها القائد أن تغريني بالهرب من وجه مولاك ؟

وأصابته سخريتها في صميم قلبه ، فترنح من هول الصدمة ، وقال بسرعة ، وقد أحس بمرارة في فمه :

— لم يرك مولاي بعد يا رادوييس ، أما أنا فمسلوب القلب منذ أمد بعيد ، أنا أسير لهوى جاح لا يعرف الرحمة ، يوردني موارد الهلاك ، ويطأني بقدم الذل والعذاب ، إن صدرى أتون من عذاب ملتهب ، وقد اشتد لهيبه اندلاعا حين أشفق من فقدك إلى الأبد ، فأنا إن أغريتك بالهرب أدافع عن حبي ، ولا أخون مولاي المعبود قط .

لم تلق بالآ إلى شكواه ، ولا إلى دفاعه عن إخلاصه لمولاه ، كانت ما تزال تشور لكبريائها ، ولذلك حين سألها الرجل عما تنوى عمله ، هزت رأسها بعنف كأنما تريد أن تنفض عنها الوسائس الحقيرة ، وقالت بصوت بارد مليء بالثقة :

— لن أفر يا طاهو .

وسهم الرجل إليها في ذهول ويأس ، وسألها :

— هل رضيت بالهوان ، وأسلمت للذل ؟

فقلت ، وعلى فمها ابتسامة :

.. إن تذوق رادوبيس الذل أبدا .

فاستشاط غضبا ، وقال :

- آه لقد فهمت . تحرك شيطانك القديم ، شيطان الغرور

والكبر والقوة ، ذلك الشيطان الذى يحتفى ببرودة قلبك

الأبدية . ويلتذ بمشاهدة عذاب الآخرين والتحكم فى المصائر ،

لقد لاح له اسم فرعون فتمرد ، وأراد أن يجرب قوته وسطوته ،

ويمتحن سلطان هذا الجمال اللعين ، غير عابى بما يدوس فى سبيله

الشرطانى من أشلاء القلوب ، وذوب النفوس ، وانقراض

الآمال ... آه ... لماذا لا أقضى على هذا الشر بطعنة من هذا

الخنجر ؟

ف نظرت إليه بعين مطمئنة ، وقالت :

— لم أمنعك شيئا ، وطالما حذرتك من الإغراق !

— إن هذا الخنجر كفيفيل بتهدة نفسى ... كم تكون نهاية

طبيعية لرادوبيس !

فقلت ^{لها} بهدوء :

— وكم تكون نهاية أسيفة للقائد الوطنى طاهو !

ف نظرت إليها طويلا بعينين جامدتين ، وكان يشعر فى تلك

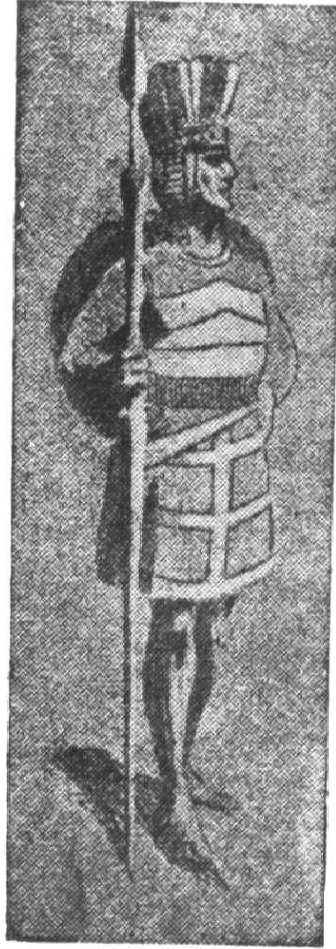
اللحظة الفاصلة برأس محيت وقنوط خائق ، ولكن غضبه لم
ينفجر ، وقال بلمهة باردة قاسية :

— ما أقبحك يارادوبيس ... أنت صورة بشعة مشوهة ،
ومن يحسبك جميلة أعمى لا يبصر ، إن صورتك قبيحة لأنها
صورة ميتة ، ولا جمال بلا حياة ، لم تنبض الحياة بصدرك قط ،
ولم تدفئ قلبك أبدا ... أنت جثة وسيمة القسمات ، ولكنها
جثة ، لم يبد الحنان في عينيك ، ولا انفرجت شفطاك عن ألم ،
ولا خفق قلبك بالعطف ، نظرتك جامدة ، وقلبك قد من
حجر ... أنت جثة مدعونة ، وينبغي أن أكرهك ، وأن أكرهك
ما حييت ... وأنا أعلم أنك ستطغين كيف شاء لك شيطانك ،
ولكنك ستصرعين يوما محطمة النفس ، وهذه نهاية كل شر ...
لماذا أقتلك إذا ؟ ... لماذا أحمل شرفي تبعة قتل جثة
ميتة ؟

نطق طاهو بهذه الكلمات ، ثم ذهب .
ولبثت رادوبيس تنصت إلى وقع قدميه الثقيلتين ، حتى
غمرها سكون الليل ...

ثم رجعت إلى النافذة . كان الظلام شاملا ، والنجوم ساهرة
في مآدبها الأبدية ، والسكون مخيما رهيبا ، نخلت أنها تستطيع

أن تسمع خلجات قلبها الدفينة .
كان ما بها قويا غنيفا مفعما بالحرارة والقلق ، يقسم أن جسمها
جسم نابض بالحياة ، لا جثة هامدة ..



فرعونه

وفتحت عينيها فرأت ظلمة . ترى أما يزال الليل جاثما ؟ ولم
ساعة استطاعت أن تخلد فيها إلى السكينة والنوم ؟ . ولبثت
دقائق لا تعي شيئا مطلقا ولا تذكر شيئا . كأنها جهلت الماضي
كما تجهل المستقبل ، وكأنما ابتلعت شخصيتها ظلمة الليل الحالكه ؛
وأحست هنيهة بذهول وضيق . ثم ألقت عيناها الظلمة فهبت
وخفت وطأتها ، واستطاعت أن ترى ضوءا خفيفا يشع من
خصاص النوافذ . فتبينت أثاث المخدع ، ورأت المصباح المذلى
المكفّت بالذهب ، ووجل الشعور حواسها ، فذكرت أنها ظلت
يقظة لا يذوق جفنيها نوم حتى غمرها الفجر بموجه الأزرق
الهادئ . وأنها ارتمت عند ذاك على السرير ، فاختلسها النوم من
عواطفها وأفكارها ، وعلى ذلك تكون في نهار اليوم الثانى ، أو
في مساءه !

وذكرت حوادث الليلة الماضية ، وعادت إلى مخيلتها صورة
طاهو وهو يرغى ويزبد ، ويئن من اليأس ويتوعد بالمقت ، ياله
من رجل عنيف ! إنه لرجل جبار شديد الغضب ، وحشى الغرام

ولا عيب فيه إلا أن حبه عنيد ، مشابر ، شديد التغلغل ، وتمنت
صادقة لو ينساها أو يمقتها ، إنها لا تجنى من الحب سوى المشقة ،
الكل يتألف على قلبها ، وقلبها زاهد نافر ، كحيوان غير أليف .
وكم اضطرت إلى خوض مواقف مؤثرة ، ومآسى أليمة ، وهي
كارهة . ولكن المآسى كانت تتبعها كظلمها ، وتحوم حولها
مخو اطرها ، فلوثت حياتها بالقسوة والآلام . . .

ثم ذكرت ما قال طاهو عن فرعون الشاب من أنه يرغب
في رؤية صاحبة الصندل ، وأنه سيدعوها حتما إلى حريمه العامر
آه . . إن فرعون شاب ملتهب الدماء ، جنونى الشباب ، كما قيل
لها ، فليس عجيبا أن يقول طاهو ما قال ، ولا مستحيلا أن
تصدق أقواله ، ولكن عسى أن تأخذ الحوادث مجرى جديدة ،
إن ثقها بنفسها لا حد لها . .

وسمعت طرقا على الباب ، فقالت بصوت متكاسل .

— شيث . . . أدخل .

وفتحت الجارية الباب ، ودخلت تسير في خفتها المعهودة
وهي تقول :

— حمدا للرب الذى يسر لك النوم بعد طول السهاد . . .

وارحمته لك يا مولاتى لا بد أن الجوع نال منك كل منال .

وفتحت النافذة ، فانبعث منها نور مكلل بسمرة ، وقالت
ضاحكة :

— غابت شمس اليوم دون أن تراك ، فبأت من زيارتها
للأرض بالخسران .

وسألتها رادوبيس وهي تتمطى وتتثائب :
— أأتى المساء ؟

— نعم يا مولاتى ، والآن هل تذهبن إلى الماء المعطر أم
'ولين الطعام ؟ .. والأسفاه أنا أعلم بما سهد جفنيك بالأمس !
فسألتها باهتمام :

— ما هو يا شيث ؟

— إنك لم تدقئ الفراش برجل .

— خستت يا ماكرة .

فقالت الجارية وهي تغمز بعينها :

— الرجال عادة مستبدة يا مولاتى ، ولولا هذا ما احتملت
غروورهم .

— حسبك ثرثرة يا شيث .

وشكت من ثقل رأسها ، فقالت لها الجارية :

— هلمى بنا إلى الحمام ... فالعشاق يتقاطرون على بهو

الاستقبال ، ويؤلمهم أن يروه خاليا منك .

— هل جاءوا حقا ؟

— وهل خلا بهو استقبالك منهم قط في هذه الساعة ؟

— ان أرى منهم أحدا .

فبهتت شيث ، ونظرت إلى سيدتها بارتياح ، وقالت :

— خيبت بالأمس آمالهم . . . فماذا تقولين اليوم ؟ . . آه .

لو تعلمين يا مولاتي كم جزعوا التأخر حضورك .

— آذنيهم بأني تعب .

وترددت الجارية ، وهمت بالاعتراض ، ولكنها صاحت

بها بعنف :

— اصدعى بما أمرت .

فغادرت المرأة المخدع مرتبكة لا تدري بما غير مولاتها

وارتاحت الغانية لما فعلت ، وقالت إن هذا ليس وقتهم ، فهو

لا تستطيع أن تجمع شتيت أفكارها لتصغى إلى إنسان ، ولا أن

تحصر خواطرها في حديث فضلا عن أن ترقص أو تغنى . .

فليذهبوا جميعا . . . وخشيت أن تعود شيث بتوسلات القوم

فقامت من السرير وهرولت إلى الحمام . . .

وتساءلت في وحدتها ، ترى هل يرسل فرعون في طلبها هذ

المساء ؟ .. آه .. أهي لهذا تضطرب وتقلق ! .. أهي تخشى ؟ ..
كلا .. إن هذا الحسن الذي لم تحظ بمثله امرأة من قبل حقيق
بأن يملأها ثقة بنفسها لاحد لها ، وإنها لكذلك ... ولن يقاوم
جمالها إنسان ، وإن يذل حسننها مخلوق ، ولو كان فرعون نفسه ،
ولكن لماذا إذا هي مضطربة قلقة ! لقد عاودها ذلك الشعور
الغريب الذي تلبسها مساء الأمس ، والذي نبض بقلبها أول
ما نبض حين وقع بصرها على الملك الشاب الواقف على ظهر عجلته
كالتمثال ... يا عجبا ... أتراها حائرة لأنها حيال لغز غامض !
واسم جبار هائل ! ورب معبود ! ؟ .. أترى أنها تود لو تراه في
نشوة البشر بعد أن رآته في جلال الآلهة ؟ ! : أتراها قلقة لأنها
تريد أن تطمئن إلى قوتها بإزاء هذا الحصن المنيع ! ..

وطرقت شيث باب الحمام ، وقالت إن السيد عائن أرسل
معها كتابا إلى مولاتها ، فغضبت الغانية ، وقالت بعنف « مزيه
إربا » ، وخشيت الجارية أن تثير غضب مولاتها عليها ، فذهبت
تتعثر في الارتباك ، وغادرت رادوبيس الحمام إلى مخدعها في
أجمل صورة وأكمل هيئة ، وتناولت الطعام ، وشربت كأسا
مترعة من خمر مريوط ، ولم تكد تطمئن إلى الديوان حتى
دخلت عليها شيث مهرولة بلا استئذان ، فتلقتها بنظرة تحذير

ووعيد ، وقالت الجارية فى خوف :

— فى البهو رجل غريب يلح فى طلب مقابلتك .

فاستولى الغضب على الغانية ، وصاحت بها :

— هل أصابك مس من الجنون يا شيث ؟ . أتخالفين أولئك

القوم المزعجين على ؟ !

فقالت الجارية ، وهى تلهث :

— صبرا يا مولاتى . . . لقد دفعت الزوار جميعا ، أما هذا

الرجل فغريب لم تره عيني من قبل . . التقيت به بغتة فى الودع

المؤدية إلى البهو ، ولا أدري من أين أتى . . وحاولت أن

اعترض سبيله ، ولكنه سار بغير مبالاة ، وأمرنى أن أبلغك

رجاءه . . .

فسهت الغانية إلى الجارية هنيهة ، وسألها باهتمام :

— هل هو من ضباط الحرس الفرعونى ؟

— كلا يا سيدتى . . . إنه لا يرتدى زى الضباط . . . و

سألته أن يعلن لى عن شخصيته ، فمز منكبىه باستخفاف ، فأكد

له أنك لا تقابلين أحدا اليوم . . . ولكنه استهان بكلامى

وأمرنى أن آذنك بانتظاره . . . أوام يا مولاتى . . . إنى أحرص

على رضاك ، ولكنى لم أجد وسيلة إلى دفع هذا الثقيل الجرى . .

وتساءلت أيكون هو رسول الملك؟ وخفق قلبها فاندبه
الفكرة خفقة شديدة ارتج لها صدرها... وجرت إلى المرأة،
وألقت على صورتها نظرة فاحصة ثم دارت دورة كاملة على
أطراف أصابعها ووجها ثابت في المرأة، وسألت الجارية:
— ماذا ترى يا شيث؟

فقالت الجارية، وهي تدهش لتبدل حال مولاتها:
— أرى رادوبيس يا مولاتي!

وغادرت الغانية المخدع، تاركة جاريتهما في دهشتها وحيرتها،
وانتقلت كالحمامة من حجرة إلى حجرة، ثم هبطت أدراج السلم
المفروشة بفاخر السجاد، وتريثت قليلا عند مدخل البهو...
رأت رجلا يوليها ظهره. ووجهه إلى جدار البهو يطالع شمرا
لرامون حتب.. ترى من هو؟ كان في مثل طول طاهو، ولكننه
أميل إلى الحفاقة والدقة، عريض المنكبين، جميل الساقين، على
ظهره وشاح مرصع بالجواهر يصل ما بين منكبيه ومنطقة
وزرته، وعلى رأسه قلنسوة جميلة ذات شكل هرمي لا تشبه
قلنسوات الكهنة، ترى من يكون؟.. إنه لا يشعر بها لأنها
تتقدم بخفة على سجاد غليظ.. ولما أصبحت منه على قيد خطوات
قالت بصوت خافت:

— سيدى .

فالتفت الرجل الغريب إليها .

رباه ! . . وجدت نفسها وجها لوجه مع فرعون . فرعون نفسه بعزته وجلاله . مر نرع الثانى دون غيره من الخلق !
رباه لقد زعزعت المفاجأة كيائها ، فأخذت قهرا ، وغلبت على أمرها ، ترى أمى فى حلم من الأحلام ! ولكنها تعرف حق المعرفة هذا الوجه الأسمر ، والأنف الأشم الطويل ، إنها لا يمكن أن تنساه أبدا ، لقد رآته مرتين ، فنفذ إلى ذاكرتها بقوة ، وحفر صفحتها حفرا عميقا لا يزول ، ولكنها لم تحسب حساب هذا اللقاء ، ولا أخذت أهبتها له ، ولم ترسم له خطة من خططها البارعة ، وهل كانت رادوبيس تلقى فرعون لقاء ارتجاليا ، وهى التى تعد العدة للقاء تجار النوبة ؟ ! . . أخذت على غرة ، فقهرت قهرا ! ومنيت بالهزيمة الساحقة . وبادرت تنحنى لأول مرة فى حياتها ، وتقول بصوت متهدج : « مولاي » .

وكانت عيناه ترسلان نظرة عميقة ، فتستقر على وجهها الجميل ، وكان يلاحظ ارتباكها واضطرابها بلذة غريبة ، ويشاهد السحر الذى تنفثه قسماها بنشوة فائقة ، فلما حيته قال لها بصوته ذى النبرات الواضحة والمهجة العالية :

— أتعرفيننى ؟

فقلت بصوتها الغلب الموسيقى :

— نعم يا مولاي . . . هكذا شاء حظى السعيد أمس .

وكان لا يشبع من النظر إلى وجهها . وأخذ يحس بتخدير عام يعتور حواسه وعقله ، فلم يعد يأبه لإرادته ، وان دفع قائلاً :

— إن الملوك قوامون على الناس ، يسهرون على أرواحهم ، وعلى أموالهم ، ولهذا جئت إليك لأرد لك أمانة ثمينة . . . ولم يبال الملك أن يدس يده تحت وشاحه ، فيخرج فردة الصندل ويقدمها لها ، وهو يقول :

— أليس هذا صندلك ؟

وتبعت عيناها يد فرعون ، وشاهدت فردة الصندل تبرز من تحت وشاحه بعينين مرتاعتين لا تكادان تصدقان مما تريان شيئاً ، وتمتعت بانفعال شديد :

— صندلى !

فضحك الملك ضحكة غريبة ، وقال وعيناها لا تتحولان عنها :

— بعينه يارادوبيس ، أليس هذا اسمك ؟

فأحنت رأسها ، وتمتعت قائلة : نعم يا مولاي ، وكانت

مضطربة فلم تزد ، أما الملك فاستدرك :

— إنه لصندل جميل ، وأعجب ما فيه هذه الصورة المنقوشة على باطنه ، وكنت أحسبها زخرفا جميلا حتى وقعت عليك عيناى . فعلمت أنها حقيقة رهيبة . وعلمت حقيقة أجل ، وهى أن الجمال كالقضاء يباغت الإنسان بما لا يقع له فى حسابان . فشبتك كفيها ، وقالت :

— مولاي . . ما كنت أحلم قط أن تشرف قصرى بذاتك ، أما أن تحمل صندلى . . رباه ماذا أقول ؟ ! .. لقد فقدت جنائى . غفرانك يا مولاي . . ويحى نسيت نفسى يا مولاي ، وتركتك واقفا . .

وهرعت إلى عرشها وأشارت إليه ، ثم انحنت باحترام . ولكنه اختار ديوانا وثيرا ، وجلس عليه : وقال لها :

— ادنى منى يا رادوبيس . اجلسى ها هنا . . فدنّت الغانية حتى سارت على بعد قريب ، ووقفت تغالب اضطرابها وذهو لها . فأجلسها بيده ، أمسك بمعصمها — وكانت أول لمسة — وأجلسها إلى جانبه . . وكان قلبها يخفق بشدة ، فوضعت الصندل جانبا ، وخفضت عينيها ، ونست أنها رادوبيس المعبودة ، التى تعبث بالقلوب والرجال كيف شاء لها العبث ،

غابيتها المتعجأة ، وهن نفسهن الشخص المعبود ، كأنه ضوء متوهج
سلط على عينيها بغتة ، فأنكشت كمنذراء تنصدى لرجلها أول
مرة . . . إلا أن جمالها الرائع خاض المعركة — بغير علم منها —
ثابت الجنان ، عظيم الثقة . وسلط شعاعه السحري على عيني
الملك الداهشتين كما تسلط الشمس شعاعها الفضي على نائم النبات ،
فيصحو ويرف رفيفا فاتنا . كأن جمال رادوبيس قاهرا نفاذا ،
يحرق من يدنو منه ، ويبعث في نفسه الجنون ، ويملا صدره
برغبة حارة لا تروى ولا تشبع . . .

كانا في تلك الليلة الخالدة — رادوبيس المتعثرة في ارتباكها
والملك التائه في الحسن — أخرج بشرين إلى رحمة الآلهة . .
وأحب الملك أن يسمع صوتها فسألها :

— كيف لا تسأليني عن وقوع صندوق بين يدي ؟
فساورها القلق ، وقالت :

— نسيت أمورا أجل يا مولاي .

فابتسم وسألها : كيف ضاع منك ؟

وهدأت رقة صوته من انفعالها ، فقالت :

— خطفه النسر ، وأنا استحم .

وتهد الملك ورفع رأسه كأنه ينظر إلى تهاويل السقف ،

وأغمض عينيه يتخيل ذلك المنظر الفاتن ، إذ رادوبيس تلعب في الماء بجسمها العارى ، والنسريهوى من عل فيخطف صندلها ، وسمعت الغانية رفيف أنفاسه ، وأحست بها تلمح خدها . وعاد إلى النظر إلى وجهها ، وقال بوجد :

— خطفه النسروطار به إلى ، ياللقصة الفاتنة ! ... ولكنى أتساءل منكرا ، أكنت أحرم من رؤيتك لو لم يقيض لى الرب هذا النسركريم ؟ . . ياله من فرض محزن ، ومع هذا فإنى أحس فى أعماقى بأنه كبر على النسر ألا أعرفك وأنت على قيد ذراع منى ، فرمانى بالصندل لأنتبه من غفلتى . . فقالت كالداهشة :

— هل رمى النسربالصندل بين يديك يا مولاي ؟

— نعم يارادوبيس . . . هذه هى القصة الفاتنة .

— يا لها من مصادقة كالسحر !

— أتقولين مصادقة يا رادوبيس . . وما المصادقة ؟ . . إنها

قضاء مقنع !

فتنهدت وقالت :

— صدقت يا مولاي . . إنها كالعاقل المتغابى .

— سأعلن رغبتى على الملأ ألا يتعرض إنسان من شعبي

لنسر بسوء !

فابتسمت ابتسامة سعيدة فاتنة ، ومضت في ثغرها ككتعويذة
سحرية ، وأحس الملك بهيام يملك قلبه ، ولم يكن من عادته أن
يقاوم عاطفة ، فاستسلم في وجد بين ، وقال وهو يتنهد :
— إنه هو المخلوق الوحيد الذى أدين له بأئمن ما فى حياتى ..

رادوبيس كم أنت جميلة ! هذا حسن يبرى بأحلامى جميعا .
وسرت المرأة لقوله ، كأنها تسمعه لأول مرة فى حياتها ، فرنت
إليه بنظرة صافية حلوة زادته هياما ، فقال وكأنه يضرع أو يشكو :
— كأن سوطا تشتعل به النيران يلهب قلبي .

ثم أدنى وجهه من وجهها المشرق ، وهمس :
-- رادوبيس .. أريد أن أنغمر فى أنفاسك .

فبسطت له وجهها ، وأسبلت جفניה . وجعل يهوى بوجهه
حتى مس أنفه أنفها الرقيق ، وداعب أهدابها الطويلة بأنامله ،
وسمها إلى عينيها السرداوين حتى صارت الدنيا ظلاما ، وأذهله
الهوى ، فاستولى عليه تخدير ساحر ، حتى تنبه على تنهداتها العميق ،
فاعتدل قليلا ، وهمس فى أذنها قائلا :

— رادوبيس . إني أقرأ أحيانا مصيرى ، سيكون الجنون منذ

الساعة شعارى ...

وأسندت رأسها إلى كفها إعياء ، وكان قلبها يخفق ، فجلسا ساعة صامتين ، يسعد كلاهما بحديث نفسه ، وما يحدث - وهو لا يدري - إلا صاحبه . . وعلى حين فجأة قامت رادوبيس واقفة ، وقالت له :

— هلا اتبعني يا مولاي لتشاهد قصرى ؟
كانت دعوة سعيدة .. ولكنها ذكرت له بأمور كاد أن ينساها .
فوجد نفسه مضطرا إلى الاعتذار . . وما يضيره لو أجل اللقاء ساعة ، والقصر وما فيه ملك يمينه . . فقال بأسف :

— ليس الليلة يا رادوبيس .
ونظرت إليه بانكار ، وسألته :

— ولم يا مولاي ؟
— هنالك قوم ينتظروننى منذ ساعات فى القصر .
-- أى قوم يا مولاي ؟

فضحك الملك ، وقال باستهانة :

— كان ينبغى أن أكون مجتمعا برئيس الوزراء الآن، والحق يا رادوبيس أننى منذ حادثة النسر- فريسة للعمل الشاق، وكنت أبيت نية زيارة قصرى، ولكن لأجد فرصة مؤاتية، ولما رأيت هذا المساء يكاد يلحق بالذى سبقه ، أجلت اجتماعا هاما ريثما

أشاهد صاحبة الصندوق الذهبي . . .

واستولت الدهشة على رادوبيس ، وتمتمت قائلة «مولاي»
وكانت تعجب من استهتارة الذي دفعه إلى تأجيل اجتماع هام
من الاجتماعات التي تهرم فيها مصائر المملكة ، لكي يشاهد
امرأة شغل قلبه بها ساعة .. ووجدت عمله جميلا ساحرا لا
نظير له بين أعمال العشاق ، ولا شعر الشعراء ..

أما الملك فقام بدوره ، وقال لها :

— أنا ذاهب الآن يا رادوبيس .. واها .. إن القصر خائق ،
إنه سيجن مسور بالتقاليد . ولكنني أمرق منها مروق السهم ..
سأترك الآن وجهها حبيبا لألقى وجهها بغیضا ، فهل رأيت أغرب
من هذا . . . إلى الغد يا رادوبيس الحبيبة . بل إلى الأبد . . .
نطق بهذه الكلمات ثم ذهب بروعته ، وشبابه ، وجنونه !

الحب

ارتد بصرها عن الباب الذى غيبه ، فقالت وهى تتهدد :
« ذهب ... » ، ولكنه فى الحقيقة لم يذهب ، لو كان ذهب حقا
لما استولى عليها ذاك التخدير الغريب الذى جعلها بين النوم
واليقظة ، تذكر وتحلم ، والصور تمر أمام مخيلتها فى تراحم
وتسابق وجنون .

حق لها أن تسعد ، لأنها بلغت منتهى المجد ، وتسمنت ذروة
البهاء ، وتذوقت من آى العظمة ما لم تحلم به امرأة على الأرض ،
زارها فرعون بذاته المعبودة ، وسحرتة بأنفاسها الزكية ، وصاح
بين يديها أن سوطا من اللهب يلهب قلبه الفتى ، فتوجت بهيامه
ملكه على عرشى المجد والجمال ، وحق لها أن تسعد ... على أنها
كانت تسعد سعادة المجد ! .. ومال رأسها قليلا ، فوق بصرها
على فردة الصندل تخفق قلبها ، وأدنت رأسها حتى مست شفتاها
فارسه ...

ولم تنفرد بأحلامها طويلا إذ دخلت شيث ، وقالت :
— مولاتى ... لتتوين أن تنامى هنا ؟

ولم ترد عليها.. وحملت الصندل ، وقامت في كسل وسارت
تهادي صوب مخدعها ، وتشجعت شيث بسكوتها ، فقالت بلهجة
حزينة :

— وآسفاه يادولاتي .. إن هذا البهو الجميل الذي ألف الطرب
واللهو ، يقفر الليلة لأول مرة من السمار والعشاق ... ولعله
يتحير مثلي سائلا : أين الغناء ؟ أين الرقص ؟ أين الحب ؟ ...
هي مشيئتك يا مولاتي ...

ولم تبالها الغانية ، وصعدت أدراج السلم في صمت وسكون ،
فظنت شيث أن حديثها ظفر باهتمام سيدتها ، فقالت بحماس :
— لشد ما وجعوا وأسفوا لما آذنتهم باعتذارك ... وتبادلوا
نظرات الحسرة والحزن العميق ، وتراجعوا في ثقل يسحبون
وراءهم ذيل اليأس .

ولازمت المرأة الصمت ، ودخلت إلى مخدعها الجميل ، وهرعت
إلى مرآتها وألقت نظرة على صورتها ، ثم ابتسمت بارتياح وغبطة
وقالت لنفسها « إذا كان ما حدث الليلة معجزة ، فهذه الصورة
معجزة أيضا » وغمرتها نشوة سعادة ، فالتفت إلى شيث وسألتها :

— من حسبت الرجل الذي جاء لمقابلتي ؟

— من هو يا مولاتي ؟ .. أنني لم أره قيل اليوم ، هو شاب

غريب ، ولكن لا جدال أنه من النبلاء ، مليخ رهيب جسور ،
يندفع كالريح مجلجلا ، ولقدميه وقع شديد ، ولصوته لهجة الأمر ،
ولولا خوفا لقلت أنه لا يخلو من ...

— من ماذا . ؟

— من جنون ...

— حذار ...

— مولاتي ... مهما يكن ثراؤه فلا يمكن أن يرجح العشاق
جميعا الذين طردتهم اليوم ...

— حاذري أن تندى حيث لا ينفع الندم .

فقلت شيث داهشة :

— هل يفوق غناه القائد طاهر أو الحاكم آني ؟

فقلت بزهو :

— إياه فرعون يا حمقاء ...

وحماقت المرأة في وجه مولاتها ، وتدلّت شفّتها السفلى ،

ولم تنطق ، فقلت الغانية ضاحكة :

— هو فرعون يا شيث . فرعون ، فرعون بذاته دون سواه ،

إياك والثرثرة . اذهبي الآن ، أغربي عن وجهي ، فإنني أريد
أن أخلو بنفسى ...

وأغالقت الباب ودللت إلى النافذة المطلة على الحديقة ، وكان الليل جثم في مجشمة وأرخی على السكون جناحيه ، وبدأت طلائع النجوم في كبد السماء... وأنوار المصابيح المعلقة بأغصان الأشجار في الحديقة . وتبدى الليل فاتنا ، فتذوفت جماله وأحست لأول مرة بأن انصرانها فيه عذب ، بل أعذب من اجتماعها بالعشاق جميعا ، وأصغت في سكونه إلى ذات نفسها وهمسات قلبها... وبعثت الذكريات الذكريات، فرجع خيالها إلى عهد منطو بعيد، خفق فيه قلبها خفقة طائشة ، قبل أن تتوج ملكة للقلوب على عرش بيجة، وتغدو للأنفس قضاء لا يرد . كانت ريفية حسناء ، برزت من بين أوراق الريف المخضلة ، كما تبرز الوردة اليانعة ، وكان نوتيا عذب الصوت نحاسي الساقين ، ولا تذكر أنها سلت لإنسان بداع قلبها سواه ، وشهدت شواطئ بيمة مشهدا لم تسعد بمثله بقعة في الأرض ، ودعاها إلى سفينة فلبت دعاءه ، وحملتها الأمواج من بيمة إلى أقصى الجنوب ، وانقطعت من يومها صلاتها بالريف وأهلها جميعا . واختفى النوتى من حياتها فجأة ، ولم تدرك إن كان ضل ، أو فر ، أو مات . ووجدت نفسها وحيدة . كلاً لم تسكن وحيدة ، كان معها جمالها فلم تتشرد ، والتقطها كهل ذو حية طويلة ، وقلب ضعيف ، طابت لها الحياة وأثرت بموته

ونوهج نورها فخطف الأبصار، فأنجذبوا إليها كالغراش المجنون
والقوا تحت قدميها الصغيرتين قلوباً فتيّة ، وأموالاً لا تعد ،
وبايعوها ملكة للقلوب في قصر بيّجة ، فكانت رادوييس
يا للذكريات . . . !

كيف مات قلبها بعد ذلك ؟ . . هل أماته الحزن ، أم الغرور
أم المجد ؟ . . . كانت تصغي إلى حديث الحب بأذن صماء ، وقلب
مغلق ، فكان منتهى ما يطمع فيه عاشق مد له مثل طاهو أن
• تهبه جسدها البارد . . .

استسلمت للذكريات طويلاً ، وكأنما استدعتها لتربطها
بأعجب أيام حياتها ، وأسعد أيامها ؟ . . .
ومضى الوقت وهي لا تحس به ، إن كان ساعات أم دقائق ،
حتى انتبهت على وقع أقدام ، فالتفتت منزعة ، فرأت بابها يفتح ،
ودخلت شيث لاهثة وقالت :

— مولاتى . . أنه يتبعنى . . ها هو ذا . .
ورأته يدخل مطمئناً كأنه يدخل مخدعه الخاص ، فغمرتها
دهشة ممزوجة بفرح وصاحت :
— مولاتى . . .

وانسلت شيث خارجاً ، وأغلقت الباب ، وألقى الملك نظرة

على المخدع الجميل ، وقال ضاحكا :

— هل أطلب المغفرة لتهجمى هذا ؟

فابتسمت ابتسامة سعيدة ، وقالت :

— المخدع وصاحبه لك يا مولاي .

فضحك ضحكته الغاتزة ، كانت ضحكة رنانة فنية تذبذب بالحياة

الدافقة . وأمسك برفقها ، وسار بها إلى الديوان وأجلسها ،

وجلس إلى جانبها ، وقال :

— كنت أخشى أن يسبقني النوم إليك .

— النوم . . . النوم لا يهتدى إلى أمثال هذه الليلة ، يحسبها

من فرط نور السعادة نهارا . . .

فتبدي الجد على وجهه ، وقال :

— إذا احترقنا معا . . .

لم تحس بهذه السعادة من قبل ، ولم تعهد قلبها في مثل هذه

اليقظة والحياة ، ولم تشعر بلذة الاستسلام إلا أمام هذا الانسان

البديع ، فقد صدق ، إنها تحترق ، ولكنها لم تقل شيئا ، وقنعت

بأن رفعت إليه عيني ناطقتين يحرق فيهما الصفاء والمودة . . .

ثم قالت :

— لم يدر بمنلدى أنك تعود هذه الليلة . . .

— ولا دار لي بخلد ، ولكنني وجدت الاجتماع ثقيلا مرهقا ، وأعياني تركيز فكري ، واستخفني الجزع ، وعرض على الرجل مراسيم كثيرة ، فأمضيت عددا يسيرا ، وأصغيت إليه بعقل مشتبك ، ثم ضقت بكل شيء ذرعا ، فقلت له إلى الغد . ولم أكن أفكر في العودة ، ولكنني رغبت في أن أخلو بنفسى للحديث والمناجاة ، فلما خلوت إلى نفسى وجدت الوحدة ثقيلة ، والليل موحشا لا يحتمل . هنالك لمت نفسى قائلا : لماذا أصبر إلى الغد ؟ . . . وليس من عادتي أن أقاوم عاطفة ، فما عثمت أن وجدتني ها هنا بين يديك . . .
يا لها من عادة سعيدة . . . إنها تجني أشهى ثمارها ، وتحس جواره بفرح عجيب ، وكان يضطرب حياة ونشوة ، فقال :

— رادوبيس . . . ما أجمل هذا الاسم فإن له وقع الموسيقى في أذني ، ومعنى الحب في قلبي ، وهذا الحب شيء عجب ، كيف يصرع رجلا تعمر ليااليه الحسان من كل لون وطعم ؟ . . . إنه حقا عجيب ، ترى ما هو هذا الحب ؟ إنه قلق معذب يسكن في قلبي ، وأشودة إلهية ترتل في أسمى مكان من روحى ، أنه حنين موجع ، إنه أنت ، أنت حالة في كل آية من آيات الدنيا والنفس ، انظري إلى هيكل هذا الشديد ، إنه يشعر بالحاجة إليك شعور

الغريق بالحاجة إلى التنفس والهواء . . .

إنها تبادله هذا الشعور ، وتحس بصدقة ، فقد تكلم ليصف قلبا ، فوصف قلبين ، إنها تسمع مثله الأنشودة الإلهية . وتشاهد صورته في آيات الدنيا والنفس ، وكان جفناها يشقلان بالأحلام والنشوة ، فما أتم أن تماسأ أهدأها ، فسألها بركة :

— لماذا لا تتكلمين يا رادوييس ؟

وفتحت عينيها الجميلتين ، ونظرت إليه بوجد وحنان ، وقالت :

— ما حاجتي إلى الكلام يا مولاي ؟ . فطالما كان الكلام يتدفق على لساني ، وقلبي ميت ، أما الآن ، فقلبي يبعث حيا ، ويمتص كلامك كما تمتص الأرض حرارة الشمس ، وتحيا بها . فابتسم إليها سعيدا ، وقال :

— اختطفني هذا الحب من وسط دنيا عامرة بالنساء .

فقالت ، وهي تبادله الابتسام :

— واختطفني من وسط دنيا عامرة بالرجال . . .

— كنت اتخبط في دنياى كالحائر ، وأنت منى على بعد ذراع ،

والأسفاه . . . كان ينبغي أن أعرفك من أعوام .

— كان كلانا ينتظر النسر ليسفر بيننا .

فشد على قبضة يده بحماس ، وقال :

— نعم يا رادوبيس . كانت الأقدار تنتظر ظهور النسر بأفقنا لتسطر في لوحها أجمل قصة حب ، وما أشك في أنه كبر على النسر أن يؤخر حبنا لأجل بعيد ، وما ينبغي لنا بعد اليوم أن نفترق . فأجمل ما في الدنيا أن نرى معا .

فتهدت من أعماق قلبها ، وقالت :

— نعم يا مولاي ، فلا ينبغي أن نفترق بعد اليوم ، وهماك صابري حقلا ناضرا ارتع فيه أنى شئت .

فبسط كفها بين كفيه ، وضغط عليه بكنو ، وقال :

— تعالى إلى رادوبيس ، ليغلق هذا القصر على الماضي الغادر ، فإنى أحس بأن كل يوم ضاع من حياتي قبل أن أعرفك طعنة غادرة صوبت نحو سعادتي .

كانت كالخمورة ، ولكن ساورها القلق ، فسأله :

— أريدنى مولاي على أن أنتقل إلى حريمه ؟

فهن رأسه قائلا :

— ستنزلين في أعز مكان به ..

نخفضت عينيها ووجمت ، ولم تدر ما تقول ، فأنكر سكوتها ، ووضع أنامل يمينه تحت ذقتها الصغير ، ورفع وجهها إليه وسألها :

— ما لك ؟

فسأله بعد تردد :

— الأمر يا مولاي ؟

فالتبض صدره لذكر الأمر ، وقال :

— أمر ؟ .. كلا يا رادوبيس ، إن لغة الأمر لا تجدى مع

الحب ، وإني ما تمنيت قبل اليوم لو أجرد من شخصيتي ! ..

وأعود واحداً من البشر يشق طريقه بلا عون ، ويلقى حظه

بغير محاباة . انسى فرعون ملياً ، وأخبرني ألا ترغبين في اللحاق بي ؟

وخشيت أن يسيء فهم وجومها وترددها ، فقالت بلهفة

صادقة :

— أرغب فيه يا مولاي رغبتى في الحياة ، بل الحقيقة أجمل

من هذا ، الحقيقة انى لم أحب الحياة حبا صادقا ، إلا منذ أحببتك ،

وأن قيمتها في نظري أنها تشعرني بحبك . وتسعد حواسي بجودك .

أليس المحبين غريزة تصدقهم القول ؟ .. سلها عن قلب رادوبيس

يا مولاي تعد على أذنك ما جرى على لسانى ، ولكنى أنساءل

حيرى : لماذا أخرج هذا النصر ، ولماذا أغلق أبوابه إلى الأبد ؟ ..

إنه أنا بالذات يا مولاي ، فيذبحنى أن تحبه كما تحبني ، لا يوجد فيه

موضع يخلو من أثر لى ، إما صورتي أو اسمى أو تمثال لى ، كيف

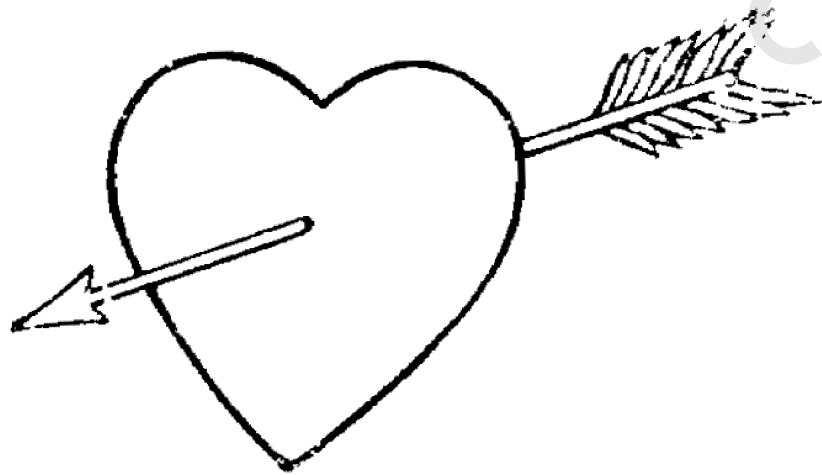
لى بهجره وقد هبط فيه النسر الذى طار إليك برسالة الحب
الخالده ؟ ... كيف لى بهجره وقد خفق قاي فيه بالحب لأول
مرة ؟ ... كيف لى بهجره يا مولاي وقد زرتنى فيه بذاتك
العالية ؟ ... حرى بأى مكان تطأه قدماك أن يصير - كقلبي -
لك وحدك ولا يغلق أبوابه أبدا ...

كان يصغى إليها بحواسه المرهفة ، وقلبه المشبوب الجامح ،
فتؤمن نفسه بكل كلمة من كلماتها ، ثم لمس بختو جدائل شعرها
الفاحم ، واحتواها بوجد بين ذراعيه ، وطبع على شفتيها قبلة
رطبت شفتيه برحيق عذب وقال لها :

— رادوبيس .. أيتها الحب الممتزج بروحي .. ان يغلق
هذا القصر أبوابه ولن تظلم حجراته ، سيبقى ما بقينا مهذا للعاب ،
وجنة للهوى ، وحديقة ناضرة تغرس فيها بذور الذكريات ،
سأجعل منه محرابا للحب ، وأصير أرضه وجدرانه ذهباً مصفى ..
فأشرق وجهها بابتسامة سعيدة ، وقالت تناجيه :

— لتكن مشيئتك يا مولاي . وإني أقسم بحبي لأذهبن الغداة
إلى معبد الرب سوتيس ، وأغسل جسدى بالزيت المقدس ،
لأرحض نفسى من الماضى الشقى ، وأعود إلى المحراب بقلب
ظاهر جديد ، كزهرة تشق الأكمام وتتصدى لشعاع الشمس :

فوضع يدها على قلبه ، ونظر إلى عينيها وقال :
— رادوبيس أنا اليوم سعيد ، وأشهد الدنيا والآلهة على
سعادتي ، حياتي وحسبي بها من حياة ... انظري إليّ ، فسواد
عينيك أشهى لقلبي من نور الدنيا ...
في تلك الليلة نامت جزيرة بيجة ، وسهر الحب بقصرها
الأيض ، حتى انحسر في ظلمة الليل الحالكه عن زرقة الفجر
الحاملة ...



المسحرات في ظل الحب

استيقظت في الضحى ، وكان الجو حارا ، والشمس ترسل
أشعتها المتوهجة ، فتبث في الدنيا نورا ونارا ، وكأن قيصها
الرقيق يلتصق بجسدها اللدن ، وشعرها مبعثرا ، منه خصلات
ناثمة على صدرها ، وخلات ملقاة على الوسادة .

طوبى ليقظة تهيج في القلب أجمل الذكريات . . . كان قلبها
مرتعا للغبطة ، والجو من حولها معطرا بأريج الأزهار ، والدنيا
تبسم عن السعادة والأفراح ، فأحست لتجدد مشاعرها كأنما
تكتشف عالما جديدا جميلا أو كأنها تبعث خلقا جديدا . . .
ومالت في نومتها إلى جانبها ، ولاحت منها نظرة إلى الوسادة ،
فأثرت رأسه عليها واضحا ، فاستل من عينيها منتهى العطف
والحنان ، وادنت رأسها منه ولثمته ، وقد تمتت بفرح ما أجمل
كل شيء . . . وما أسعدنى بكل شيء . . .

ثم جلست في فراشها هنيئة وغادرت — كما كانت تغادره كل
صباح — نشطة مريحة كملاحة بارعة في نفس عامرة بالفكاهة .

واستجمت بالماء البارد ، وتعطرت بماء الزهر ، وارتدت ثيابها
المبخرة ، ثم عادت إلى مائدة الطعام ، وتناولت إفطارها المكون
من بيض وفطير ، وشربت كوبا من اللبن الحليب ، وكساها من
الجُعة . . .

واستقلت سفينتها إلى أبو ، وقصدت إلى معبد الرب
سوتيس ، وولجت بابه العظيم بقلب خاشع ، ونفس مفعمة
بالرجاء والأمل ، وطافت بأرجائه ، وتبركت بجدرانها ، وعمدة
ذات النقوش المقدسة ، وأودعت صندوق الندور ما جادت به
يدها ، وزارت حجرة الكاهنة الكبرى ، وسألتها أن تغسلها
بالزيت المقدس لتطهرها من شوائب الحياة وأحزانها ، وترحض
قلبها من الغى والعمى ، وقد أحست ، وهى بين يدي الكاهنات
المطهرات ، أنها تودع بلا رحمة قبر الفناء جسد رادوبيس الغانية
اللعبوب ، التى كانت تعبث بالرجال ، وتهلك النفوس ، وترقص
على أشلاء الضحايا ، وذوب القلوب ، وإن دما جديدا يحرق فى
عروقها ، فينبض فى قلبها وحواسها بالطمأنينة ، والسعادة ،
والطهر ، ثم صلت صلاة حارة ، جاثية على ركبتها ، مغرورة
العينين ، وضرعت فى الختام إلى الرب أن يبارك حبها وحياتها
الجديدة . . . وعادت إلى قصرها تشعر من فرط سعادتها كأنها

طائر يرف بجناحيه فى سماء صافية، واستقبلتها شىث فرحة
متلهلة، تكاد تطير من الفرح، وقالت لها: مبارك هذا اليوم
السعيد يا مولاتى... ألا تعلمين من أتى قصرنا فى غيبتك؟...
نخفق قلبها باضطراب فرح، وصاحت: من؟...
فقال الجارية: أتى رجال من أمهر الصناع بمصر مبعوثين
من قبل فرعون، فشاهدوا الحجرات والأروقة والردهات،
وقاسوا ارتفاع النوافذ والجدران تمهيدا لصنع أثاث جديد...
— حقا؟...

— نعم يا مولاتى، وسيغدو هذا القصر عما قليل أعجوبة
الزمان، فيا لها من صفقة رابحة...
وتحيرت رادوبيس فيما تعنيه المرأة، ثم خطر لها خاطر،
فقطبت جبينها، وسألتها: أى صفقة تعنين يا شىث؟...
فغمزت المرأة بعينها، وقالت: صفقة الغرام الجديد، وحق
الأرباب أن مولاي ليزن أمة من الأغنياء، وإن آسف بعد
اليوم على ضياع تجار منف، وقواد الجنوب...
وغضبت رادوبيس حتى تخضب وجهها بالاحمرار، وصاحت
بها: خسئت يا امرأة... أنا لا أتجر الآن...
— ويل لى... لو كانت لدى شجاعة يا مولاتى لسألتك عم

تفعلين إذا . .

فتنهدت رادوبيس وقالت :

— أمسكى عن هذرك ، ألا ترين أنى أجد فى الأمر جدا ؟ .
فحملت الجارية فى وجه مولاتها الجميل ، وصمتت دقيقة ثم
قالت : باركتك الآلهة يا مولاتى . . أنى حائرة وأساءل نفسى ،
لماذا تجد مولاتى جدا ؟ . . .

فتنهدت رادوبيس مرة أخرى ، واستلقت على الديوان
الوثير ، وقالت بصوت خافت : أحببت يا شيث . .
فضربت الجارية صدرها بيديها ، وقالت بفزع ودهشة :
أحببت يا مولاتى . . .

— نعم أحببت ، مالك تدهشين ؟

— معذرة يا مولاتى ، هذا زائر جديد لم أسمع باسمه يجرى
لك على لسان من قبل . . فكيف جاء ؟

فابتسمت رادوبيس وقالت كالحالمة : ما الداعى إلى العجب ؟
امرأة تحب ، يا لها من حقيقة مبتدلة . .

فأشارت المرأة إلى قلب مولاتها ، وقالت : أما هنا فلا ،
عهدى به حصنا منيعا ، فكيف أخذ ؟ . . ألا بالله قولى . .
وبدت فى عينيها الأحلام ، وبعثت الذكرى فى نفسها

شعورا فياضا ، فقالت بصوت كالهمس : أحببت يا شيث .
والحب شيء عجيب . في أى دقيقة من الزمان طرق الحب قلبي ؟
كيف تسلل إلى أعماق نفسي ؟ لا علم لي بذلك ، وأنه ليحيرني
حيرة شديدة ، ولكنى عرفت الحقيقة بقلبي ، لقد خفق بشدة
وعنف ، خفق لرؤية وجهه ، وخفق لسماع صوته ، وما كان
عهدي به أن يخفق شيء من هذا ، فوسوس لي صوت خفي بأن
ذلك الرجل صاحب هذا القلب دون منازع ، فغمرني إحساس
قوى عنيف ، عذب ألیم ، وشعرت شعورا وثابا بأنه ينبغي أن
يكرن لي كقلبي ، وأن أكون له كنفسه ، ولم أعد أتصور أن
تطيب حياة ، أو يلد وجود بغير هذا الامتزاج ...

فقالت شيث لاهته : يا للغيرة يا مولاتى ...

— نعم يا شيث ، طالما تمتعت بالحرية المطلقة ، كنت أتخذ
مجلسي على ربوة عالية وأسرح ناظري في عالم واسع غريب ،
وأسامر عشرات الرجال ، وأتذوق متع الأحاديث ، وأتملى
آيات الفن ، وألهو بالمجون والغناء ، ولكن كان يرين على صدرى
سأم لا شفاء له وتغشى نفسي وحشة لا طمأنينة معها ، الآن
يا شيث ضاقت آمالي ، وانحصرت في رجل واحد هو مولاي ،
وهو دنيائى ، ولكن دبت حياة دافقه طردت من طريق حياتى

السأم والوحشة ، وأفاضت عليه نورا وبهجة ، فقدت نفسى فى الدنيا الواسعة ، ووجدتها فى رجلى الحبيب . . أرايت ما هو الحب يا شيث ؟

فهزت الجارية رأسها فى حيرة ، وقالت : يا له من أمر عجيب كما تقولين يا مولاتى . . ولعله أعذب من الحرية نفسها ، وإنى أسائل نفسى عما أحس به من الحب ، إن الحب لدى كالجوع ، والرجل كالطعام . . وإنى أحب من الرجال قدر ما أحب من الأطعمة دون حيرة . . وحسبى هذا . .

فضحكت رادوييس ضحكة رقيقة كرنين الوتر ، ثم قامت واقفة ، وذهبت إلى شرفة تطل على الحديقة ، وأمرت شيث أن تأتى لها بقيشارة . أحست برغبة إلى اللعب بالأوتار والغناء ، كيف لا والدنيا جميعا تنشد لحنا بهيجا . .

وغابت شيث برهة ، ثم عادت حاملة القيشارة ، وأسلمتها إلى يدي مولاتها ، وهى تقول : هل يزعجك أن تؤجلى اللهو إلى حين ؟ فسألته ببساطة ، وهى تتناول القيشارة :

— وله ؟ . .

— طلب إلى أحد العبيد أن أخبرك بأن إنسانا يطلب الإذن بمقابلتك .

فلاح الاستياء على وجهها ، وسألتها بحفاء :

— ألا يعرف من هو ؟ ..

— يقول إنه .. يزعم أنه مرسل من قبل المثال هنفر .

وتذكرت ما قاله لها المثال هنفر أول أمس عن تلميذ أنابه

عن نفسه لزخرفة الحجرة الصيفية ، فقالت لشيث :

— إيتى به إلى ...

وأحست بمضايقة واستياء ، وأمسكت القيثارة بحدة ،

ولعبت أناملها بالأوتار فى خفة وغضب ، لعبا لا وحدة بين
أجزائه .

وعادت شيث يسير على أثرها شاب حديث العمر ، وقد

أحنى رأسه فى إجلال ، وقال بصوت رقيق :

— أسعد الرب يومك يا سيدتى ...

فوضعت القيثارة جانبا ، ونظرت إليه من خلال أهدابه

الطويلة . كان غلاما معتدل القامة نحيف القد ، أسمر الوجه

حسن القسمات ، واسع العينين إلى درجة تلفت النظر ، تلوح

فيها آى الصفاء والسذاجة ، فأخذتها حداثة سنه ، وصفاء عينيه

وتساءلت متعجبة : هل يستطيع حقا أن يتم عمل المثال العظم

هنفر ، وقد أحست بارتياح إلى رؤيته ، أذهب عنها موج

الاستياء التي اجتاحتها، وسألته :

— أنت تلميذ المثال هنفز الذي اختارك لخرقة الحجرة

الصيفية؟ ...

فقال الشاب بارتباك ظاهر، وكان بصره يتردد بين وجهه

رادوبيس وأرض الشرفة :

— نعم يا سيدتى .

— حسن، وما اسمك؟ ..

— بنامون ... بنامون بن يسار .

— بنامون ... كم تبلغ من العمر يا بنامون فأنى أراك

صغيرا؟ ...

فتورد خداه، وقال :

— أبلغ الثامنة عشرة فى مسره القادم .

— أراك تبالغ فى التقدير .

فقال الشاب بإخلاص :

— كلا يا سيدتى إن ما أقول هو الحق .

— يا لك من طفل يا بنامون ...

واختلجت عيناه الواسعتان العسليتان قلقا، وكأنه خشى

أن تعرض عنه لحداثة سنه، وقرأت مخاوفه، فقالت مبتسمة :

— لا تقلق فإنى أعلم أن هبة المثال فى يده لا فى عمره .

فقال بحماس :

— لقد شهد لى أستاذى الفنان الكبير هنفر .

— هلى سبق أن قمت بعمل هام ؟

— نعم يا سيدتى ، زخرفت بجانبنا من الحجرة الصيفية بقصر السيد آنى حاكم بيجه .

فقلت : أنت طفل نابغ يا بناموتى .

فتورد خداه ، ولمعت عيناه بنور الفرح ، وغمرته سعادة دافقة ، ونادت رادوييس شيث ، وأمرتها أن تذهب به إلى الحجرة الصيفية . . . وتردد الشاب قليلا قبل أن يتبع الجارية ، وقال :

— ينبغى أن تفرغى لى كل يوم . . . فى أى وقت تشائين .

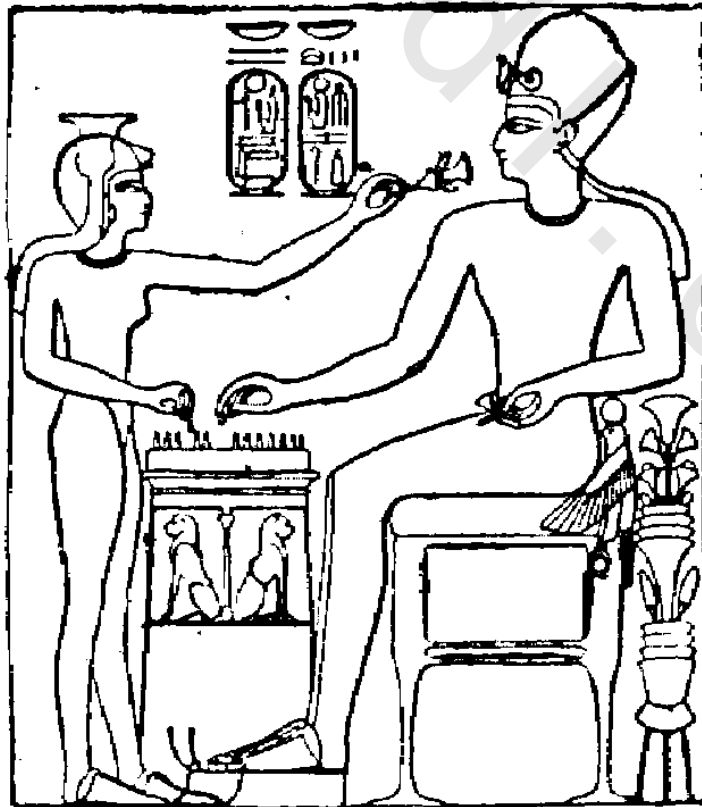
فقلت : لقد ألقت نفسى أمثال هذه الواجبات . . . هل تنحت لى صورة كاملة ؟

— أم نصفية ، وربما إكتفيت بتصوير الوجه ، وعلى أية حال هذا يتبع الصورة العامة للزخرف .

قال ذلك ، وأخنى رأسه ، وسار على أثر شيث ، وذكرت المرأة المثال هنفر ، وقالت لنفسها فى مخزية : هل كان يدور له

بخلد أن القصر الذي سألها أن تفتحه لتليذه ، سيحرم عليه هو دخوله ؟ ...

وأحست بارتياح إلى الأثر الذي تركه وجه الشاب الساذج في نفسها ، وامله آثار في قلبها عاطفة جديدة لم تدب بها الحياة من قبل . هي عاطفة الأمومة . . . وسرعان ما أشفقت عليه من عينيها وسحرهما الذي لم ينبج منه إنسان ، ودعت الرب مخلصه أن يحفظ له ضمائنته وشفاءه ، ويجعله بمنجاة من دواعي الألم واليأس . . .



بنامون

وبرا بوعدها قصدت لدى ضحى اليوم الثانى إلى الحجرة
الصيفية بالحديقة ، ووجدت بنامون جالسا إلى منضدة ، باسطا
على سطحها ورقة من البردى ، يرسم عليها أشكالا مختلفة ويبدو
عليه آى الانهماك والتفكير ، ولما أحس بوجودها ، وضع قلبه
وقام واقفا وأخنى رأسه لها ، فحيتته بابتسامة وقالت : سأجعل
لك هذه الساعة من الصباح ، فهى التى أملكها من يومى الطويل ..
فقال الشاب بصوته الخافت الخجول : شكرا لك يا سيدتى ،
ولكننا لن نبدأ اليوم ، لأننى ما أزال أضع الفكرة العامة
للزخرف .

فمالت : آه .. لقد غررت بى يا غلام ..

— حاشاى يا سيدتى .. بل عننت لى فكرة رائعة .

فنطرت إلى عينيه الواسعتين الصافيتين بسخرية ، وقالت

— ترى هل يستطيع حقا هذا الرأس الصغير ، أن يبدع
فكرة رائعة ؟ ..

فتخضب وجهه بالاحمرار ، وقال بارتباك وهو يشير إلى

الجدار الأيمن : سأملأ هذا الفراغ بصورة وجهك وعنقك .
— يا للهول .. أخشى أن يأتى بشما مخيفاً ..
— بل سيبدو جميلاً كما هو .

نطق الشاب بهذه العبارة ببساطة وسذاجة ، فخدجته بنظرة
فاحصة ، فسارع الارتباك إليه ، وتحيرت عيناه الصافيتان ،
وأشفقت عليه فنظرت إلى الأمام ، حتى استقر بصرها على
البركة خلال الباب الشرقي للحجرة .. ياله من شاب رقيق كالعذراء
السادجة ، إنه يهيج فى صدرها حناناً غريباً ، ويوقظ الأمومة
النائمة فى سراديب نفسها ، والتفتت إليه ، فرأته منكباً على عمله ،
ولكنه لم يكن متفرغاً له ، وآية ذلك أنه كان ظاهر الارتباك
مورد الخدين ، أليس ينبغى أن تتركه وتذهب إلى حال سبيلها ؟
ولكنها أحست برغبة فى التحدث معه ، فأطاعت رغبةها وسأله :
— أمن أهل الجنوب أنت ؟

فرفع الشاب رأسه ، وقد اكتسى وجهه بنور فرح بهيج ،
وقال : أنا من أمبوس يا سيدى .

— أمبوس ؟ .. أنت من شمال الجنوب إذاً ، ولكن ما الذى
جمع بينك وبين المثال هنفر ، وهو من أهل بلاق ؟
— كان والدى من أصدقاء المثال هنفر ، ولما رأى تعلقى

بالفن أرسلنى إليه ووصاه بى .

— وهل والدك من طائفة الفنانين ؟

فصمت الشاب هنيهة ، ثم قال : كلا . . كان والدى كبير أطباء أمبوس وكان نابغة فى الكيمياء والتحنيط ، وقد تعددت اكتشافاته فى طرائق التحنيط وتركيبات السموم . .

فقهمت المرأة من سياق حديثه أن والده مات ، ولكنها عجبت لاكتشافه تركيبات السموم ، وسألت الشاب :

— ولماذا كان يصنع السموم ؟ . .

فقال الشاب بلهجة حزينة : كان يستعملها كأدوية ناجمة ، ويأخذها الأطباء عنه ، ولكنها والأسفاء كانت السبب فى القضاء على حياته .

فسأله باهتمام شديد : كيف كان ذلك يا بنامون ؟

— أذكر ياسيدتى أن والدى ركب سما عجيبا ، وكان يفاخر دائما بقوله : « إنه أفنك السموم جميعا ، وأنه يقضى على ضحيته فى ثوان معدودة » وسماه لذلك السم السعيد ، وفى ليلة أسيفة قضى الليل كله فى معمله ، يشتغل بلا انقطاع ، وفى الصباح وجد مددا على مقعده فاقد الروح ، وإلى جانبه قارورة سم من ذلك السم الفاتك مفضوضة السداد . . .

— يا للغرابة... هل انتحرت؟

— من المحقق أنه تناول جرعة من السم الفاتك، ولكن ما الذى دفعه إلى الهلاك؟... لقد دفن سره معه، واعتقدنا جميعا أن روحا شيطانيا تلبسه، وأضله الحكمة، فأتى فعلته فى حالة إعياء وذهول، ولجج أسرتنا جميعا...

واكتسى وجهه بحزن عميق، وأنحنت رأسه على صدره، فأسفت رادوييس على إثارتها هذا الموضوع الأليم، وسألته:

— وهل أمك على قيد الحياة؟

— نعم يا سيدتى، وهى تعيش بقصرنا فى أمبوس، أما معمل والدى، فلم يلبح بابه إنسان منذ تلك الليلة...

وعادت المرأة: وهى تفكر فى موت الطبيب بسار الغريب، وفى سمومه المودعة المعمل المغلق...

وكان بنامون الإنسان الوحيد الغريب الذى يلوح فى أفقها الهادئ المنطوى على الحب والطمأنينة، وكان الوحيد كذلك الذى ينتهب من وقتها الموهوب للحب ساعة كل صباح، على أنه لم يضايقها قط لأنه كان أرق من الطيف. ومضت الأيام، وهى مغرقة فى الهوى، وهو منكب على عمله، وحياة الفن العالية تدب فى جدران الحجرة الصيفية، وكان يسرها أن ترقب يده،

وهي تبث في الحجر روحا من جمالها الرائع ، وقد اقتنعت بمقدرته الفائقة ، ووقر في نفسها أنه سيخلف المثال هنفر في مستقبل قريب ، وقد سأله يوما ، وهي تهتم بمغادرة الغرفة بعد جلسة ساعة :

— ألا يلحقك التعب أو السأم ؟

فابتسم الغلام بفخار ، وقال : هيات ...

— كأنك تدفع بقوة شيطان ...

فأشرق وجهه الأسمر بابتسامة وامضة ، وقال بهدو وسذاجة :

— بل بقوة الحب ...

وارتجف قلبها لوقع هذه الكلمة التي توقظ في قلبها أشبه الذكريات ، وتنادى إلى مخيلتها صورة حبيبة محاطة بالبهاء والجلال ولم يكن يدرك شيئا مما يقوم في نفسها ، فاستدرك قائلا :

— ألا تعلمين يا سيدتى أن الفن هوى ؟

— حقا ؟ !

فأشار إلى أعلى جبينها الذى وضع رسمه على الجدار ، وقال

— هاك نفسى خالصة ...

وكانت ملكت عواطفها ، فقالت بسخرية :

— يا لها من حجر أصم .

— كانت حجرا قبل أن تلمسها يداي، أما اليوم فهي نفسي .
فضحكت قائلة : يا لك من مغرق في حب نفسه . . .

هكذا قالت وهي توليه ظهرها ، ولكن وضح على أثر ذلك
اليوم أن نفسه ليست الشيء الوحيد الذي يحبه . وكانت تسير
في الحديقة على غير هدى كخاطر حائر في دماغ عالم سعيد ،
فأشرفت بغتة على الحجرة الصيفية ، وساقها ميل إلى التسلية إلى
اعتلاء ربوة في غابة الجميز ، وإرسال النظر خلال نافذة الحجرة ،
وكان وجهها الآنخذ في الاستواء والاكتمال يواجهها على الجدار
المقابل ، ورأت الفنان الشاب في أسفل الجدار ، وكانت تظنه
ينهمك في عمله كعادته ، ولكنها وجدته يحثو على ركبتيه ، ويداه
مشتبكتان على صدره ، ورأسه متجه إلى أعلى كأنه مستغرق في
صلاة ، إلا أن رأسه كان متجها إلى ما تم نخته من رأسها
وجبينها . . .

ودفعتها غريزتها إلى الاختفاء وراء فرع شجرة ، ومضت
ترقبه خلسة دهشة مذعورة ، ورأته يقوم واقفا كأنه ينفتل من
صلاته . ورأته يمسح عينيه بطرف كمه الواسع . . . نفخق قلبها ،
ولبثت برهة لا تبدى حراكا ، والسكون مطبق من حولها لا

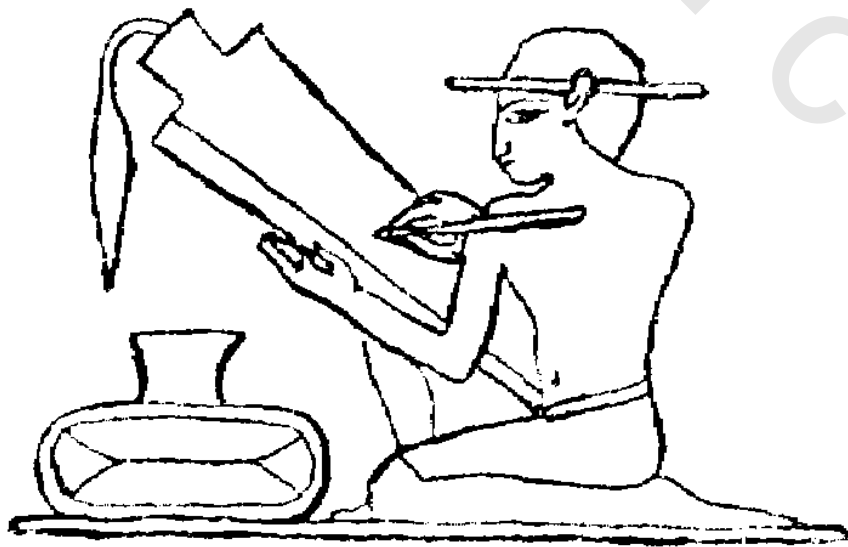
يسمع بين آوثة وأخرى سوى رفرقة البطح السابح على سطح الماء
أو طينه ، ثم التفتت إلى الوراء وانحدرت بسرعة في طريقها
إلى القصر . . .

وقع ما ط لما أشفقت من وقوعه رحمة به ، وكانت تطالع معناد
في عينيه الصافيتين كلما رنا بهما إليها ، وما كانت تستطيع دفع
الشر ، فهل تباعد يده وبينها ؟ . . هل تغلق باب القصر في
وجهه بأية علة تعتل بها عليه ؟ . . لكنها أشفقت من تعذيب
نفسه الرقيقة وباتت في حيرة من أمرها . . .

على أن حيرتها لم تعطل بها ، ولم يكن شيء في الرجود بقادر
على أن يستبد بوجدانها أكثر من ساعة عابرة ، لأن عواطفها
وإحساساتها جميعا كانت نهب الحب ، وملك يدي حبيب طموح
لا يقنع من الحب بشيء . . . كان يطير إلى قصرها الخالم هاجرا
قصره وودنياد ، غير آسف ولا متردد ، فكانا يفران معا من الوجود
ويلوذان بنفسيهما العامرتين بالحب ، ويستسلمان لسحر الهوى
وفتونه ، ويصليان ناره ، ويشهدان الحجرات والحديقة والأطيار
على روعة وجبروته ، وكان أقصى ما يلتقيان من أسباب الهموم
في أيامها تلك أن تكتشف رادوييس في الضحى بعد توديته
لها ، أنها لم تسأله أعينها يؤثر بالشوق أم شفقتها ، أو

أن يذكر وهو في طريقه إلى قصره أنه لم يقبل ساقها التي مثلها
قبل اليسرى، وربما حمله أسنمه على أن يكر راجعا لينق عن حياته
أتفه أسباب الهموم...

كانت أياما لا نظير لها في الأيام
كأنما اشتقت مادتها من الصفاء والسعادة...



خنوم حنب

وكان الزمان الذى يمنح قوما الصفاء والسعادة ، يتجههم لوجه رئيس الوزراء وكبير الكهنة خنوم حنب . كان الرجل يقبع فى دار الحكومة ، يرقب الأمور بعينين متشائمتين ، ويستمتع إلى ما يقال بأذان مرهقة وقلب حزين ، ثم يستوصى بالصبر ما أمكن الصبر .

وكان الأمر الذى أصدره الملك بنزع أراضى المعابد ينقص عليه صفو حياته ، ويضع فى سبيل حكمه عراقيل من الأزمات النفسية، لأن جمهور الكهنة قابله بفرع وألم، ونشط أكثرهم إلى كتابة العرائض والالتماسات ، وتوجيهها إلى رئيس الوزراء وكبير الحجاب ...

ولاحظ الرئيس أن الملك لا يمنحه من وقته عشر معشار ما كان يمنحه من قبل ، وأنه نادرا ما يحظى بمقابلاته والتحدث إليه فى أمور المملكة . وذاع على أثر ذلك أن فرعون يهوى غانية القصر الأبيض بييجة ، وأنه يبىث لياليه فى قصرها ، ثم شوه الصانع يساقون إلى قصرها جماعات جماعات ، ورثت

وزرافات العبيد حاملة فاخر الاثاث وثمانين الجواهر ، وثمانين
الكبراء بأن قصر رادوبيس يتحول إلى مشوى من الذهب
والفضة والمرجان ، وأن أركانه تشهد هوى جامع يتقاضى مصر
أموالا لا تعد ولا تحصى . . .

وكان خنوم حتب رأسا كبيرا وعينين عميقتين ، وقد نفذ
صبره ، وضاق بحموده ، وفكر في الأمر طويلا ، وعزم على أن
يبدل ما في وسعه ليحول الأمور عن السبيل الذى تندفع فيه ،
فأرسل رسولا من قبله برسالة إلى كبير الحجاب سونخاتب رجاه
فيها إلى موافاته بدار الحكومة . وسارع كبير الحجاب إلى
مقابلته ، وصالحه الوزير ، وقال له :

— إني أشكرك أيها المبجل سونخاتب على تلميتك لرجائي .
فأخنى كبير الحجاب رأسه ، وقال :

— إني لا أتوانى عن القيام بواجب المقدس في خدمة مولاي .
وجلس الرجلان وجهها لوجه . وكان خنوم حتب صلب
الإرادة حديدى الأعصاب ، فظل وجهه هادئا رغم ما يحيش
بصدره من الأحزان ، وقد استمع إلى قول كبير الحجاب في
سكون ، ثم قال :

— أيها المبجل سونخاتب ، كلنا نخدم فرعون ومصر بإخلاص

— هذا حق يا صاحب القداسة .

ورأى خنوم حتب أن يطرق موضوعه الخطير ، فقال :

— ولكن ضميري لا يرتاح إلى سير الأمور في هذه الأيام .

وبت أتعثر بالمتاعب والمشكلات ، وقد رأيت - واحسبني في

رأيت من الصادقين - أن مقابلة بنىء يثك لا شك تأتي بخير كثير .

فقال سونخاتب : إنه ليسعدنى وحق الأرباب أن تصدق في

فراستك يا صاحب القداسة .

فهز الرجل رأسه الكبير دلالة على الرضا ، وقال بأهجة تم

على الحكمة .

— يحذر بنا أن نستوصى بالصراحة ، فالصراحة كما يقول

فيلسوفنا قائقنا آية الصدق والإخلاص .

فأمن سونخاتب على قوله قائلًا :

— صدق فيلسوفنا قائقنا .

قصمت خنوم حتب دقيقة يجمع أفكاره ، ثم قال بصوت

تم على الحزن :

— يندر أن أحظى بمقابلة جلالة الملك في هذه الأيام .

وانتظر الوزير أن يعقب الرجل على كلامه ، ولكنه لازم

الصمت فاستطرد قائلًا :

— وأنت تعلم أيها المبهجل أنى كثيرا ما أطلب تحديد وقت لمقابلته ، فيقال لى إن ذاته المعبودة خارج القصر .
فبادرد سو فخاب قائللا :

— ليس لإنسان أن يحسب على فرعون حركاته وسكناته .
فقال الوزير :

— ما فصدت إلى هذا قط أيها المبهجل ، ولكنى أعتقد أن حتى كوزير ، يخول لى المثلون بين يدى جلالته بين آونة وأخرى لأقوم برأجباتى على الوجه الكامل . . .
— معذرة يا صاحب الفداسة . ولكنك تحظى بالمثلون بين يدى فرعون .

— نادرا ما تتاح لى الفرصة . وتجدنى لأدرى ما الحيلة لأعرض على ذاته العليا التماسات تزدهم بها حجرات الحكومة .
فخدجه الحاجب بنظرة فاحصة ، وقال :

— لعلها تمس موضوع أراضى المعابد .

ولتمعت عينا الوزير بنور خاطف ، وقال :

— هو ذلك ياسيدى . فقال سو فخاب بسرعة :

— إن فرعون لا يريد أن يسمع جديدا حول هذا الموضوع إن جلالته قال فيه كلمته الأخيرة .

- إن السياسة لا تعرف كلمة أخيرة .
- فقال سوخاتب بلهجة لم تحل من حدة .
- هذا رأيك يا صاحب القداسة ، وعسى ألا أشاركك فيه .
- أليست أملاك المعابد تراثا تقليديا ؟
- واستاء سوخاتب لأنه شعر بأن الوزير يستدرجه إلى حديث يأباه ، بعد أن أعلن له إباءه ، فقال بلهجة لا تدع له أى احتمال للشك :
- سأقف عند كلمة مولاي لا أتعداها .
- إن أخلص الناس لمولاه من يصدقه النصيحة .
- واشتد استياء الحاجب الأكبر لبقاء القول ، وثار كرامته ثورة مكتومة ، فقال بشدة :
- إني أعرف واجبي يا صاحب القداسة ، ولكني لا أسأل عنه إلا أمام ضميري .
- فتهدخنوم حتب يائسا ، ثم قال فى هدوء وتسليم .
- إن ضميرك فوق الشبهات أيها المبجل . وما داخلى شك قط فى إخلاصك أو حكمتك ، ولعل هذا ما دعانى إلى الاسترشاد برأيك . أما وإنك ترى أن هذا لا يتفق وإخلاصك ، فلا يسعنى إلا العندول عنه أسفا ، وليس لدى الآن إلا رجاء واحد .

فقال سونخاتب :

— تفضل يا صاحب القداسة .

— إني أرجو أن ترفع إلى مسامع حضرة صاحبة الجلالة الملكة رجائي بالتشرف بين يديها اليوم .

وأخذ سونخاتب ، ونظر إلى محدثه نظرة دالة على الدهشة .
لأنه وإن كان الوزير لم يجاوز حدوده بهذا الرجاء إلا أنه لم يكن متوقعه ، فاستولى الارتباك على الحاحب ، أما خنوم حتب فقال بلمهجة دلت على العزم .

— إني أقدم هذا الرجاء بصفتي رئيس وزراء المملكة المصرية .

فقال سونخاتب بقلق :

— ألا انتظرت إلى الغد لأحيط الملك علما برغبتك ؟

— كلا أيها المبجل ، إني أرجو أن أستعين بجلالة الملكة على تذليل العقبات التي تعترض سبيلي ، فلا تضيع فرصة ذهبية عسى أن أخدم بها مليكي ووطني .

فلم يسع سونخاتب إلا أن يقول :

— نسأرفع رجاءك إلى جلالته في الحال .

وقال خنوم حتب ، وهو يمد له يده المصافحة :

— سأنتظر رسولك .

فقال الحاجب الأكبر ، وهو يودعه :

— كما تشاء يا صاحب القداسة .

ولما خلا خوم حتب بنفسه قطب جبينه ، وأصر على أسنانه
بشدة ، فبدت ذقنه العريضة كقبضة من الجرانيت ، ومضى يذرع
الحجرة ويعمل فكره ، وكان لا يشك في إخلاص سوختاب ،
ولكنه كان قليل الثقة في شجاعته وعزمته ، وقد دعاه وهو يائس
منه ، ولكنه لم يرد أن يترك وسيلة بلا تجربة ، ثم تساءل قلعا :
هل تقبل الملكة رجاءه ، وتدعوه لمقابلتها ! وما عساه يصنع
لو رفضت مقابلته ؟ . . إن الملكة قوة لا يستهان بها ، وعسى أن
تحل العقدة المستحكمة بذكائها ، فتتخذ ما بين الملك والكهنة من
من الانهيار والتفكك ، ولا شك أن الملكة تدرك سوء تصرف
الملك الشاب ، وتألم له أشد الألم ، فهي ملكة مشهود لها بالفطنة ،
وهي زوجة تشارك الزوجات أفراحهن وأحزانهن . أليس من
المحزن أن تنزع أملاك المعابد لينذل ريعها رخيصا تحت أقدام
راقصة ؟

إن الذهب يتدفق إلى قصر بيجة من أبوابه ونوافذه ،
ومهرة الصناع يتقاطرون عليه ويعملون ليل نهار في صنع أثائه

وحلى ربه وأثوابها . وأين . أين فرعون . . هجر زوجه
وحرمة ووزراءه ، وقنع من الدنيا بقصر الراقصة الساحرة !
وتهد الرجل فى حزن عميق ، وتمتم قائلا : ما ينبغى لمن
يجلس على عرش مصر أن يلهو . . .

وراح فى تفكيره العميق ، ولكن لم يطل به الانتظار ، إذ
دخل عليه حاجبه ، واستأذن لرسول آت من القصر فأذن ،
وانتظر الرجل فى لهفة ، وقد اضطربت شفتاه فى تلك اللحظة
الفاصلة على قوة إرادته وصلابة أعصابه ، ودخل الرسول ،
وأخى رأسه نحيا ، وقال باقتضاب :

— إن حضرة صاحبة الجلالة الملكة تنتظركم يا صاحب
القداسة .

وحمل من فوره أضمامة من الالتماسات ، وذهب إلى عجلته
التي طارت به إلى القصر ، وما دار له بخلد أن يأتيه الرسول
بهذه السرعة ، فلا شك أن الملكة تكابد حزنا وقلقا ، وتعانى من
الآلام فى وحدتها الموحشة ، ولا شك أنها تتصبر على الإهانة
والحرمان قاعة فى سياج قاس من الكبرياء والصمت ، إنه يحس
أنها من رأيها ، وأنها ترى الأمور بالعين التي تراها بها الكهنة
والعقلاء جميعا ، وعلى أية حال فسيؤدى واجبه ، ولتقض الآلهة

أمرا كان مفعولا .

وبلغ القصر . وقصد توا إلى جناح الملكة ، ولم يلبث أن
دعى إلى مقابلة جلالته في بهو استقبالها الرسمي ، وأدخل البهو
فاتحه نحو العرش ، وأحنى هامته حتى مست جبهته حاشية ثوبها
الملكي ، وقال بإجلال عميق .

— السلام على مولاتي الملكة نور الشمس وبهاء القمر .
فقلت الملكة بصوت هادئ :

— السلام عليك أيها الرئيس خنوم حتب .
واستقامت قائمة الوزير ، وإن ظلت رأسه منكسة ، وقال
بخشوع :

— إن عبدك الخاضع يعجز لسانه عن أداء الشكر لذاتك
العالية على تفضلك الكريم باستقباله .
فقلت الملكة بصوتها المتزن النبرات :

— إني أعتقد أنك لا ترجو مقابلي إلا لأمر خطير ، فلم
أتوانى عن استقبالك .

— تعالت حكمة مولاتي ، فالأمر جد خطير ، وما هو إلا
صميم السياسة العليا .

وانتظرت الملكة صامته . فاستجمع الرجل قواه الذاتية ،

وقال : إني يا صاحبة الجلالة أصطدم بعقبات شديدة ، حتى بت
أنخشي ألا أقوم بواجبي بما يرضى ضميري ومولاى فرعون .
وسكت لحظة ، واختطف من وجه الملكة الهادى نظرة
سريعة كأنه يمتحن أثر كلامه فيها ، أو ينتظر كلمة تشجعه على
الاسترسال ، وأدركت الملكة معنى تردده ، فقالت :
— تكلم أيها الوزير فإني مصفية إليك .
فقال خنوم حتب :

— اصطدمت بهذه العقبات على أثر صدور الأمر الملكى
بنزع أكثر أملاك المعابد . فقد اضطرب الكهنة وفزعوا إلى
الالتماسات يرفعونها إلى أعتاب فرعون . فهم يعلمون أن أراضى
المعابد منح وهبتها الفراعنة عطفاً ، فاشفقوا من أن يكون
استردادها سخطاً .

ولاذ الوزير بالصمت هنيئة ، ثم استدرك قائلاً :
— الكهنة يا مولاتى جنود الملك فى وقت السلم . والسلم
ينشد رجالاً أصلب عوداً من رجال الحرب ، فمنهم المعلمون
والحكماء والوعاظ ، ومنهم حكام ووزراء ، وما كانوا ليتوانوا
عن التنازل عن أملاكهم حباً وكرامة ، لو دعت إلى ذلك شدة
حرب أو قحط ، ولكنهم ...

وتردد الرجل عن الكلام لحظة ، ثم استطرد بصوت أشد خفوقا :

— ولكن يحزنهم أن يرووا هذه الأموال تنفق في غير هذه الوجوه

ولم يرد أن يجاوز هذا الحد من التلميح ، ولم يداخله شك في أنها تفهم كل شيء وتعلم كل شيء . ولكنها لم تعقب على كلامه بكلمة . فلم يردا من أن يتقدم إليها بالالتماسات ، ثم قال :

— هذه الالتماسات يا صاحبة الجلالة تعبر عن إحساس رؤساء المعابد ، وقد رفض مولاي الملك أن ينظر فيها ، فهل لمولاي أن تطلع عليها ، فإلشا كون طائفة من شعبكم المخلص تستحق الرعاية ...

وقبلت الملكة الالتماسات ، فوضعتها الوزير على منضدة كبيرة ، ووقف في سكون منكس الرأس ، ولم تعده الملكة بشيء ، وما طمع في هذا قط ، ولكنه تفامل خيرا بقبول الالتماسات . ثم أذنت له بالانصراف ، فتراجع ويداها على عينيه .

وفي طريق العودة حادث الوزير نفسه قائلا : إن الملكة شديدة الحزن ، وعسى أن ينفع حزنها قضيتنا العادلة ...

نيتو قرىس

غيب الباب الوزير ، ووجدت الملكة نفسها وحيدة في البهو الكبير ، فأسندت رأسها المتوج إلى ظهر العرش ، وأغلقت جفניה ، وتنهدت تنهدا عميقا ، صعد أنفاسا حارة مكتوبة بحرقه الحزن والألم ، فلشد ما تتصبر وتتجلد ، حتى أن أدنى الناس إليها لا يدرى بألسنة اللهب التي تحترق بها أحشاؤها بغير رحمة.. وقد ظلت تطالع الناس بوجه هادئ يكتنفه الصمت كأبى الهول. وما كانت تجهل من الأمر شيئا ، فقد شاهدت المأساة من بدء فصولها ، ورأت الملك يتردى في الهاوية ، ويذهب فريسة لهواه الجراح ، ويهرع إلى تلك المرأة - التي شاد بحسنها كل لسان - لا يلوى على شيء . وأصابها سهم سام في عزة نفسها وسويداء عواطفها ، ولكنها لم تبد حراكا ، ونشب في صدرها صراع عنيف بين المرأة ذات القلب ، والملكة ذات التاج ، وأثبتت التجربة أنها كأبيها قوية الشكيمة ، فصهر التاج القلب ، وخنقت الكبرياء الحب ، فانطوت على نفسها الحزينة سحينة خلف الستائر ، وهكذا خسرت المعركة ، وخرجت منها مهيضة الجناح ، وما

رمت عن قوسها سهمًا واحدًا . . .

وكان الذى يدعو إلى السخرية ، أنهما ما زالا يعدان عروسين . على أن تلك الفترة القصيرة كانت كافية لإظهار ما انطوت عليه نفسه من الجروح العنيف والهوى الطائش ، فما عثم أن ملأ الحريم بعدد لا يحصى من الجوارى المحظيات من مصر والنوبة وبلاد الشمال ، ولم تكن تأبه لهن ، لأنهن جميعا لم يصرفنه عنها ، ولبثت ملكته وملكة فؤاده ، إلى أن ظهرت فى أفقه هذه المرأة الساحرة فحذبتة إليها بعنف ، وملكنت عواطفه وعقله جميعا ، واستأثرت به دون زوجته وحرمة ورجاله المخلصين ، ولعب بها الأمل الخادع حيناً ، ثم أسلمها إلى اليأس ، يأس مكفن بكبرياء ، فأحست بقلبها يتجرع سكرات الموت .

وكانت تأتى عليها أحيان يثب الجنون فى دماغها ، وتشع عيناها نورا خاطفا ، قتهم بالوثب والبطش والمناخفة عن قلبها الكسير ، ثم سرعان ما تقرل لنفسها باحتقار شديد: كيف يصح لنيثوقريس أن تنازل امرأة تبيع جسدها بقطع الذهب ؟ فتبرد دماؤها ، ويتجمد الحزن فى قلبها كالسّم الفاتك فى المعدة . . .

ولكن ثبت لها اليوم أن هناك قلوبا غير قلبها تعاني الآلام بسبب تهور الملك ، وها هو ذا خنوم حتب يشكو إليها بثه ،

ويقول لها بعبارة بيّنة: إنه لا يجوز أن تنزع أملاك المعابد لتلهو بها رادوبيس الراقصة، ويؤمن بقوله المئين من صفوة الحكماء...
أولا ينبغي أن تخرج عن صمتها؟ وإذا لم تتكلم الآن فمتى ينبغي الكلام؟ وقالت لنفسها إن الملك يتهور تهور المجانين، وإنه ينبغي لها أن تعالج جنونه بحكمتها. وقد آلمها أن يرتقى الهمس إلى العرش الممكين، وأحست بأن واجبها يقضى عليها بإزالة الهواجس وإعادة العِلْمَ نديّة، وهان عليها أن تدوس على كبريائها، وتوطد العزم على أن تتقدم بخطى ثابتة في سبيلها السوى مستعينة بالأرباب.

وارتاحت الملكة لتفكيرها الذي أملته عليها الحكمة والدواعي الباطنة، وانهار عنادها الأول بعد أن ثابر مثابرة المستميت، وصدقت عزيمتها على مواجهة الملك بقوة وإخلاص...
وغادرت البهو إلى مخدعها الملكي، وقطعت بقية نهارها في التفكير والتأمل، ونامت ليلها نوما متقطعا شديدا العذاب، وانتظرت الضحى على لهفة، وهو الوقت الذي يصحو فيه الملك بعد سهر الليل... ولم يداخلها التردد، فانتقلت بخطى ثابتة إلى جناح الملك، وقد أحدث انقلاها الغريب حركة بين الحراس، فأدوا لها التحيّة، وسألت واحدا منهم قائلة:

— أين جلالة الملك ؟

فأجابها الرجل بإجلال قائلاً :

— فى مشواه الخاص يا صاحبة الجلالة .

وسارت بتؤدة إلى حجرة الملك التى يخلو فيها بنفسه ،
وأجتازت بابها الكبير ، وكان فرعون يجلس فى الصدر يفصله
عن الباب أربعون ذراعاً ، حملت من آى البلمنية والفن ما لا تصدق
العيون ، ولم يكن الملك يتوقع رؤيتها ، وكانت مضت أيام
عديدة على آخر لقاء ، فقام واقفا دهشاً ، واستقبلها بابتسامة
دلت على الارتباك . وقال لها ، وهو يشير إليها بالجلوس .

— أسعدتك الآلهة يا نيتوقريس . . . لو علمت برغبتك فى

مقابلتى لبادرت إليك !

فجلست الملكة فى هدوء ، وهى تخاطب نفسها قائلة

من أدراه أنى لم أرغب فى لقائه طوال هذه الفترة ! ثم وجهت
إليه الخطاب قائلة :

— لا داعى لإزعاجك أيها الأخ ، فإنى لا أجد غضاضة فى

الانتقال إليك مادام الذى يحركنى واجب .

ولم يلق الملك إلى كلامها بالاً ، لأنه كان يحس بخرج شديد ،

وقد تأثر لمجيئها وجمود وجهها ، فقال :

— إني خجل يا نيتوقريس .

وعجبت لطرقه هذا الموضوع . وكان آلمها ألما خفيا أن تراه في منتهى السعادة والصحة كالزهرة الناضرة ، فقالت بانفعال رغم ضبطها عواطفها .

— يهون لدى كل شيء إلا أن تخجل !

وكان أرق اللس يهيجه ، ويرده من حال إلى حال ، فعض على شفته ، وقال :

— أيتها الأخت ، إن الإنسان هدف لأهواء طاغية ، وقد يهوى لإحداها فريسة .

وطعنها اعترافه بتمسوة في كبريائها وعواطفها ، فنست حلها ، وقالت بصراحة :

— يحزننى وحق الرب ، وأنت فرعون أن تشكو الأهواء الطاغية .

وأحس الملك الغضوب بوخز كلامها ، فأهاجه الغضب ، واندفع الدم إلى رأسه ، فانتفض واقفا ينذر وجهه بالشر ، وخشيت الملكة أن يفسد غضبه عليها الغرض الذى جاءت من أجله ، فندمت على قولها ، وقالت له برجاء .

— أنت الذى سقتنى إلى هذا الحديث أيها الأخ ، وما لهذا

جئت ، وعسى أن يفرخ غضبك ، أن تعلم أنى قصدت إليك
لأحدثك فى شئون هامة تمس سياسة المملكة التى نجلس على
عرشها سويا .

فكظم حنقه ، وسألها بلبهة كالهداة .

— ما حديثك أيتها الملكة ؟

وأسفت الملكة على أن مسق الحديث لم يؤد إلى جو صالح
لغرضها ، ولكنها لم تر بدا من الكلام ، فقالت باقتضاب :
— أراضى المعابد .

فعبس وجه الملك ، وقال بامتعاض شديد :

— أتقولين أراضى المعابد ؟ .. إنى أسميها أراضى الكهنة !!

— لتكن مشيئتك يا مولاي ، فإن تغيير الاسم لا يغير من
الامر شيئا .

— ألا تعالين أنى أكره أن يعاد على هذا الحديث ؟

— إنى أحاول ما لا يستطيعه غيرى ، وهدفى الخير
والإصلاح .

فهر الملك منكبيه بامتعاض ، وقال :

— وما الذى تريدن قوله أيتها الملكة ؟

فقالت بهدوء :

— لقد دعوت خنوم حتب إلى مقابلتى إجابة لرجائه ،
استمعت ...

ولكنه لم يدعها تتم حديثها ، وقال بغضب :
— أهكذا فعل الرجل ؟
فقلت بارتياح :

— نعم ... هل تجد فى سلوكه ما يستأهل غضبك ؟
فقال ، وكأنه يزار :

— بغير شك ... بغير شك ... إنه رجل عنيد ، ويأبى أن
زل عند إرادتى ، وأنا أعلم أنه نفذ أمرى كارها ، وأنه يتربص
، لعله ينجح فى إلغائه مستعيناً تارة بالرجاء ، وقد رفضت أن
سعى إليه ، وتارة بدفع الكهنة إلى تقديم الالتماسات كما دفعهم
ن قبل إلى الهمتاف باسمه الحقير ... إن الرجل الماكر يندفع
الأعمى فى طريق خصامى ...

فبالها ظنه ، وقالت :

— أنت تسمي الظن بالرجل ، أما أنا فأعتقد أنه من أعظم
رجال إخلاصا للعرش . وأنه حكيم يتوخى الوثام ... أليس
الطبيعى أن يحزن الرجل لفقدان امتيازات كسبتها طائفته
ظل عطف أجدادنا ؟

واحتدم الغيظ في قلب الملك، لأنه لم يكن يجد عذرا للإنسان
لا يصدع بأمره في السر والعلانية، ولا يحتمل بأية حال أن يرى
إنسان غير ما يرى. فقال ممتعضا بالهجة تشف عن السخرية
المريرة :

— أرى أن هذا الدامية استطاع أن يغير رأيك أيتها الملكة .
فقلت باستياء :

— لم يتجه رأي قط إلى نزع أملاك المعابد، ولا أجا
ضرورة لذلك .

فعاود الغضب الملك . وقال لها بعنف :

— أيسئك أن تزداد ثروتنا ؟

كيف يقول هذا ، وهو يعلم أين تنفق هذه الأموال ؟ . .
وأثار قوله غيظها الدفين وحنقها المختق ، فانفضت غضبا وتغلبت
عليها مشاعرهما ، فقلت بانفعال :

— يسىء كل عاقل أن تنزع أراضى قوم حكماء لينفق ريعهم
في اللهو العابث .

فاشتد هياح الملك ، وقال وهو يشير بيده مهددا .

— ويل للرجل الماكر . . . إنه يغري بالشقاق بيننا !

فقلت بتألم ، وحزن :

— إنك تصورنى لنفسك كطفلة غريرة .
— ويل له ... لقد طلب مقابلة الملكة ليحدث المرأة
لمسترة فى ثوبها الملكى .

فصاحت به حزينة متأللة قائلة :

— مولاي !

ولكنه استطرد يقول مدفوعا بغضبه الشيطانى .
— لقد جئت يا نيتوقريس مسوقة بالغيرة لا بالرغبة فى الوئام .
وأحست بطعنة نجلاء تصيب كبرياءها ، فأظلمت عيناها ،
دوى النبض فى أذنيها ، وارتجفت أطرافها ، ولبثت هنيهة
'تستطيع قولاً ، ثم قالت :

— أيها الملك ! لا يعرف خنوم حتب عنك شيئاً أجهله
سعى به إلى . وما دمت تظن هذا ، فأعلم بأنى أعلم ، كما يعلم الجميع ،
لك غارق فى أحضان راقصة بجزيرة بيجة منذ أشهر ، فهل رأيتنى
وال هذه الفترة طاردتك ، أو ضيقت عليك ، أو توسلت
ليك ؟ .. واعلم أن الذى يريد أن يخاطب فى المرأة يرتد خائباً ،
لا يلقى أمامه سوى الملكة نيتوقريس ...

فاحتد قائلاً بعناد :

— ما تزالين تقذفين بحمم الغيرة .

فضربت الملكة بقدمها الصغير ، وقامت واقفة يائسة وقالت
بحنق شديد :

— أيها الملك ، ليس مما تعير به ملكة أن تغار على زوجها .
ولكن مما يعير به ملك حقا أن يبذل ذهب بلاده تحت قدمي
راقصة ، ويعرض عرشه الطاهر لخوض الخائضين . . .
قالت الملكة ذاك ، وذهبت لا تلوى على شيء . . .

واستبد الغضب بالملك ، وأخرجه عن طوره ، وكان يعد
خنوم حطب مسئولاً عن جميع متاعبه ، فاستدعى سونخاتب
وأمره دون أن يمهل به بأن يبلغ رئيس الوزراء بأنه ينتظره ،
وخرج الحاجب الأكبر ينفذ أمر مولاه حائراً ، وجاء الوزير
الأكبر موزع النفس بين اليأس والأمل ، وأدخل على الملك
الغاضب الخائق ، ونطق الرجل بالتحية — التقليدية ، ولكن
فرعون لم يكن يصغى إليه ، وقد قاطعه بصوت خشن شديد قائلاً :
— ألم آمرك أيها الوزير ألا تعود إلى مناقشة مسألة أراضى
المعابد ؟

وأخذ الرجل باللمجة الشديدة التى يسمعها لأول مرة ، وأحس
بآماله تنهار دفعة واحدة ، فقال يائساً :

— مولاي .. رأيت من واجبي أن أرفع إلى مسامعكم العالية
شكاوى طائفة من شعبكم الأمين .
فقال الملك باهجة قاسية :

— بل أحببت أن تثير غبارا فيما بيني وبين الملكة ، لتصيب
تحت ستاره غرضك .

فرفع الرجل يديه بتوسل ، وأراد أن يتكلم فأرتج عليه
القول سوى هاتين الكلمتين :
— مولاي .. مولاي ..

فقال الملك الغاضب المهتاج :
— يا خنوم حتب .. أنت تأبى الانصياع لأمرى ، فلن
أمنحك ثقتي بعد اليوم .
ووجهم الكاهن ، واستولى عليه الجمود . ثم مالت رأسه على
صدره في حزن . وقال باستسلام :

— مولاي ، يحزننى وحق الأرباب جميعا ، أن أنسحب من
ميدان خدمتكم المجيد ، وسأعود كما كنت من قبل عبدا صغيرا
من عبيدكم المخلصين .

وأحس الملك بارتياح بعد أن أَرْضَى غَضَبَةَ الكَاسِر ، وأرسل

في طلب سو نختاب وطاهو ، وجاء الرجالان على عجل يتسارلان
فقال لهما الملك في هدوء :

— انتهيت من خنوم حتب .

وساد السكوت العميق ، وبدأت الدهشة على وجه سو نختاب
أما طاهو فبقى جامدا . وكان الملك يقاب ناظره في وجهه
فسالهما :

— ما لكما لا تتكلمان .

فقال سو نختاب : إنه لأمر خطير يا مولاي .

— أترأه خطيرا يا سو نختاب ! ... وأنت يا طاهو ؟

وكان طاهو جامدا ميت الاحساس ، لا يرجع للحوادث في
قلبه ، ولكنه قال :

— إنه عمل يا مولاي من وحي القوة المعبودة .

فابتسم الملك ، وكان سو نختاب يقلب الأمر على جميع
وجوهه فقال :

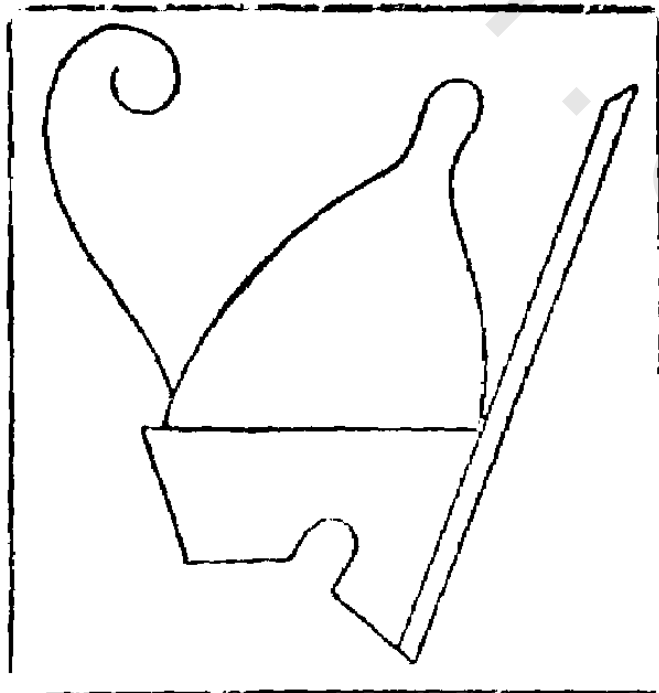
— سيجد خنوم حتب نفسه منذ اليوم أكثر حرية .

فهن فرعون كتفيه باستهانة ، وقال :

— لا أظن أنه يلقي بنفسه إلى التهلكة .

واستدرك وقد غير لهجته :

- والآن بماذا تشير ان علي فيمن يخافه ؟
وساد الصمت مدد، ومضى الرجال ان يفكر ان . وابتسم المنك
قائلا : إني أختار سونخاتب فما رأيكما ؟
فقال طاهو بصدق :
— إن من اخترت يا مولاي هو القوى الأمين .
أما سونخاتب فبدا على وجهه الانزعاج، وهم بالكلام ولكن
سبقه فرعون قائلا :
— هل تتخلي عن مولاك وقت الحاجة إليك ؟
فقال سونخاتب وهو يتنهد :
— ستجدني يا مولاي من المخلصين .



الرئيس الجديد

وأحس فرعون في العهد الجديد بطمأنينة ، فسكن غضبه ، وترك الأمور بين يدي الرجل الذي يشق به ، وولى وجهه نحو المرأة التي استولت على نفسه وقلبه وحواسه ، ففي جوارها كان يشعر بطيب الحياة وبهجة الدنيا وأفراح النفس .

أما سونخاتب ، فكان ينوء بالتبعة على عاتقه ، ويعلم علم اليقين أن مصر تستقبل توليته بحذر وتجهم ، وسخط مكتوم . وقد أحس بالوحشة منذ اللحظة الأولى التي وطأت فيها قدماء دار الحكومة ، فالملك يرضى من الدنيا بالحب ، ويولى كشحا المموم والواجبات جميعا ، وحكام الأقاليم يوالونه بوجوههم وقلوبهم تتبع كهنتهم المنبشرين في كل مكان . وتلفت الوزير في حوله ، فلم يجد سوى القائد طاهو عونا ومشيرا ، وهما رجلان مختلفان في أمور كثيرة ، ولكنهما يأتلفان على حب فرعون والإخلاص له ، فلي القائد نداء ، ومد يده إليه ، وشارك وحشته وجل متاعبه ، وكافا معا لإنقاذ سفينة يطوف بها موج صاخب ، وتتجمع في أفقها السحب والزوابع . على أن سونخاتب

كانت تنقصه مزايا القبطان المحنك ، كان مختصا ينضح قلبه
بالأمانة والوفاء ، حكيما تتجلى له حقائق الأمور ، ولو كان كانت
تعوزة صفات الشجاعة والحزم ، فرأى الخطأ منذ البدء ، ولكنه
لم يحاول إصلاحه بقدر ما مضى في مداراته وتهوين عقباته ، خشية
إغضاب مولاه أو إيلامه ، وهكذا اطردت الأمور في السبيل
الذي شققه الغضب . . .

وجاءت عيون طاهو الساهرة بنخبر هام ، قالوا إن خنوم حتب
ارتحل بغتة إلى منف ، العاصمة الدينية ، فأحدث الخبر دهشة
لدى الوزير والقائد ، واحتارا في السبب الذي من أجله رضى
الرجل بمشقة الانتقال من الجنوب إلى الشمال ، وتوقع سونخاتب
شرا ، ولم يشك في أن خنوم حتب سيتصل بكبار رجال
الكهنوت ، وجميعهم ساطخون لما حل بهم من ضنك ، ولعلمهم
بأن الأموال التي ضن بها عليهم تبعثر تحت قدمى راقصة بيعة
بغير حساب ، فما من أحد منهم يحفل هذه الحقيقة الآن ، ومن
يحفلها سيعلم بها بغير ريب ، ونسابق الكاهن فيهم تربة صالحة
لبذر تعاليمه وترديد شكواه . . .

وظهرت النذر الأولى لسخط الكهنة ، فقد عاد الرسل الذين
أذاعوا نبأ اختيار سونخاتب وزيرا في أنحاء القطر ، بالتهاني الرسمية

من الأقاليم ، أما الكهنة فقد انظروا على صمت رهيب ، حتى قال طاهو : « لقد بدأونا بالتحدى » .

ثم حملت الرسائل تترى من جميع المعابد ، وعليها توقيع جميع الكهنة من جميع الطبقات تلتمس من فرعون إعادة النظر في مسألة أراضى المعابد ، فكان إجماعا خطير الشأن ، زاد من متاعب سونخاتب .

وفي يوم من الأيام دعا سونخاتب طاهو إلى دار الحكومة ، وجاءه القائد يسعى ، فأشار الوزير إلى كرسى الوزارة ، وهو يتنهد ، وقال :

— يكاد هذا الكرسي أن يميد بى .

فقال طاهو :

— إن رأسك أكبر من أن يميد به هذا الكرسي .

فتنهد الرجل حزنا ، وقال :

— أغرقونى بسيل من الالتماسات .

فسأله القائد باهتمام :

— هل عرضتها على فرعون ؟

— كلا أيها القائد . إن فرعون لا يأذن لإنسان بمفاتحته فى

هذا الموضوع ، وأنا لا أحظى بالمشول بين يديه إلا فى فترات

متباعدة جدا . . . أنى أشعر بالارتباك والوحدة .

وصمت الرجلان برهة ، فخلا كل منهما إلى أفكاره ، ثم هن
سونخاتب رأسه متعجبا ، وقال وكأنه يحدث نفسه :

— إنه للسعتر بعينه .

ونظر طاهو إلى الوزير نظرة غريبة ، وبغته المعنى الذى
يقصده الرجل ، فسرت فى جسده قشعريرة وامتقع لونه ، ولكنه
كبح جماح نفسه . وكان تعود ذلك فى المدة الجافة الأخيرة من
حياته ، وسأله ببساطة كلفته جهدا جهيدا :

— أى سحر تعنى يا صاحب القداسة ؟

فقال سونخاتب :

— رادوبيس ، أليست تنفث فى فرعون سحرا ؟ بلى وحق

الأرباب ، إن ما بجلالته لسحرا مبينا . . .

واهتزت نفس طاهو لذكر هذا الاسم . وخال أنه يسمع
شيئا عجبا يلمس بوقعه السحرى جميع الحواس والعواطف ، وكاد
يزيل الصمام الذى أحكمه بقسوة على فوهة وجدانه ، فأصر على
أسنانه بشدة وقال :

— يقول الناس إن الحب سحر ، والسحرة يقولون إن السحر

حب .

فقال الوزير الحزين :

— بت أعتقد أن جمال رادوبيس سحر ملعون .
فخدجه طاهو بنظرة قاسية وقال :
— ألم تتل الرقية التي مكنت لهذا السحر ؟
فأحس الرجل بلوم القائد ، وامتنع لونه ، وقال بسرعة كأنه
يدفع تهمة :

— لم تكن أول امرأة ...
— ولكنها كانت رادوبيس !
— رجوت لمولاي سعادة .
— فقدمت له سحرا وأسفاه !
— نعم أيها القائد ، إنى أشعر بأنى أخطأت خطأ بليغا ...
ولكن ينبغى عمل شيء .

فقال طاهو وكان ما يزال يحس بمرارة :
— هذا واجبك يا صاحب القداسة .
— إنى أطلب مشورتك .
— إن الاخلاص يبلغ غايته فى النصيحة الصادقة .
— إن فرعون لا يقبل أن يطرق إنسان بين يديه مسأ
الكهنة :

- ألا تفضى برأيك إلى جلالة الملكة ؟
- هذا سبيل أودى بخنوم حثب إلى التعرض إلى غضب الملك .
فلم يجد طاهو ما يقوله . وخطر لسونخاتب خاطر فقال ،
موت خافت :
- ألا يمكن أن ترجى فائدة من تدبير اجتماع بينك وبين
دوبيس ؟
- فسرت القشعريرة في جسده مرة أخرى ، وانثلع قلبه في
نره . وكادت العواطف التي يبالغ في كتمانها تنفجر ، وقال
سه إن الشيخ لا يدري ماذا يقول ، ويظن أن مولاه هو
محور وحده . . . ثم قال له :
- لماذا لا تجتمع بها أنت ؟
فقال سونخاتب :
- لعلك أقدر مني على التفاهم معها .
فقال طاهو ببرود :
- أخشى أن تجد على رادوبيس ، وتسيء بي الظن فتشوه
بأى لدى فرعون . . . كلا يا صاحب القداسة . . .
وتهيب سونخاتب مواجهة فرعون بالحقبة .
ولم يستطع طاهو ملازمة مكانه . لأن أعصابه ثارت .

وزعزعت أركان نفسه عاطفة هو جاء شديدة الاغبرار، فاستأذ
من الوزير وانطلق خارجا لا يلوى على شيء، تاركا وراءه
سوءنجات غارقا في لجة عميقة من الأفكار والأحزان.



الملكة كنهان

ولم يكن سونفخاتب وحده الذى تشغل رأسه الهموم . كانت الملكة تقبع فى جناحها ، تنطوى على حزن دفين ، وألم مارج . ويأس محروم من الشكوى ، تراجع مأساة حياتها بقلب كبير . وتشاهد الأمور التى تقع فى الوادى بعينين حزينتين ، لم تكن سوى امرأة خسرت قلبها ، أو ملكة يتقلقل بها عرشها . قد انتهت العلائق بينها وبين الملك إلى انقطاع لا يرجى له نصال ، ما دام الملك يغرق فى هواه ، وما دامت هى تلوذ بصمت كبرياء ...

وساءها أن تعلم أن الملك يزهد فى النظر فى واجباته العليا ، أن الحب أنساه كل شيء حتى تركزت السلطة فى يد سونفخاتب ، لم يكن يداخلها شك فى إخلاص الوزير للعرش ، ولكنها ضبت من استهتار الملك وذهوله ، وصدقت عزمها على العمل بما كلفها الأمر ، ولم تتردد عن غايتها ، فدعت يوماً سونفخاتب ، طلبت إليه أن يرجع إليها فى الشؤون التى تحتاج إلى رأى الملك ، قد أَرْضَتْ بذلك ، غضبها بعض الشيء ، وأَرْضَتْ معه الوزير ،

وهي لا تدري ، الذي تنفس الصعداء ، وأحس بأن حملا ثقيا
رفع عن صدره الضعيف . . .

وعلى أثر اتصال الوزير بها ، علمت بالالتماسات التي بعثت به
الكهنة من جميع أنحاء الوادي ، وقرأتها بصبر وجلد ، فقرأت
الكلمة التي أجمع عليها رأى الصفوة من أفذاذ المملكة ، وأحسنت
بالخطورة المستترة خلف أسطرها المتزنة الخازمة . . . وتساءلت
في حيرة وألم ، ما عسى أن يكون الحال لو أيقن الكهنة أن
فرعون يضرب برجاواتهم عرض الحائط ؟ . . . فالكهنة قو
عظيمة ، وهم يتسلطون على عقول الشعب وقلوبه ، وهو يستمع
إليهم في المعابد والمدارس والجامعات ، ويطمئن إلى أخلاقهم
وتعاليمهم اطمئنانه إلى مثله العليا . . . فكيف تطرد الأمور إذ
يئس هؤلاء القوم من عطف فرعون ؟ . . . وقنطوا من إصلاح
الأمور التي لم يروها قط تسير في طريقها التي تسير فيه في أي
عهد من العهود المجيدة الفخورة التي طواها الماضي الخالد ؟ . . .
وما من شك في أن الأمور تتعقد تعقدا خطيرا ، ويندفع نهر
الشقاق ، فيفرق بين الملك النائم الحالم بحزيرة بيجه ، وبين شعبه
المخلص الأمين ، ويقف سونخاتب منه موقف الحائر لا يغني عنه
إخلاصه ولا حكمته شيئا . . . وأحسنت الملكة بأنه ينبغى عمل

شيء ، وأن ترك الأمور تسير إلى غايتها ينذر بمقاعب ، فينبغي أن تمحو عن وجه مصر الهاديء الجميل التقلص الذي يعتوره ، وأن تعيد إليه هدوءه وجماله . . . فما عسى أن تصنع ؟ . . . كانت بالأمس ترجو أن تفوز بإقناع زوجها بالحق ، ولكنها اليوم لا يعاودها إليه أمل ، ولم تنس بعد ما وجهه إلى كبرياتها من طعنة نجلاء ، ففضت على الأثر منه يديها يائسة حزينة . . . وقدشت عن سبيل جديد تصل منه إلى غرضها ، ولكن ما غرضها ؟ . . . لقد فكرت في ذلك مليا ، ثم قالت لنفسها : « غاية ما آمل أن أفوز به ، أن يرد فرعون إلى الكهنة الأراضى التى انتزعها منهم . . . » ، ولكن ما السبيل إلى ذلك ؟ . . . إن الملك غضوب ذو كبرياء عنيف ، ولا يمكن أن يتقهقر أمام إنسان ، ولقد أمر بنزع الأراضى فى ساعة غضب خطير ، ولكن ما من شك فى أن أشياء غير الغضب تدعوه إلى الاحتفاظ بالأراضى فى حوزته ، ومن يعرف قصر بيجه ، وما ينفق الملك عليه من ذهب يدرك ماهية هذه الأشياء ، لقد سموه بحق قصر بيجة الذهبى ، لكثرة ما به من التحف الذهبية والأثاث المصنوع من خالص الذهب ، فلو سدت هذه الفوهة التى تبتلع أموال الملك ، لربما هان عليه أن يفكر فى رد أراضى المعابد إلى الكهنة ،

ولم تكن تطمع في صرف المالك عن غانية بيعة، ولا فكرت في ذلك، ولا كتبها كانت ترجو لإسرافه حداً... وتنهدت عند ذلك وقالت لنفسها الآن وضع غرضي، فينبغي أن نجد وسيلة لإقناع الملك، بالتحول عن الإسراف الشديد، ثم نقنعه بعد ذلك برد الأراضي إلى أصحابها، ولاكن كيف تقنع الملك؟... لقد أسقطته من حسابها، ولاكنها تجده وراء كل حساب، لقد فشلت في إقناعه، وإن يكون سوخائب ولا طاهر بأسعد منها حظاً، فالملك يحكمه الهوى ولا سبيل إليه، وقد أفلت منها هذا السؤال « من القادر على إقناع الملك؟ » فسرت في جسدها فتعريرة أليمة، إذ حضرها الجواب سريعاً، ولاكنه كان مروعاً أليماً، ولم تكن تجهله، ولاكنه كان من الحقائق التي يتجدد الألم بها كلما عاودتها الذاكرة، فقد قضت الأقدار أن يكون هذا الإنسان المتحكم في المالك، المسير له غريمتها راقصة بيعة، التي حكمت عليها بالعزلة إلى الأبد... هذه هي الحقيقة المؤلمة التي تدأم التسليم بها كما يسلم الإنسان بحقائق الموت والشيخوخة والمرض المضال...

وكانت المالكة امرأة حريية، ولاكنها كانت كذلك ملكة عظيمة بعيدة الآفاق، وكانت تتناسى أنها امرأة، وإن لم تستطع

أن تنسى ذلك فضل قلبها يحوم حول زوجها الملك ، والمرأة التي
خطفته من بين يديها ، ولو لكنها لم تتناس قط أنها المالكة ، ولم
تغفل لحظة عن واجباتها ، وصدقت عزمها على إنقاذ العرش
والاحتفاظ به في مرتقاء فوق مدال الهمس والذمر ، ترى هل
انتهت إلى هذا العزم بدافع واجبها فحسب ؟ أم كانت هناك
دوافع أخرى ؟ إن أفكارنا مسوقة دائماً لطواف بمن نحب
ومن نكره ، فنجذب إليهم بقوة خفية كما تجذب الفراشة إلى
نور المصباح . . . ولقد أحست من بادى الأمر برغبة في رؤية
رادوبيس التي ترامت إليها أحبارها ، ولكن ما معنى هذا ؟ . .
أتذهب إليها لتحديثها في شئون مصر ؟ . . أتذهب المالكة
نيثوقريس إلى الراقصة التي تعرض جمالها في سرق الهوى ،
وتخاطبها باسم حبها المزعوم للملك ، أن ترده عن الإسراف
وتعيده إلى واجبه ؟ . . يا لها من صورة بشعة ! . .
وكانت المالكة ضاقت بانزوائها ، وضغطت عليها عواطفها
الخفية وواجبها المبين ، لتخرج من صمتها وسجنها الطويل . . .
فلم تعد تستطيع صبرا . وأقنعت نفسها بأن واجبها يدعوها إلى
عمل شيء ما ، وإلى بذل محاولة أخرى . . وتساءلت في حيرتها ،
« أأذهب حقاً إلى هذه المرأة ، وألقها إلى واجبها ، وأطلب إليها

أن تنقذ الملك من الهاوية التي يندفع إليها ؟ ... وأسلمها
تساؤلها هذا إلى حيرة طويلة ، وارتباك محزن ، هوى بها إلى الهوس
والهذيان ، ولكنها لم ترجع عن فكرتها ، وما كانت تزداد إلا
تصميما ، كانت كسيل يندفع في منحدر لا يستطيع عنه حولا ،
ولكنه يندفع مضطربا مزيدا كاسرا ... فقالت في نهاية المعركة
الناشبة « سأذهب ... »



وفي صباح اليوم الثاني لبثت تنتظر عودة الملك ، واستقبلت
الضحى في سفينة ملكيه ، أبحرت بها قاصدة إلى قصر بيجة
الأبيض الذهبي ، وكانت تشملها حالة ذهول محزن ، ولم تكن
ارتدت ثوبا ملكيا ، فأحست لذلك بسخط واستياء ، وورست
السفينة على سلم القصر ، فهبطت إليه واستقبلها عبد من الرقيق ،
فقالت له إنها زائرة تطلب مقابلة ربة القصر ، فتقدمها إلى بهو
الاستقبال ، وكان الجو باردا ، وريح الشتاء ترسل هبات قارصة
خلل أغصان تعرت كأذرع محنطة ... وجلست في البهو تنتظر
وحدها ، وكانت تشعر بغربة وحيرة ، وتحاول تعزية نفسها
بقولها إنه يصح أن تخفض الملكة من كبريائها في سبيل واجبها

الأسمى، ولكنها أحست بالانظار يطول، وتساءلت قلقة «هل تدعها تنتظر طويلا كما تفعل مع الرجال؟... ولحقها جزع مؤلم، وندمت على تسرعها بالحضور إلى قصر غريمته...»

وفاتت دقائق قبلها سميت خفيف ثوب، فرفعت رأسها المثقل، فوقعت عيناها لأول مرة على وجه رادوبيس، كانت رادوبيس بغير ريب، وقد أحست بالذعة ألم ويأس، ونسيت لحظة همومها وما جاءت من أجله أمام الحسن الهلوك، وبغت رادوبيس نفسها أمام جمال الملكة الرزين وجلالها المجيد...

وسلمتا باليد، وجلست رادوبيس إلى جانب ضيفتها الجميلة المجهولة، ولما وجدتها تلوذ بالصمت قالت بصوتها الموسيقي :
— نزلت قصر ك...

فردت الضيفة بصوت بالغ في جلاله قائلة باقتضاب .

— شكرا...

فابتسمت الغانية وقالت :

— ليت ضيفتنا تؤذنا بشخصها الجليل...

وكان السؤال طبيعيا، ولكن الملكة ضاقت به كأنها لم

تكن تتوقعه، ولم تجد بدا من إعلان نفسها فقالت بهدوء :

— أنا الملكة...

ونظرت إلى المرأة لترى تأثير تصرّيحها في نفسها ، فشاهدت ابتسامتها تغيب ، وعينيها تلمعان دهشة ، وصدرها يمتلئ ويتصلب كالآفعى إذا هوجمت . . . ولم تكن المملكة هادئة كما تبدو ، فقد تغير قلبها لدى رؤية غريمتها ، وأحست بدمائها تلهب وتحرق عروقها جميعا ، وشعرت بالكراهية والبغضاء ، وتواجهها كغريمتين تتحفران للقتال . . . واستوائت عليهما حالة مريرة ملوثة بالغضب والحقد ، ونسيت المملكة إلى حين كل شيء إلا أنها بإزاء المرأة التي سلبتها سعادتها ، ونسيت رادوييس كل شيء إلا أنها أمام المرأة التي تقاسم حبيبها اسمه وعرشه . . .

وتبدل الحديث بينهما بآدى الأمر في ذلك الجو المشبع بالغضب والحقد ، فجرى مجرى عنيفا محزنا ، وكانت المملكة مستاءة لعدم اكتراث غريمتها ، فقالت باستياء :

— ألا تدرين أيتها السيدة كيف تحيين المملكة ؟ . . .

فجمدت رادوييس في مكانها ، ولفحت قلبها هبة من انفعال شديد ، وكادت تتفجر لتنفس عن صدرها الكظيم ، ولكنها ملكت أعصابها ، وكانت تعرف طريقة أخرى للانتقام ، فرسمت ابتسامة على وجهها وحنّت رأسها وهي جالسة ، وقد أسندت ظهرها إلى المقعد في تراخ واستهانة ، وقالت بلهجة لم

تخل من سخرية :

— إنه ليوم عظيم يا صاحبة الجلالة ، سيدكر لقصرى فى التاريخ ...

والتهب وجه الملكة غضبا ، فقالت بانفعال :

— لم تعدى الحقيقة ، فسيدكر قصرك هذه المرة ذكرا جميلا لا كما تعود أن يذكره الناس .

ف نظرت إليها بسخرية تستر غيظا وحنقا ، وقالت :

— ألا سحقا للناس ... أيدكرون بالسوء قصرا يجعله مولاهم مرتعا لقلبه وهواه !!! ...

وتلقت الملكة هذه الطعنة بجلد ، ونظرت إلى الغانية نظرة ذات معنى ، وقالت :

— ليست الملكات كغيرهن من النساء يشغلن قلوبهن بالحب ...

— أحقا يا مولاتى ... كنت أحسب الملكة امرأة بعد كل شئ ...

فقالت الملكة بلمحة مغيظة :

— هذا لأنك لم تكونى ملكة فى يوم من الأيام ...

فامتلا صدر المرأة وتصلب ، وقالت :

— عفوا يا مولائي ، إني ملكة حقا .

فخدجتها بنظرة غريبة ، وقالت بسخرية :

— يا للعجب ، وعلى أى مملكة . . . !

فقلات بزهو كبير :

— تلى أوسع الممالك طرا . . . قلب فرعون . . .

وأحست الملكة بوهن وألم ، وخزى وخجل ، وأيقنت أنها انحدرت إلى مساجلة الراقصة القتال ، وأنها خلعت ثوب الجلال والوقار ، وتبدت عارية فى جلد المرأة الغيور التى تنافح لاسترداد رجلها ، وتمسك بتلابيب غريمها وتكيد لها كيذا ، ونظرت لموقفها وموقف غريمها ، وهى تجلس منها جلسة متعجرفة ، وترد سهمها إلى نحرها ، وتتيه عليها بحب زوجها وسلطانها ، فشعرت بغرابة وذهول وحيرة ، وتمنت لو تكون فى حلم ثقيل سخيف . . .

وألمات عواطفها جميعا ، ودفستها فى أعماق نفسها ، وارتدت سريعا إلى طبيعتها المتعالية ، وجرى فى عروقها مكان الغضب والحقد دم أزرق لا يدين لغير الكبرياء . فذكرت الغرض الذى جاءت من أجله ، وصدقت عزيمتها على أن تكفر عما بدر منها .

وطالعت المرأة بوجه هادئ ظاهرًا وباطنًا ، وقالت لها :
— أيتها السيدة ، إنك لم تحسنى لقاء الملكة ، ولعلك أسأت
فهم الغرض من زيارتي فثرت وغضبت ، ولكن اعلى علم اليقين
أنى ما قصدت. إلى قصرك لشأن يخصنى أنا . . .
فسكتت رادوبيس ، وحدثتها بنظرة مليئة بالارتياح ، ولم
يسكت عنها الحقد أو الغضب ، وتناستها الملكة ، وقالت فى
هدوء :

— لقد جئتك أيتها السيدة من أجل أمور أجلّ ، أمور
تتعلق بالعرش المجيد ، والسلام الذى ينبغى أن يسود العلائق بين
صاحب العرش ورعاياه .

فقالت رادوبيس بانفعال ، وسخرية :

— يا للأمور الجليلة . . وماذا أستطيع حيالها يا مولاتى ؟ . .
ما أنا إلا امرأة يلد الحب أن يجعلها شغله الشاغل . . .
فتنهدت الملكة ، وأغضت عن لهجتها ، وقالت .

— أنت تنظرين إلى أسفل ، وأنا أنظر إلى أعلى . . . لقد
حسبت أنك تغارين على مجد مولاك وسعادته ، وإذا صدق
حسبانى ، فينبغى أن تهديه سواء السبيل ، إنه يفنى فى قصرك
تلالا من الذهب ، وينتزع من صفوة رجاله أراضيمهم حتى ضج

الناس بالألم، وجأروا بالشكوى ، وقالوا إن مولانا
يبتخل علينا بمال يبعثه على امرأة يحبها بغير حساب ، فواجبك
إن كنت تغارين على مجده حقا ؟ بين كالشمس في يوم
صاف . . . أن تصديه عن الإسراف ، وتمنعه برد المال إلى
أصحابه . . .

ولكن رادوبيس لم يدعها الغضب تفهم ما تقول الملكة
حق الفهم ، وكان وجدانها نائرا وحقدها شديدا ، فقالت
بقسوة :

— إن الذى يحزنك حقا هو أنك ترين الذهب يتحول مع
عطف فرعون إلى قصرى . . .

فانتفض جسمها ، وسرت فيه قشعريرة ، وصاحت بها :

— يا للبشاعة . . .

فقالت رادوبيس بغضب وخيلاء :

— لن يفرق شئ بينى وبين مولاي .

فغلب الصمت لسان الملكة ، وأحست بآس شديد وجرح
عميق فى كبرياتها ، ولم تطمع فى فائدة من الانتظار ، فقامت
واقفة ، وولت المرأة ظهرها وسارت فى طريقها متألمة حزينة
غاضبة ، لا تكاد ترى طريقها من شدة الغضب .

وصعدت رادوبيس أنفاسا مضطربة ، وأسندت رأسها
الساخن إلى كفها ، وراحت في تفكير قلق حزين ...



قبس من النور

وتنهدت رادوبيس من قلب مقروح ، وقالت لنفسها
« والأسفاه إنى أتناسى العالم، ولكنه يأتى أن ينسانى أو أن يدعى
فى طمأنينة بعد أن تطهرت من الماضى وأوشابه .. رباه ...
أحقا أن الكهنة يهتمون قصرها بابتلاع أمر اللهم المغتصبة ؟ ..
أحقا أنهم يسلقون حبها بالسنة من لهب ؟ .. لقد انكشمت فى
قصرها راضية ، وانقطعت صلاتها بالناس جميعا ، وغاب
عنها وجه الدنيا ، فلم يدر لها بحسبان أن يجرى اسمها بالسخط
على السنة قوم أشداء، وأن يتخذوا منها سلما يرتقون عليه إلى المز
حبيلها المعبود ، وهى ما تظن أن الملكة تبالغ ، وإن تنوعت
الدوافع التى تسوقها إلى الكلام ، فقد ترمى إليها فى زمن مضى
أن الكهنة يشفقون من استرداد فرعون لأراضيتهم ، وقد
سمعت بأذنيها فى عيد النيل قوما من أولئك المشفقين يهتفون
باسم خنوم حتب ، فلا شك أن وراء العالم الهادى الجميل الذى
تعيش فيه عالما صاخبا تغلى مراحله بالأحزان والأحقاد ...
وتكدرت نفسها بعد صفاء دام أشهرا طوالا لم تذق مثلها فى

~~محبتي~~ حياتها جميعا ، وأحست بأضلعها تحنو على حبيبها وتدر عطفها وحبا ، وذكّرت في خمرات حزنها الطارىء ما قال آنى يوما من أن الحرس الفرعونى هو القوة الوحيدة التى يعتد بها الملك ، قدساءت فى هلع لماذا لا تجند الجنود ؟ لماذا لا يعيى معبودها جيشا عرمرما ؟ . . .

وقضت سخابة نهارها فى مخدعها كشيبة ، ولم تذهب كمعادتها إلى الحجرة الصيفية لتجلس أمام المثلث بنامون ، لأنها لم تكن تطيق الاجتماع بإنسان ، ولا القعود بلا حراك أمام عيني الشاب المهومتين . . فلبثت وحدها حتى الانصيل ، ولم تذق للراحة طعما حتى رأت حبيبها المعبود يلج باب مخدعها ، يرفل فى ثيابه النضفاضة ، فتنهدت من أعماق قلبها ، وفتحت له ذراعها وضمها إلى صدره العريض كما يفعل كل مساء ، وطبع على وجهها قبلة اللقاء السعيد ، ثم جلس إلى جانبها على الديوان الوثير . وكانت نفسه تفيض بذكريات جميلة أثارها فى قلبه مشهد النيل ، الذى حمى سفينته منذ حين قليل فقال لها :

— أين الصيف الجميل ؟ . . أين لياليه الساهرة ، إذ تشق بنا السفينة جهته المتجعدة الدكناء . وإذ نسلم فى المقصورة نفوسنا للنسيم والهوى ونستمع لعزف العازفات ، ونشاهد بأعين حاملة

رقص الراقصات ؟ ...

ولم تكن تستطيع أن تجاريه في تذكره . ولكنها لم ترض
أن يحس بالعزلة في عاطفة أو فكر ، فقالت :

— مهلا يا حبيبي . ليس الجمال في الصيف ولا في الشتاء .
ولكنه في حيننا . وستجد الشتاء دفئا حيننا ما دام حيننا وقوده .

فضحك ضحكة العظيمة التي يضطرب لها وجهه وجسمه . وقال :

— ما أجمل حديثك . . إنه أشهى إلى قلبي من مجد الدنيا

جميعا . . ولكن ماذا تقولين في الصيد والقنص ؟ . . سنذهب

مع الغد إلى سفح الجبل . ونعدو في أعقاب الغزلان ، ونلهو حتى
تشبع نفوسنا المنهومة . .

فقالت وقد غلبها الشرود :

— لتكن مشيتك يا حبيبي . . .

فوجدتها بنظرة فاحصة ، وأدرك لتوه أن لسانها يحادثه وقلوبها

يتقيه بعيدا . فقال :

— رادوبيس . . أفهم بالنسر الذي ألف بين قلبينا أن فكرا

يسلبني اليوم عتاك . . .

فقطرت إليه بعينين حزينتين وأعيائها القول . فقال وقد

بدأ عليه الاهتمام :

— صدق حدسي فعيناك لا تكذباني . ولكن ماذا تمسكين عني ؟ ... :

فتنهدت من أعماق قلبها وعبثت يمتاها بعبادته وهي لا تدري تم قالت بصوت خافت :

— إني أعجب لحياتنا ، فلئند ما ننسى ما حولنا كأننا نعيش في عالم فقر غير معمور .

— نعم ما نصنع يا حبيبتي ، فماذا أفدنا من العالم غير الضجيح الفارغ والمجد الكاذب ، ولبئنا ضالين حتى هدانا الحب ، فمالك تدمرين ؟ ...

فتنهدت مرة أخرى وقالت بحزن :

— ماذا ينفعنا الزوم إذا كان من حولنا إيقاظا لا يغمض لهم جفن ...

وقطب جبينه ، والتمعت عيناه بنور خاطف ، وأدرك بقلبه وسألها ، فسألها بقلق :

— ما الذي يحزنك يا رادوييس ؟ ... صار حيني بأفكارك ، فحسبنا ما أضعنا في غير حديث الحب ...

فقالت : لست اليوم كأمس ، فقد نقل إلى بعض عبيدي الذين يمشون في الأسواق حديث قوم غاضبين يحزن في نفوسهم

أن مولا هم حرمهم من أراضهم ، ويضاعف في آلامهم أن
أموالهم تنفق على قصرى هذا ...

فتبدى الغضب على وجه فرعون. ولاح له شبح خنوم حتب
يطل على جنته المطمئنة ، فيكدر صفوها ، ويزعج أمنها ، واشتد
به الغضب ، فصبغ وجهه بلون النيل فى إبان فيضانه ، وقال لها
بصوت متهدج :

— أهذا الذى يحزنك يا رادوييس ؟ ... الويل لأولئك
المتمردين لا يمسكون عن غيهم ، ولكن لا تكدرى صفونا ،
ولا تبالى تباكيهم ... دعيهم وشأنهم ، وافرغى لى ...
فأحاطت يده بكفها ، وضغطت عليها بخنو ، ونظرت إليه
بعينين ضارعتين ، وقالت :

— أنا حزينة قلقة ، ويؤلمنى أن أكون سببا لشكوى قوم
منك ... وكأنى أحس بخوف غامض لا أدرى ما كنهه ...
والمحب يا مولاي شديد المخاوف .
فقال باستياء وغضب :

— كيف تخافين ، وأنت بين يدي ؟
فقال بتوسل :

— مولاي ... إنهم يرمقون حينا بعين الحسد ، وينفسون

عن هذا القصر الحب والطمأنينة والسعي ، ولقد قلت لنفسي في حزن وقلق : ما للحب وهذا الذهب الذي يشتره مولاي على ؟ ولا أنكر عليك أنى كرهت الذهب الذي يؤلب قوما علينا ، ألا ترى أن هذا القصر سيظل جنتنا ولو تعرت أرضه ومسخت حوائطه ؟ ... إذا كان بريق الذهب يا مولاي يخطف أبصارهم فاملاً به أيديهم يعموا ويزدردوا ألسنتهم ...

— والأسفاه يارادوبيس إنك تذكرينى بحديث أكره سماعه .
فقلت بتوسل :

— مولاي إنه غشاوة في سماء سعادتنا ، فحمها بكلمة .

— وما الكلمة هذه ؟ ...

فقلت بفرح ، وقد ظنت أنه يلين ويرضح :

— أن ترد إليهم أراضيتهم .

فمز رأسه بعنف ، وقال بلهجة شديدة :

— أنت لا تدريين من الأمر شيئاً يارادوبيس . لقد قلت

كلمتى فلم تحترم ، ونفذت على كره ، ولم يسكتوا عن الاحتجاج ، وما انفكوا يتحدوتنى ، فالتسليم لهم هزيمة لا أرضاها ، وأتمنى

دونها الموت ، أنت لا تدريين معنى الهزيمة فى نفسى ، إنه الموت ، ولو فازوا على بذيل بغيتهم لوجدتني رجلاً غريباً حزينا أسيفا

لا قدرة له على الحياة ولا الحب . . .

ونفذت كلماته إلى قلبها ، فشدت على يديه بقوة . وأحست
برجفة تسرى في أوصالها . وقد هان عليها كل شيء إلا أن يصبح
لا قدرة له على الحياة والحب ، ونبتت رغبةها ، وأسفت على
توسلاتها ، وصاحت بصوت متهدج :

— لن تذلل أبدا . . . لن تذلل أبدا . . .

فابتسم إليها بحنو . وقال :

— نعم لن أذل . . . ولن تكوني القضاء الذي يسومني الذل
أبدا . . .

فقال ، ونمى تلبث ، وقد ارتعش جفناها فوق دموعه
حائرة :

— لن تدن . . . ولن تهزم . . .

وأسندت رأسها إلى صدره . واستنامت إلى خفقان قلبه ،
وأحست في غيبوبتها بأذامه تعبث بخصلات شعرها وخديها ،
ولكنها لم تطمئن طويلا ، فقد أزججها خاطر من الخواطر التي
كدرت يومها ، فرفعت إليه رأسها ، ونظرت إليه بعينين قلقيتين
فقال لها :

— مالك . . .

فقلت بعد تردد :

— يقولون أنهم فئة قوية ذات سلطان على قلوب الناس ،
وعتوهم .

فابتسم قائلاً :

— ولكنى الأقوى ...

فترددت شئبة ، ثم قالت :

— لماذا لا تعي جيشاً قوياً بأمر بأمرك :

فابتسم الملك ، وسألها :

— أرى أن الوسوس تعاودك .

فتنهدت فى غيظ ، وقالت :

— ألم يبلغ أذن أن الناس همس فيما بينهم بأن فرعون يأخذ

أموال الآلهة وينفقها على راقصة ؟ ... همس الناس إذا تجمع

صار صراخاً ... إنه كالشرر الذى يندلع لهيباً ...

— يا لك من متطيرة متشائمة ...

فعدت تسأله بالخاف :

— لماذا لا تدعو الجنود ؟ ...

فأطرق إليها نظرة طويلة ، وقد بدا عليه التعمكير ، ثم قال :

— إن الجنود لا تدعى بغير سبب .

وبدا على وجهه الغضب . فاستدرك :

— إنهم يضللون الأفكار . ويشعرون بغضبي عليهم ، فإذا
أمرت بالتجنيد حُقهم الذعر ، وربما هبوا يائسين للدفاع عن
أنفسهم

ففكرت مليا . ثم قالت بصوت حالم . وكأنها تحدث نفسها
— اخلق العلل ، وادع الجنود .

— إن العلل تخلق نفسها بنفسها .

فأحست ييأس . وأحنت رأسها الحزين ، وأغمضت عينيها
ولم تكن ترجو أملا ، ولكن لاح لها في الظلام الدامس
خاطر سعيد كضح البصر ، فبهتت وذهلت . وفتحت عينيها ، فإذا
بالفرح يتألق فيهما . ودهش الملك ، ولكنها لم تباله ، وقالت
وهي لا تملك عواطفها :

— وجدت سببا !

فنظر إليها متسائلا ، فاستطردت :

— قبائل المعصايو .

فأدرك قصدها ، وهز رأسه يائسا ، وتتم قائلا :

— لقد عقد رئيسهم معنا معاهدة سلام .

ولكنها لم تيأس . وقالت :

— من يدري بما يجرى وراء الحدود ؟ إن لنا هنالك أميرا حاكما من رجالنا ، فلنبعث إليه برسالة سرية مع رسول أمين أن يزعم وجود ثورة وقتال ، ويرسل في طلب النجدة ، فتسمع صوته المלא ، وتدعو الجنود فتأتيك من الشمال والجنوب ، حتى إذا اجتمع لواءها إليك ، وصلت بها جناحك ، وأشهرتها سيفا في يدك تعلى به كلمتك وتفرض طاعتك . .

واستمع لها فرعون في ذهول وفي دهشة ، وقد عجب أيضا لأنها لم تحظر له على بال ، على أنه لم يكن يفكر كثيرا في تكوين جيش قوى لا تدعو إليه الحالة الحربية ، واعتقد - وما زال يعتقد - أن تدمير الكهنة لا يمكن أن يبلغ من الخطورة حدا يستدعى معه جيشا كبيرا لقمعه ، ولكنه بات يعتقد أيضا أن عدم وجود هذا الجيش هو ما يطمع الفوم فيه ويغريهم برفع الالتماسات وإعلان الشكوى ، ووجد فكرة رادوبيس السهلة فرصة سعيدة ، ومال إليها بجامع قلبه ، وكان إذا مال إلى شيء تعلقه ، وانشغل به ، واندفع في سبيله برغبة جنونية لا يأوى على شيء ، لهذا نظر إلى عيني رادوبيس بفرح وابتهاج . وصاح بصوت قوى : نعم الفكرة يا رادوبيس . . نعم الفكرة . .

فقالت بفرح غريب :

— هذا ما يحدثنى به قلبي .. وإنها لسهلة التحقيق سهولة
تناولى هذه القبله من فيك الحبيب .. وما علينا إلا الالكتمان ..
— نعم يا حبيبتي .. ألا ترين أن عقلك كقلبك كنز ثمين ؟
وحقاً ما علينا إلا الالكتمان ، واختيار رسول أمين فدعى هذا الى .
فسألته : من عسى أن يكون رسولك الى الأمير كارقنرو ؟
فأجابها ببساطه : سأختار حاجباً من رجالى المخلصين ..
وكانت لا تطمئن الى قصره العظيم ، لغير ما سبب معقول ،
ولكن بدافع من نفور قلبها من مكان تقيم فيه الملكة ، ولم
تستطع قط أن تعبر عن هواجسها ، وتحيرت فيمن عسى أن
يكون الرسول إذا لم يكن رجال القصر .. وزاد من حيرتها
أنها أدركت أن افتضاح السر معناه شديد الخطر ، حتى ليكبر
ذكره على الخاطر ، وهمت فى لحظة يأس بالعدول عن مشروع
حرج شديد الخطورة كهذا ، ولكنها ذكرت بغته الشاب الطفل
ذا العينين الصافيتين الذى يعمل بالحجرة الصيفية ، وأحست
إلى ذكره بطمأنينة غريبة ، فهو الصفاء وهو السذاجة والطهارة ،
وقلبه معبد تقدم لها فيه طقوس العبادة صباح مساء .. فهو هو
رسولها .. وهو هو الأمين ، ولم تتردد فقالت له بثقة :
— مولاي دعنى أختار الرسول بنفسى .

فاستضحك الملك وقال :

— يالك من رعيذة اليوم .. لست كعهدي بك .. ومن عسى أن تختارى يا ترى ؟ ..

فقالت بخشوع :

— مولاي .. المحب شديد المخاوف ، ورسولى فنان يزخرف الحجرة الصيفية ، له سن شاب ونفس طفل وقلب عذراء طاهرة ، ويخلص لى إخلاصا لا مزيد عليه ، ومزيتة الظاهرة أنه لا يثير الشبهات ولا علم له بشيء ، وأنه خير لنا أن يحمل رسالتنا من لا يدري بأمرها الشديد الخطر .. فلو جهلنا الخوف لاقتحمنا الممالك آمنين .

فهر الملك رأسه راضيا ، وكان يكره أن يقول لها لا ، وظنت رادوبيس أن السحابة انقشعت وإن كان انقشاعها على وجه غير الوجه الذى قصدت إليه بادىء الأمر ، فقرحت وأطلقت لفرحها العنان ، وأيقنت أنها ستستطيع عما قريب أن تذهل عن الدنيا فى قصر الحب هذا ، تاركة أمر حمايتها للجيش عرمرم لا يهاض له جناح . وأحنت رأسها الأحلام ، فراق الملك جمال شعرها ، وكان يحبه ، فعبث بأنامله فى عقدته فأنحلت وسأل على كتفها ، فتشقه وجمعه بين يديه ، وغمر به رأسه ووجهه فى دعابة حتى لم يبد منها شيء .

الـرـول

وأشرق صباح اليوم الثاني، وكان الجو باردا والسماء متلفعة بأردية السحب، تبيض وتتوهج فوق منبع الشمس كوجه برى، يعان ظاهره عن باطنه، وتظلم في الأفاق البعيدة كأنها ذيول ليل نسيها وراءه بعد أدبارده.

وكان ينتظرها عمل عظيم لا يرتاح إليه قلبها. ولا يرضى عنه تطهرها يوم تطهرت في المعبد، وأقسمت ليزولن الماضي بشوائبه. كان الذي ينتظرها أن تخدع بنامون، وتعيث بعواطفه ليخدم حبها ويحقق غرضها، على أنها لم تتردد قط لأنه كان يرغب أن تسبق الزمن. وكانت تحنو على حبها حنوا كبيرا فلم تبال أن تقسو في سديهما قساوة مرة... وغادرت مخدعها إلى الحجرة الصيفية عظيمة الثقة، لأن التفرير ببنامون كان أمرا سهلا لا يكاف مكرًا... وسارت على أطراف أصابعها، فوجدت الشاب يتطلع إلى صورتها، ويترنم مغنيا أغنوة كانت تغنيها في الأماسي الخوالي مطلعها:

إذا كان حـدك يصنع المعجزات
فلماذا لا يقـدر على شـفائي
وأخذت بغنائـه . ولكنـها انتهزت الفرصة ، وغنت تـم
أغنيـه ...

هل أعـبث بما لا عـلم لى به
والأفق مستتر خـف سحاب
وعسى أن تكون المدخر لـقلى
فتحول الشاب إليها فزعا مسـجورا ، فتلقته بضحكة عذبة ،
وقالت له :

— إن لك لصوتا عذبا ، فكيف أخفيتـه عني طوال هذه
الأيام . ؟

فتصاعد الدم إلى وجنتيه قانيا ، وارتجفت شفتاه ارتباكا ،
وقابل تلطفها بدهشة .

وأدركت المرأة ما يدور بخـلدـه . فقالت تستدرجه :

— أراك تلهو بالغناء . وتترك العمل ...

فبدأ عليه الإنكار ، وأشار إلى صورتها المحفورة ، وتمتم :
« انظري » .

وكانت الصورة قد استوت وجها جميلا لا تنقصه الحياة ،

فقلت يا عجب :

— إنك لقادر يا بنامون .

فتهد الشاب ارتياحا ، وقال لها بامتنان :

— شكرا لك يا سيدتى .

فقلت تعطف الحديث إلى غايتها :

— ولكنك قسوت علىّ يا بنامون .

— أنا ... كيف يا مولاتى ؟

فقلت : خلقت لى نظرة جبارة ، وأنا أشتهى أن أكون

كالحمامة .

فلزمه الصمت ولم يبن ، ففسرت صمته على هواها ، وقالت :

— ألم أقل أنك تقسو علىّ ... فكيف ترانى يا بنامون ...

أجبارة قاسية جميلة كهذه الصورة ، يا لها من صورة ... إلى

أعجب كيف ينطق الحجر ، ولكنك تحسب أن قلبى لا يشعر

كهذا الحجر أليس كذلك ، لاتهم بالفرار ، فهذا هو اعتقادك .

ولكن لماذا يا بنامون ؟

ولم يدر ما يقول ، فغلبه الصمت ، وكانت توحى إليه

بأفكارها ، فيصدقها وينساق إليها ويشهد ارتباكها ، واستدركت

المرأة :

— لماذا يا بنامون تحسبني قاسية .. إنك تؤمن بالضواهر ،
لأنك لا تقدر بطبعك على إخفاء ما يضطرب به صدرك ، وقد
قرأت وجهك كصفحة من كتاب مفتوح . أما نحن فلنا طبيعة
أخرى ، والصرامة تضيق علينا لذة الفوز ، وتفسد أجمل ما خلقت
الآلهة لنا .

وساءل الشاب نفسه حائراً ، ماذا تعنى ياترى ، وهل يستطيع
أن يفهم من حديثها ما تدل عليه كلماتها . . . أما كانت تجلس
أمامه قائمة القلب والعينين ، لا تحس بالنار الملتهبة في كيانه ؟
فما الذى غيرها ؟ لماذا تحدثه هذا الحديث الحلو ؟ لماذا تلج إلى
الأمرار الحلوة التى تحرق قلبه ؟ ! هل تعنى حقاً ما تقول !
وهل تعنى حقاً ما أفهمه ؟ !

وخطت المرأة خطوة أخرى فقالت :

— آه يا بنامون إنك تقسو على بدورك ، وآية ذلك الصمت
الذى ترد به على .

فخدجها بنظرة والهة ، وكاد من الفرح تفر الدموع من عينيها ،
وقد أيقن صدق ظنونه ، فقال بصوت متهدج :

— الدنيا لا تسعنى كلاماً . . .

فتنهت ارتياحاً أن حلت عقدة لسانه ، وقالت بصوت حالم

— وما حاجتك إلى الكلام ؟ . . . فلن تقول شيئاً أجهله . . .
أيتها الحجرة لقد شاهدتنا أشهراً . وتركنا في جسمك أثراً من
قلوبنا خالداً . . . نعم ها هنا عرفت سر رهيباً . . .

وتفرست في وجهه زمناً قصيراً ، ثم قالت :

— ألا تعرف يا بنامون كيف عرفت سر قلبي ؟ . . . على حين
بغثة عجيبة . كانت لدى رسالة خاصة أريد أن أبعث بها إلى إنسان
في مكان قصي . وأن أبعث بها مع رسول تترتاح إليه نفسي ،
ويشق فيه قلبي . وكنت جالسة وحدي استعرض أمام ناظري
أقواماً من الرجال والنساء ، ومن العبيد والأحرار ، وما أحس
في كل مرة إلا بالجفاء والقلق . ثم لا أدري إلا وخيالي يتسلل
إلى هذه الحجرة ، ووجدتني فجأة أذكرك يا بنامون ، وتترتاح
نفسي ويطمئن قلبي ، بل أحسست بما تكهو أعماق من هذا ،
وهكذا عرفت سر قلبي . . .

فغمر الفرح وجه الشاب ، وأحس بالسعادة إلى حد
الذهول . فجثا على ركبتيه أمامها ، وهتف من أعماق قلبه :
— « مولاتي ،

فوضعت كفيها على رأسه ، وقالت بخنان :

— هكذا عرفت سر قلبي ، وأني لأعجب كيف لم أعرف هذا

من منذ أجل طويل .

فقال بنامون ، وكان يتيه في غمرات الذهول :

— مولائي . أقسم لقد شهدني الليل ، وأنا ذوب عذاب .
وهاك الصبح يلقاني نسمة من سعادة مطرة ، لقد أخرجتني
كلمة نطقت بها من الظلمات إلى النور . ونقلتني من دياجير اليأس
إلى سحر السعادة ، لقد أحييت نفسي بعد أن أشفت على الفناء ..
أنت سعادتي وحلي وأمل ..

وكانت تصغي إليه في صمت حزين ، وقد شعرت بأنه يصلي
صلاة حارة ، وأنه يهيم في جهالة الأحلام الساذجة المقدسة ،
فوجئت وعاورها شيء من الألم والندم ، ولكنها لم تستسلم
طويلاً لعواطفها التي أثارها في قلبها بهيامه ، فقالت في دهاء :

— إني أعجب كيف لم أعرف قلبي منذ أجل طويل ، بل إني
أعجب للمصادفات التي لم توقفي على سره إلا حين حاجتي إلى
إرسالك في مهمة بعيدة ، فكأنها دلتني عليك ، وحرمتني منك في
حظة واحدة .

فقال الشاب بلهجة العبادة .

— سأفعل ما تريدن بروحي وقلبي .

فسأله بعد تردد :

— وإن كان ما أريد سفرا إلى بلد لا تبلغه إلا بشق
الأنفس ؟ !

— لن يشق على منه إلا أنى لا أراك كل صباح .
— فليكن غيابا إلى حين . سأعطيك رسالة تودعها صدرك ،
وتذهب إلى حاكم الجزيرة بكلمة منى ، فيدلك على الطريق ، ويدلل
لك الصعاب ، وستسافر مع قافلة لا ينبغي لأحد منها أن يطلع
على ما فى صدرك حتى تبلغ حاكم النوبة . فتسلمها له يدا بيد ، ثم
تعود إلى ...

وأحس بنامون بسعادة جديدة يمازجها شعور بالندوة
والخيلاء ، وكانت يدها على كشب منه ، فهوى بفمه عليها ولثمها
بشوق ووجد ، ورأته يرتجف بقوة حين لمست شففتاه
يدها ...

وفى طريق العودة عاودها إحساس حزين ، حتى قالت لنفسها
أما كان أدنى إلى الرحمة أن أترك مولاي يختار رسوله من أن
أعيب بقلب هذا الشاب ؟ ... على أنه كان سعيدا ... أسعدته
كلمة كاذبة ، بل كان فى حالة يحسده عليها السعداء حقا ، وليس
لها أن تحزن مادام لا يعرف الحقيقة ، وقد آلت على نفسها ألا
تورده الحقيقة حتى تيأس من ليادها بالكذب !! ...

الرسالة

وفي مساء اليوم نفسه جاء فرعون يهز في يده رسالة مطوية
يشرق وجهه بنور السعادة ، فحذتها بنظرة غريبة وتساءلت ،
ترى هل يكتب لفكرتها بالنجاح والتوفيق ، وتسير الأمور وفق
أحلامها ! وبسط الملك الرسالة ، وقرأتها بعينين مبهجتين ، وكانت
موجهة إلى الأمير كارقرو حاكم النوبة من ابن عمه فرعون مصر ،
وقد صارحه فيها بمشاعبه ، وبرغبته في تعبئة جيش جرار دون
أن يشير مخاوف الكهنة أو يوقظ حذرهم ، وطلب إليه أن
يبعث إلى مصر برسالة استغاثة مع رسول أمين ذي صفة رسمية ،
يطلب فيها نجدة سريعة للدفاع عن حدود الأملاك الجنوبية ،
ولقمع ثورة وهمية يزعم أن قبائل المعصايو أشعلت نيرانها ،
واجتاحت بها البلدان والقرى . . .

وطوتها رادوبيس مرة أخرى ، ثم قالت :

— إن الرسول على أهبة الاستعداد .

فقال الملك مبتسما :

— والرسالة جاهزة .

وبدا على وجهها التأمل والأحلام ، ثم سألت :

— ترى كيف يقابلون رسالة كارفترو ؟

فقال الملك بلمجة اليقين :

— ستهز القلوب جميعا ، وقلوب الكهنة أنفسهم ، وسوف

يدعو الحكّام إلى تجنيد الرّجاء من جميع أطراف البلاد ، فلا

يذهب الجيش الذى يناط به أملنا أن يأتينا بعدده وعدده .

واستخفها الفرح وسألته بلمفة :

— وهل تنتظر طويلا ؟

— أمامنا شهر انتظار يقطعه الرسول فى الذهاب والإياب .

فكبرت هنيهة ، ثم عدت على أصابعها . وقالت :

— إذا صدق حدسك تصادف عودته عيد النيل .

فضحك الملك وقال :

— هذا فال حسن يا رادوبيس ، فعيد النيل هو عيد حبنا ،

وسيكون عيد الفوز والطمانينة .

وتفاءلت هى خيرا ، وكانت تؤمن بأنه لا يمكن أن تفقد

أملا عزيزا فى ذلك اليوم الذى تعدّه بحق مولدا لسعادتها وحبها ،

وأيقنت أن اقتران عودة الرسول به ليس محض مصادفة ،

ولكنه تدبير حكيم من يد آلهة تبارك حبها وتعطف على آمالها .

ورمقها الملك بنظرة إعجاب وإكبار . ثم قبل رأسها وقال :
— لله هذا الرأس الثمين . . . لشد ما أعجب به سونخاتب ،
ولشد ما أعجب بالفكرة التي أبدعها فلم يملك نفسه أن قال لي ،
يا له من حل يسير لمشكل عسير . كأنه زهرة موندقة تخرج من
ساق ملتوية ، وأغصان شديدة التعقيد .

وكانت تظن أنه كتم الخبر ولم يبح به لإنسان حتى ذلك
الوزير المخلص سونخاتب ، فسأله :

— هل علم الوزير بسرنا ؟

فقال ببساطة :

— نعم . إن سونخاتب رطاهو بمثابة عقلي وقلبي ، فلا
أكتمهما شيئاً .

ودوى اسم طاهو في أذنيها دويًا شديدًا ، فزجهن وجهها ،
وبدا القلق في عينيها وسألته :

— وهل علم به الآخر ؟

فقال الملك ضاحكًا :

— لشد ما تحاذرين يا رادوبيس . ولكن اعلمي أني لا آمن
نفسى على شيء ، لا آمنهما عليه .

فقالت : إن حذرى يا مولاي لا يرتقى لإنسان تشق فيه

هذه الثقة .

والكنها ذكرت بالرغم منها طاهو في ساعة وداعه الأخير .
ودوى في أذنيها صوته الأجلش . وهو يهدر غاضبا حانقا يائسا ،
وتساءلت ترى هل ما يزال يعلق بنفسه شيء ؟ ! .
ولكن الوسواس لم تجد فرصة للعبث بقلها ، لأنها كانت
تنسى نفسها بين يدي حبيبها . . .

و . . .

وجاء في الصباح الرسول بنامون بن بسار متلفعا بعباءته .
غارق القلنسوة حتى الأذنين . وكان خداه متوردين ، وعيناه
لامعتين بنور فرح سماوى . فسجد بين يديها في صمت وخشوع ،
وقبل حاشية ثوبها في عبادة ، فداعبت رأسه بأناملها ، وقالت
له بخبر :

— ان أنسى يا بنامون أنك لأجلى هجرت الراحة والسكينة .
فرفع إليها وجهه الجميل البريء . وقال بصوت متهرج :
— في سبيلك يهون كل شاق ، فلتعنى الآلهة على تحمل ألام
الفراق .

فقال له مبتسمة :

— ستعود سعيدا ناضرا ، وستنسى في أفراح المستقبل أحزان

الماضى جميعا .

فتنه قائلًا :

— طوبى لمن يحمل فى قلبه حلمًا سعيدًا يؤنس وحدته، ويرطب
جفاف طريقه .

فابتسمت له، ابتسامة مشرقة، وأمسكت بيدها الرسالة المطوية
وسلمتها إليه ، وقالت :

— لا أوصيك بالحذر . . . أين تودعها ؟

فقال : على قلبى يا مولاتى تحت منطقتى .

فسلمت إليه رسالة أخرى صغيرة، وهى تقول :

— هاك رسالة أخرى ادفع بها إلى الحاكم آنى يمهد لك
السبيل ، ويدلك على أول قافلة تقرم .

ثم حم الوداع ، فازدرد ريقه واضطرب ، وبدأ عليه الارتباك
والهيام ، فمدت له يدها ، فتردد لحظة ، ثم وضعها بين يديه ،
وكفاه يرتعشان كأنما يلمس نارا موقدة ، ثم ضمها إلى صدره
حتى سرت إليها حرارته وخنمقانه ، ثم مضى راجعا فغيبه الباب .
وقد شيعته بنظرة حائرة ، ولسان يلهج بالدعاء الحار .

كيف لا ، وقد ربط على قلبه أملا تنعلق به حياتها .

طاهو بهندی

وكان الانظار مران أول عهدها به ، لأنه كان لا يفتأ يهتف بها هاتف رجاء يقول بحسرة ، ليت الملك لم يفش سر الرسالة لإنسان ، كانت تتمنى هذا بحرقه لم يخفف ، من لوعتها ما أبدى الملك من ثقة عظيمة برجليه المقربين ، ولم تكن وساوسها ريبة صريحة ، ولكن ثمت قلق دفعها إلى التساؤل ، ترى ماذا يحدث لو سعى ساع بفجوى الرسالة إلى رجال الكهنوت ؟ هل يترددون عن الدفاع عن أنفسهم إزاء هذا الشر المبيت ؟ .. رباه ... إن إفشاء سر الرسالة أمر خطير ... لا يجرؤ على إدراك كنهه خطورته عقل وطني ، وأحسست بقشعريرة تسرى في جسمها الرقيق ، وهزت رأسها بعنف تطرد عن مخيلتها أوهام الوساوس ، وهمست لضميرها تسكته قائلة : إن كل شيء يسير وفق الخطة التي رسمناها ، وليس من داع إلى إثارة هذه المخاوف ، وما هذه الأوهام المرتعبة إلا وساوس قلب مغرم لا يهدأ ولا ينام .

على أنها كانت لا تكاد تظمن حتى يحوم خيالها مرة أخرى حول هاتيك المخاوف ، وتخال أنها ترى وجه طاهو الغاضب

المتقلص من الألم، وأنها تسمع صوته الأَجَش ذا النبرات
المتألمة المجروحة، وقد عانت من مخاوفها الآلام، ولكنهما لم تجسرا
على تفسيرها أو إزالة الغموض الذي يكتنفهما .

ترى هل يحق لها أن تخشى طاهو أو أن تسيء به الظن ؟ ..
إن كل الدلائل تدل على أنه نسي ، ولكن هل كان بوسعه أن
يفعل شيئاً وامتنع عنه طواعية ؟ .. فما كان يستطيع أن يطرق
بابها بعد أن أصبح حرماً محرماً ، وما كان بوسعه إلا الإذعان
والتسليم . ولا يعنى هذا أنه نسي أو برأ .

ترى هل يبقى شيء من زوايا الماضي عالقا بقلبه ؟ .. إن
طاهو لجبار عنيد ، وقد يستحيل الحب في قلبه حقدا موريا ،
فيتحفر عند سنوح الفرصة للانتقام ... على أنها لم تنس في
أحزانها أن تنصف طاهو ، وأن تذكر له إخلاصه وتفانيه في
حب مولاه ، وأنه رجل الواجب الذي لا يحيد به عن سبيله
زوع ولا مطمع ..

كان كل شيء يدعو إلى الطمأنينة ، ولكن وساوسها لم تدعها
في طمأنينة قط ، وكان الرسول برح قصرها منذ ساعات قلائل
وقط ، فكيف لها بالانتظار شهرا أو يزيد ؟ .. لقد لحقها الجزع ،
وخطر لها حاضر قريب أن تدعو طاهو إلى مقابلتها ، وكان

خاضعاً لا يخطر لها على بال قبل يوم . أما اليوم فقد وجدت به
راحة وإليه رغبة . وكان يدفعها إليه ما يدفع الإنسان إلى
اضطئان خطر يتقيه ولا يجد سبيلاً إلى دفعه أو الإفلات منه .
ومكرت في ذلك تفكيراً مضطرباً . وقالت لنفسها فلا أدعه
ولا أعادته لاستيطان ذاته . وعسى أن أفوز بسفع شره . إن كان
مما لك شر يدفع . فأنقذه من نفسه ، وأنقذ مولاي من شره .
وما نسيت رغبتي أن تحوات إلى عزيمة لا تقبل التردد .
فما منسكت بها بكل ما أوتيت من قوة وقلق .. ودعت في فورها
شيت وأمرتها بالذهاب إلى قصر القائد واستدعائه . وذهبت
ثابتة وانتظرت هي في هو استقبالتها على قلق . ولم يكن يداخلها
ريب في تلبية لدعائها . وذكرت في انتظارها اضطرابها .
ولدت به ما كانت عليه من القوة والبرود في الأيام الخوالي .
فأدركت أنها منذ الساعة التي نزل فيها الحب بقلبها . انقلبت
إلى ضعيفة قلقة . يطرد النوم عن عينيها وهم ساخر . أو قلق
كانت ...

وجاء طاهو كما توقعت . وكان مرتدياً لباسه الرسمي . فوجدت
في ذلك معنى مطمئناً . فكأنه يقول لها إنه نسي رادوبيس غانيه
النصر الأبيض . وإنه يحظى الآن بمقالة صدقة .
سورة فرعون

وأحنى القائد رأسه باحترام وإجلال ، وقال بهدوء وبلا أدنى تأثر :

— أسعد الرب أيامك أيتها السيدة الجليلة .

فقلت وهي تتفرس في وجهه :

— وأيامك أيها القائد الجليل ، إني أشكرك على قبولك لدعوتي .

فقال طاهو وهو يحنى رأسه :

— إني رهن إشارتك يا سيدتي .

رأته كما كان قويا متين الأسر ، دموى البشرة ، ولكن لم يخف عن عينيها الفاحصتين أن ترى تغيرا طارئا لا يمكن اخبر عينيها أن تراه ، وجدت حول وجهه هالة من ذبول أفقدت نظرة العينين بريقها ، وأطفأت روحا شاملا كان يشع من وجه الرجل . . . وأشفقت من أن يكون ذلك بسبب ما حدث في تلك الليلة الغريبة التي فصلت بينهما منذ قريب من عام ، والأسفاه . . . كان طاهو بجو عاصف . فأمسى بجو راكد . . . وقالت له :

— إني دعوتك أيها القائد لأهنتك على الثقة العظيمة التي يوليها إياها الملك .

فهدت الغرابة على وجه القائد وقال :

— شكرا لك يا سيدتي ، هذه نعمة قديمة منت بها على الأرباب

فابتسمت ابتسامة متكلفة وقالت بدهاء :

— ولاشكر لك على ما أسديت إلى فكري من جميل الشناء .

وتفكر الرجل لحظة ثم تذكر فقال :

— لعلك يا سيدتي تعنين الفكرة النيرة التي أوحى بها عقلك

الراجع ؟ ..

فهزت رأسها أن نعم ، فاستطرد :

— إنها فكرة رائعة ، جديدة بكائك اللامع .

فقالت وهي لا تبدى السرور :

— إن تحقيقها يكفل لمولانا القوة والسيادة، وللوطن السلام

والطمأنينة .

فقال القائد :

— هذا حق لا ريب فيه ، وهو ما جعلنا نهمل لها ونكبر .

فنظرت إليه نظرة عميقة وقالت :

— سيأتي يوم قريب تحتاج فكري إلى قوتك لتحقيقها .

وتتويجها بالنجاح والفوز .

فأخى الرجل رأسه وقال :

— شكرا لك يا سيدتي على ثقتك الغالية .

وصمتت المرأة قليلا . كان صاهو وقورا رزينا جادا ، لا كما

عهده قديما ، ولم تكن تنتظر منه غير ذاك ، واستشعرت نحوه
بطمأنينة وثقة ، وكانت تلح عليها رغبة قوية في أن تفتحه في
الموضوع القديم ، وأن تسأله العفو والنسيان ، ولكن خانها
البيلان ولم تدر ما تقول . وغلبتها الحيرة فأشفقت من الزلل ،
وتركت هذا الحديث كارهة حائرة ، ورأت في اللحظة الأخيرة
أن تعلن له عواطفها الطيبة بطريقة أخرى ، فمدت يدها وقالت
وهي تبتسم إليه :

— أيها القائد الجليل ، إنى أمد لك يد التقدير والصداقة .
فوضع الرجل يده الغليظة في يدها الرخصة الرقيقة ، وبدا
عليه التأثير فلم يحر جوابا ، وانتهت عند ذلك المقابلة القصيرة
الفاصلة .

وفي طريق العودة إلى السفينة تساءل محوما : لماذا دعنتي
هذه المرأة ؟ . وترك العنان لعواطفه التي كبح جماحها في
حضرتها فاختل توازنه ، وانكفأ لونه ، وارتجفت أوصاله ،
ومضى يفقد عقله ورشده بسرعة فائقة ، وضربت المجاديف
جانب الماء وهو يترنح كالثلث ، كأنه عائد من معركة خاسرة ،
أفقدته حكمته وشرفه ، وخال النخيل المنطلق على الشاطئ ، يرقص
رقصا جنونيا ، والجو يعفزه غبار ثائر خائق ، وكان الدم

يتدفق في عروقه ساخنا هائجا مجنونا مسموما ، ووجد إبريق
من الخمر على خوان في الممتصورة ، فصبه في فمه حتى أتى عليه في
استهتار جنوني . . . وارتقى على الديوان في حالة يأس قاتل .
وفي الحقيقة لم يكن نسيها ، ولكنها كانت تكمن في
سرداب خفي من نفسه ما فتى ، يسده بالمرء والصبر وشعوره
القوى بالواجب ، فلما وقع نظره عليها بعد غياب عام ، انفجر
المستودع المختفي في نفسه ، وتصاعد لهيبه حتى حرق روحه جميعا
وأحس بالعذاب والهوان واليأس والكبرياء الذبيح ، فذاق
الهنيمة والعذاب مرتين في معركة واحدة منتهية . . . وأحس بدوار
في رأسه المختل ، وجعل يحدث نفسه في غضب كاسر ، إنه يعا
لماذا عنيت باستدعائه ، دعتة لتستوثق من إخلاصه ، ليطمئن قلبه
على سيدها ومولاها الحبيب ، وفي سبيل ذلك تكلفت مودة
وتملقه ، يا للغرابة إن رادوبيس العابثة القاسية تجد وتحنو
وتتعلم ما الحب وما مخاوفه وآلامه ، وتشفق من خيانة طاهو
طاهو الذي كان يوما يلتصق بنعلها كالتراب ، ثم نفضته في حال
تقرر وملل ، الويل للسماء والأرض ، الويل للعالم جميعا ، إذ
يشعر باليأس المميت ، والغضب القاتل ، وبغيظ خانق يطحن
نفسه الجبارة ، إنه يغضب غضبا جنونيا جارفا ، ويشتعل دما

نارا موقدة ، يضغط على سممه فلا يكاد يسمع شيئا . ويخفض
عينيه فيرى الدنيا شعلة حمراء .

وما إن رست السفينة إلى سلم القصر الفرعوني ، حتى غادرها
مسرعا ، وسار يترنح في الحديقة لا يلتفت إلى تحيات الجنود ،
متجها إلى حجرة قائد الحرس بالشكيات . وفي أثناء سيره
اعترض طريقه رئيس الوزراء سونخاتب ، وكان عائدا من
جناح الملك ، وقابله الوزير بابتسامة تحية : ولكنه وقف حياه
جامدا كأنه لا يعرفه ، وعجب سونخاتب لجموده . وقال له :
— كيف حالك أيها القائد طاهو ؟

فقال طاهو بسرعة غريبة :

— أنا .. كأسد واقع في شرك .. أو كساحممة راقدة على
شجر فرن موقدة !

فبدا الإنكار على وجه سونخاتب وقال :

— ما هذا الكلام .. أي شبه بين الأسد والساحمة أو بين
الشراك والفرن ؟

فقال طاهو في ذهوله :

— أما .. أ .. أ ..

سبحه فمعمر صويلا ، وتتحرك في بطء وتواء بحمل
ثقل ، وأما الأسد فينكمش ويزار ويثب في عنف فيقتضي على
فريسته .

ففرس الرجل في وجهه دهشا وقال :

— أغاضب أنت .. لست كعمدى بك !

— أنا غاضب .. كيف تنكرنى أيها الجليل . أنا طاهو

ريب الحرب والقتال .. آه كيف يصبر العالم على هذا السلام

الثقيل .. إن آلهة الموت عطشى ولا بد يوما أن أروى غلتها .

فهن سوختاب رأسه متوهما أنه عرف ما هنالك ثم قال :

— آه ... الآن فهمت أيها القائد ، إنها خمر مريوط المعتقدة ..

فقال طاهو بحدة :

— كلا .. كلا .. الحق أنى شربت كأسا من الدم ، ثم تبين

أنه دم إنسان شرير ، فتسمم دمي ، وزاد الأمر خطورة أنى

صادفت فى طريقى إلى هنا رب الخير نائما فى المرح ، فأغمدت

سيفى فى قلبه .. هيا إلى القتال .. فالدم شراب الجنى الباسل ،

فقال سوختاب ذاهلا :

— إنها الخمر ولا شك . ويحسن بك أن تعود إلى قصر كى

الحال .

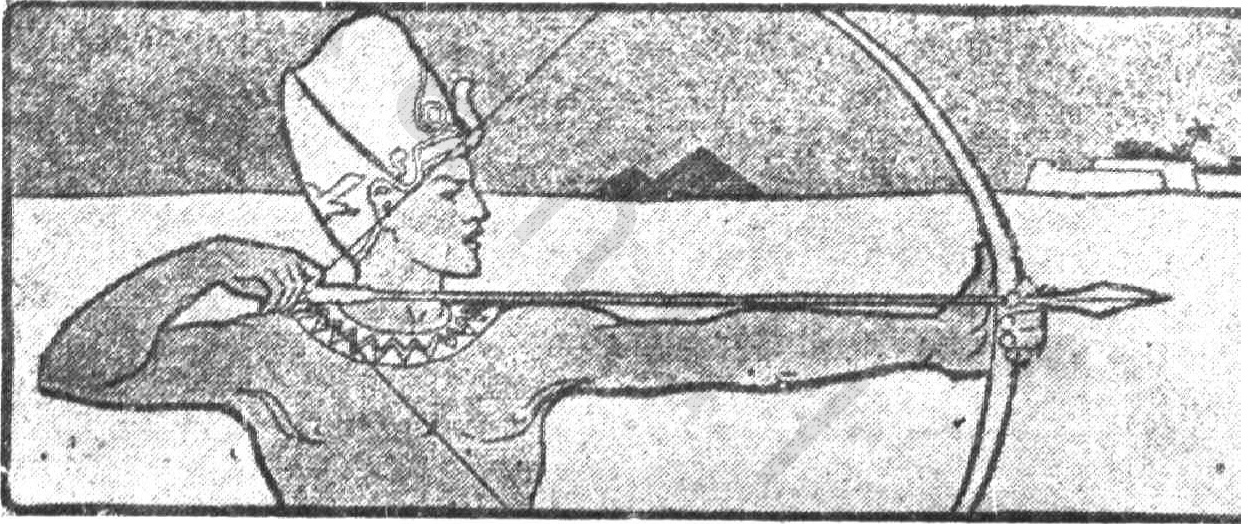
.. كيفه استهانة وقال :

ولدى طاهو سر ..

— الخذر الخذر أيها الرئيس ، إياك والدم الفاسد ، فهو اسد

بعينه ، لقد انتهى صبر الساحفة وسينقض الأسد .

قال ذلك ثم سار في طريقه لا يلوى على شيء ، تاركاً
سونخاتب في ذهول وغرابة .



فترة الانتظار

وكان القصر الفرعونى، وقصر بيعة، ودار الحكومة، تنتظر أوبة الرسول بفارغ الصبر، ولكن فى طمأنينة وثقة بالمستقبل، وكان كل يوم يدنو يديها من الفوز، ويدفى صدرها بحرارة الأمل، وما كان لينقطع هذا الشعور الطيب الجميل، لولا أن وصلت إلى رئيس الوزراء رسالة خطيرة من رجال الكهنوت، وكان سونخاتب يهمل أمثال هذه الرسالة، أو يقنع مضطرا بعرضها على الملكة، ولكنه وجد فيها معنى جديدا خطيرا، لم يشأ أن يتحمل تبعه إخفائه عن مولاه، ولو لاقى فى سبيل ذلك بعض غضبه. فقابل فرعون وتلا عليه الرسالة، وكانت التماسا خطيرا موقعا عليه من جميع رجال الكهنوت، وعلى رأسهم كهنة رع وآمون وبتاح وأيبس، يرجون مولاهم أن يرد أراضى المعابد إلى أصحابها الآلهة المعبودة التى توليه عنايتها، ويؤكدون أنهم ما كانوا يتقدمون بالتماسهم لو وجدوا من الأسباب ما يدعو إلى وجوب نزع الأراضى.

كان الخطاب قويا حازما، فغضب الملك، ومزقه إربا، ورمى

به على أرض الحجرة وصاح :

— سوف أجيئهم بعد حين قليل .

فقال سونخاتب :

— إنهم يلتمسون جماعة ، وكانوا يلتمسون فرادى .

فقال الملك الغاضب :

— وسأضربهم جميعا ، فليحتجوا كيف شاء لهم الجهل .

على أن الحوادث جاوزت هذا الحد ، فقد أرسل حاكم طيبة إلى رئيس الوزراء يقول إن خنوم حتب زار مقاطعته ، وإنه استقبل استقبالاً رائعاً اشترك فيه كهنة آمون وكاهناته وجموع غفيرة من الأهالي ، وإن الهتافات تصاعدت باسمه ، وهتف القوم أيضاً لحقوق الآلهة التي ينبغي أن تصان وتخدم ، وجاوز هذا القدر قوم ، فصاحوا بأكين « واحسرتاه ! إن أموال آمون تنفق على راقصة » ،

ووجم الرئيس أسفا وحزنا ، وغلب إخلاصه تردده هذه المرة أيضاً ، فأحاط مولاه بهذه الأخبار بلباقة ، وغضب الملك كعادته ، وقال أسفا :

— إن حاكم طيبة يسمع ويرى ولا يستطيع شيئاً .

فقال سونخاتب في حزن :

— ليس لديه يا مولاي إلا قوة الشرطة وهي لا تجدى فى
مقاومة جموع غفيرة .
فقال الملك بغضب :

— وليس لى إلا الانتظار على مضض ، لقد دهميت وحق
الرب كبريائى !

وخيمت سحابة من الحزن على أبو المجيدة ، شملت قصورها
الشامخة ودور الحكم فيها ، وكانت الملكة نيتوقريس تقبع فى
جناحها رهينة حبس ووحشة ، تعاني آلام قلبها المنفطر وكبريائها
الجريح ، وترقب الحادثات بعينين حزينتين أسيهتين . وكان
سونفخاتب يتلقى الأخبار بقلب حزين ، ويقول أسفا لطاهو
الصامت الكئيب : هل شهدت مصر قبل اليوم مثل هذا الغضب
المتورد ؟ ! واحزنناه ،

واستحالت سعادة الملك غضبا وغيظا ، وكان لا يذوق
الراحة إلا حين يرتقى بين يدى المرأة التى أسلمها نفسه ، وكانت
تدرك ما به ، فكانت تداعبه وتحنو عليه وتهمس فى أذنه « صبرا »
فيتهد ويقول حانقا « نعم . . . حتى أقبض على ناصية القوة » ،

ولكن اشتد الحرج ، فتعددت زيارات خنوم حتب
للقاطعات ، واستقبل بالمظاهرات فى كل مكان ، وتعالى الهتاف

باسمه في البلدان ، وضاق بذلك كثير من الحكام ، ورأوا فيه معنى لم يرتح إليه إخلاصهم لفرعون ، فاجتمع حكام أمبوس ، وفرمونتس ، ولاتولس ، وطيبة ، وتشاوروا فيما بينهم وقر رأيهم على مقابلة الملك . وقصدوا إلى أبو وطلبوا المقابلة ، فاستقبلهم فرعون استقبالا رسميا حضره سونخاتب ، وتقدم حاكم طيبة بين يديه ، وحياه تحية العبودية والاخلاص ثم قال :
— مولاي ، الاخلاص الحق لا يقنع بأن يكون عاطفة في القلب ، ولا بد أن يقرن بإسداء النصيح والعمل الصالح والافتداء إذا حزب الأمر ، ونحن حيال أمر قد يعرضنا الصدق فيه إلى موجدة ، ولكنا لا نأمن مع السكوت عليه من وخز ضمائرنا ، فلا بد من قولة الحق .

فصمت فرعون هنيئة ثم قال للحاكم :

— تكلم أيها الحاكم فإني مصغ إليك .

فقال الرجل بشجاعة :

— مولاي . إن الكهنة غاضبون ، وقد انتقلت عدوى

غضبهم إلى نفوس الشعب المنتصت إلى حديثهم في الصباح والمساء ، وكان من جراء ذلك أن اتفقت كلمة الجميع على وجوب رد الأراضى إلى أصحابها ..

فبدا الغضب على وجه الملك وقال بحق :

— هل يصح أن يدعن فرعون لإرادة الناس ؟

فقال الرجل بصراحة وجسارة :

— مولاي . إن سعادة الشعب أمانة عهدت بها الآلهة إلى

ذات فرعون ، فلا إذعان ، لكن تعطف من مولى قادر على عباده .

فضرب الملك الأرض بصولجانه وقال :

— لا أرى في التراجع سوى الخنوع .

فقال الرجل : معاذ الرب أن أشير على مولاي بالخنوع ،

والكن السياسة بحرجى ، والحاكم كالربان يتفادى الريح العاصفة ،

ويتهز الفرصة السعيدة .

ولكن الملك لم يعجبه قوله ، وهز رأسه باحتقار وعناد .

واستأذن سوخاتب طالبا الكلام ، وسأل حاكم طيبة قائلاً :

— هل لديك دليل على أن الشعب يشاطر الكهنة عواطفهم ؟

فقال الحاكم بثبات و يقين :

— نعم يا صاحب القداسة ، لقد بثت عيوني في الإقليم ،

فشهدوا غضب الشعب عن كذب ، وسمعوه يخوض فيما لا يجوز

الخوض فيه .

وقال حاكم فرمونتس :

— وهذا ما فعلته فجاءتني أنباء مؤسفة .

وأدلى كل حاكم بدلوه ، ودلت أقوالهم على خطورة الحال ،
وانتهت بذلك أول مقابلة من نوعها تشهدها قصور الفراغة .
 واجتمع الملك على الأثر بوزيره وقائد حرسه في جناحه
الخاص ، وكان غاضبا مهتاجا يتهدد ويتوعد ، وقد قال للرجلين :
— إن هؤلاء الأحكام مخلصون أمراء ، ولكنهم ضعاف ، ولو
أخذت بنصائحهم لعرضت عرشي للهوان . . .
وسرعان ما آمن طاهو على رأى مولاه وقال :

— إن التراجع هزيمة يا مولاي !
وكان سونخاتب يفكر في احتمالات أخرى فقال :
— ينبغي أن نحسب حساب عيد النيل ، وهو لا يفصل بيننا
وبينه سوى أيام معدودات ، والحق أن قلبي لا يرتاح إلى حشد
الآلاف من الشعب الغاضب فى أبو .

فبادر طاهو قائلا : إننا نسيطر على أبو .
— لا ريب فى هذا ، ولكن لا يجوز أن ننسى أنه فى العيد
الماضى تصاعدت بضع هتافات خائنة ، ولم يكن مولانا الملك قد
حقق إرادته ، فىنبغى أن نتوقع هتافات أخرى أشد صراخا .
فقال الملك : إن الأمل معقود بعودة الرسول قبل العيد .
ولكن لم ينفك سونخاتب يزن الأمور من وجهة نظره ،

فقال وكان يؤمن في قلبه باقتراح الحكام :

— سيأتى الرسول فى القريب ، وسيتلو مولانا رسالته على الملأ ، ولا شك أن الكهنة الحائزين على عطف مولاها ، المتمتعين بما يعتقدون أنه حقهم ، يكونون أعظم اطمئنانا إلى التعبئة وأشد حماسة ، حتى إذا قبض مولاى على ناصية القوة ، أملى إرادته ، ولا راد لمشيئته .

وضاق الملك ذرعا برأى سونخاتب ، وأحس بوحشة فى جناحه الخاص ، فهرع إلى قصر بيجه الذى لا تلاحقه الوحشة إليه قط ، وكانت رادوبيس تجمل ما دار فى الاجتماع الأخير ، فكانت أدنى إلى الطمأنينة منه ، ولكنها لم تلق صعوبة فى قراءة صفحة وجهه الحساس ، والشعور بما يضطرم فى قلبه من الغضب والسخط ، واعتورها القلق ، ونظرت إليه متسائلة والكلام يضطرب خلف شفتيها مشفقاً من الظهور ، فقال متذمراً :

— أما علمت يا رادوبيس ؟ إن الحكام والوزراء يشيرون على برد الأراضى إلى الكهنة ، والرضاء بالهزيمة .

فتساءلت بانزعاج : ما الذى حثهم على إبداء هذه المشورة ؟ فروى الملك ما قال الحكام وما نصحوه به ، وكانت تزداد انزعاجاً وحزناً ، وما تمالكت نفسها أن قالت :

— إن الجو يغبر ويظلم، وما حمل الأحكام على المكاشفة بآرائهم
إلا خطر فادح .

فقال الملك متهمًا بازدراء .

— إن شعبي غاضب .

— مولاي، إن الناس كالسفينة الضالة بلا سکان، تحملها
الرياح كيفما تشاء .

فقال بوعيد مخيف :

— سأذهب ربحهم .

وعاودتها المخاوف والشكوك، وخانها صبرها في تلك اللحظة،
فقالت : ينبغي أن نستوصى بالحكمة، وأن نتراجع زمنا قصيرا
مختارين، وإن يوم النصر لقريب .

فنظر إليها بغرابة وقال :

— أتشيرين على بالخضوع يارادوبيس ؟

فضمته إلى صدرها وقد آلمتها لهجته، ثم قالت وقد فاضت
عيناها بدمع سخين :

— أخرى بمن يتحفز لاثابة الكبرى أن ينكمش أقداما،
والنصر رهين بالنهاية .

فتأوه الملك قائلا :

— آه يا رادوبيس . إذا كنت أنت تتجاهلين نفسي ، فهذا
الذى يمكن أن يعرفها ، أنا من إذا نزل مرغما على إرادة إسان
ذبل كمدا ، كوردة يانعة سفتها الرياح .

فبدا التأثر في عينيها السوداوين ، وقالت في حزن عميق :
— فداؤك نفسي يا حبيبي ، لن تذبل قط وصدري يروبك
حبا صافيا .

— سأعيش منتصرا في كل لحظة من حياتي ، ولن أتمكن
خنوم حتب من أن يقول يوما إنه أذلني ساعة !
فابتسمت إليه ابتسامة حزينة ، وتساءلت :

— أتريد أن تسوس شعبا بغير التجاء إلى الحيلة أحيانا ؟
-- التسليم حيلة العاجز ، سأظل ما حييت مستقيما كالسيف
تتحطم على أسنانه قوى الخائنين .

فتهدت حزينة آسفة ولم تحاول معاودته ، ورضيت بالهزيمة
أمام غضبه وكبريائه ، ومنذ تلك اللحظة وهي تتساءل جزعة
متى يعود الرسول ؟ . متى يعود الرسول ؟ .

ما أشق الانتظار . . لو يعلم المتمنون ما عذاب الانتظار
لأثروا الزهد في الدنيا . . كم عدت الدقائق والساعات ، وترقبت
شروق الشمس وانتظرت مغيبها ، وذابت عيناها من طول النظر

إلى مجرى النيل الآتى من الجنوب ، وكم حسبت الزمن بتردد
أنفاسها وخفقان قلبها ، وكم صاحت وقد نال منها القلق كل منال
أين أنت يا بنامون ؟ حتى الحب نفسه ذاقته ذوق الشارد الحالم ،
فلا طمأنينة ولا سلام حتى يعود الرسول برسالته ! ؟

وتقضت الأيام تجر ثقلها جرا بطيئا ، حتى كان يوم تجلس
فيه مستغرقة فى أفكارها ، وإذا بشيث تدخل عليها مهرولة ،
فرفعت رأسها وسألتها :

— ما وراءك يا شيث ؟

فقالت الجارية بلمهة تلهث :

— مولاتى ، جاء بنامون .

وغمرها الفرح ، فانتفضت واقفة كطير فزع ، وهى تصيح
« بنامون ، فقالت الجارية .

— نعم يا مولاتى ، إنه ينتظر فى البهو ، وطلب إلى أن آذئك
بقدومه ، كم لوجه السفر !

وجرت تتخطى أدراج السلم إلى البهو ، فألفته واقفا ينتظر
مقدمها وفى عينيه شوق صارخ ، وكانت تبدو كشعلة من الفرح
والأمل ، فوفر فى نفسه أن فرحها به ، وله ، فغمرته سعادة
إلهية وارتمى على قدميها كالعابد ، ولف ذراعيه حول ساقها

بحنان ووجد ، وهوى بقمه إلى قدميها . . وقال :
— معبودتى ، حلت مائه مرة أنى أقبل هاتين القدمين وهما ندا
أحقق أحلامي .

فدأبت شعره بأناملها وقالت برقة :
— بنامون العزيز . . بنامون . . أحقا عدت إلى ؟
فلمعت عيناه بنور الحب ، ودس يده فى صدره ، فأخرج حقا
من العاج صغيرا وفتحه ، وإذا ما فيه تراب . . ثم قال :
— هذا تراب مما كانت تطأ قدماك فى الحديقة ، جمعته بيدي ،
واحتفظت به فى هذا الحق ، وحمлите معى فى سفرى ، وكنت أقبله
كل مساء قبل استسلامى للكرى ، ثم أحفظه على قلبي . .
وأصغت إليه على جزع وتلمل ، وكان شهورها منصرفا
عن حديثه ، ونقد صبرها ، فسأله برقة تدارى بها جزعها :
— ألا تحمل شيئا ؟

فدس يده فى صدره مرة أخرى ، وأخرج كتابا مطويا
ومد لها يده به ، فتسلمته بيد مرتجفة وقد غمرها شعور سعيد ،
وأحست بتخدير فى أعصابها وخور فى قواها ، وألقت على
الرسالة نظرة طويلة ، وشدت عليها بيدها ، وكادت أن تنسى
بنامون ووجده لولا أن وقع عليه بصرها ، فتذكرت أمرا هاما

وسأله : ألم يأت معك رسول من قبل الأمير كافره ؟
فقال الشاب :

— بلى يا مولاتى ، وهو الذى حمل الرسالة فى أثناء العودة ،
وإنه لينتظر الآن فى الحجرة الصيفية .
ولم تستطع أن تبقى فى مكانها طويلا ، لأن الفرح الذى غمر
حواسها عدو للسكون والجمود فقالت :
— أستودعك الرب إلى حين ، وإن حجرة الصيف تنتظرك
وستصفو لنا الأيام .

وجرت حاملة الرسالة ، وكان قلبها ينادى حبيبها ومولاهما
من أعماقه ، ولولا التخرج لطارت إليه فى قصره كما فعل النسر
من قبل ، تزف إليه البشرى السعيدة . . .

الاجتماع

وجاء يوم عيد النيل ، واستقبلت أبو جموع المحتفلين من أقاصى الجنوب والشمال ، وتعالى في جوها الأناشيد ، وازينت دورها بالأعلام والأزهار . وأغصان الزيتون ، واستقبل كبار الرجال من الكهنة والحكام شروق الشمس في طريقهم إلى القصر الفرعونى . لينتظموا فى الموكب الملكى العظيم الذى يغادر القصر حين الضحى . . . وبينما كان السادة ينتظرون نزول الملك فى إحدى الحجرات دخل عليهم أحد الحجاب ، وحياهم باسم الملك ، وقال بصوت جهورى :

— أيها السادة الأجلاء . . . إن فرعون يريد أن يجتمع بكم فى الحال ، فتفضلوا بالذهاب إلى بهو الاستقبال الفرعونى :
وتلقى الجمع تصريح الحاجب بدهشة غير خافية ، لأن العادة جرت بأن يستقبل الملك رجال مملكته بعد الاحتفال بالعيد لا قبل ذلك فبدت الحيرة على الوجوه وتساءل القوم : ترى أى أمر خطير دعا إلى هذا الاجتماع الخارق للتقاليد ؟ !

ولكنهم لبوا الدعوة طائعين ، وذهبوا إلى بهو الاستقبال
ذى الجلال والروعة ، واحتل الكهنة مقاعد الجانب الأيمن ،
وجلس الحكام قبالتهم ، وكان يتصدر المكان العرش الفرعونى ،
وسط جناحين من الكراسى أعدت للأمراء والوزراء ...
وما لبثوا قليلا حتى دخل الوزراء يتقدمهم سونخاتب ،
وتبعهم بعد حين أمراء البيت المالک ، فجلسوا إلى يمين العرش
وهم يردون تحيات الرجال الذين وقفوا تحية لهم .

وساد الصمت ، وبدأ الجد والاهتمام على الوجوه ، وخلا كل
إلى أفكاره ، يسائلها عن الأسباب التى دعت إلى هذا الاجتماع
فهام حتى قطع عليهم أفكارهم دخول حامل الاختام ، فتطلعوا
ليه فى انتباه شامل ، وقد صاح الرجل بصوت جهورى يعلن
بجىء الملك .

— فرعون مصر نور الشمس ، وظل رع على الأرض ،
صاحب الجلالة مرزوع الثانى ...

فهب الجميع وقوفا وأحنوا الهامات ، حتى كادت أن تمس
لأرض الجباه ، وجاء الملك يسير فى جلال ومهابة ، يتبعه على
لأثر قائد الحرس طاهو ، وحامل الاختام ، وكبير حجاب
الأمير كارفترو حاكم النوبة ، وجلس فرعون على العرش ، ثم

قال بصوت مهيب :

— أحييكم أيها الكهنة والحكام وآذن لكم بالجلوس .

فاعتدلت القامات المنحنية في رفق ، وجلس الرجال وسط صمت شامل عميق يجعل من التنفس مجازفة خطيرة ، واتجهت الأنظار إلى صاحب العرش تواقا إلى استماع كلمته ، واعتدل الملك في جلسته ، ثم قال وهو يقلب عينيه في وجوه القوم دون أن تستقرا على أحد :

— أيها الأمراء والوزراء والكهنة والحكام ، من صفوة رجال مصر العليا والسفلى ، لقد دعوتكم لأشاوركم في أمر خطير يتعاقب بسلامة المملكة ، ومجد الآباء والأجداد . أيها السادة لقد جاء رسول من الجنوب هو هامانا كبير حجاب الأمير كارفرو يحمل رسالة خطيرة من مولاه ، فرأيت أن واجبي يقضى على بأن أدعوكم ذون إمهال . للاطلاع ، عليها والمشاورة في محتوياتها الخطيرة ...

والتفت فرعون إلى الرسول وأشار إليه بصوجلانه ، فتقدم الرجل خطوتين فصار في حذاء العرش ، وقال له فرعون « اتل عليهم الرسالة »

فبسط الرجل رسالة مطوية بين يديه ، وقرأ بصوت

جمهورى مؤثر :

« من الأمير كارفترو حاكم بلاد النوبة إلى حضرة صاحب
الجلالة فرعون مصر ، نور الشمس المشرقة ، وظل الرب رع ،
حامي النيل ، وصاحب النوبة ، وطور سيناء ، وسيد الصحراء
الشرقية ، والصحراء الغربية . .

مولاي . . يوسفنى أن أرفع إلى مسامع ذاتكم المقدسة أنباء
محزنة ، عن حوادث غدر شائنة ، وقعت في أملاك التاج المتاخمة
لحدود النوبة الجنوبية . وكنت يا مولائي — اطمئنانا منى إلى
المعاهدة التي عقدت بين مصر وقبائل المعصايو ، وما أعقب
عقدها مباشرة من شمول الطمأنينة وتوطيد الأمن — كنت
أمرت بسحب كثير من الحاميات الموزعة في الصحراء إلى
قواعدها الأصلية ، وجاءني اليوم ضابط من رجال الحاميات
وأخبرني بأن زعماء القبائل شقوا عصا الطاعة وحنثوا بيمينهم ،
وانقضوا خلسة بليل على ثكنات الحاميات ، وأعملوا فيها التقتيل
الوحشى ، وقد قاوم الجنود مقاومة اليأس ، قوات تفوقهم مائة
مرة أو يزيد ، حتى سقطوا عن آخرهم في ميدان الاستبسال ،
واجتاح القبائل البلاد جميعا ، واتجهت نحو الشمال إلى بلاد
النوبة ، فرأيت من الحكمة ألا أفرط فيما لدى من قوات محدودة ،

وأن أوجه همى إلى تحصين الاستحكامات والفلاع ، للتمكن من
صد العدو الزاحف ، وإن تصل مولاي رسالتى حتى تكون
جنودنا قد اشتبكت مع طلائع المهاجمين ، وإنى فى انتظار أمر مولاي
سأظل على رأس جنودى أقاتل كما تعلمت أن أقاتل فى سبيل
مولاي فرعون ، ووطنى مصر »

وانتهى الرسول من تلاوة الرسالة ، وظل صوته يدوى فى
كثير من القلوب ، أما الحكماء فقد اتقدت أعينهم ، وتطأير منها
الشرر ، وسرت فى صفوفهم حركة اضطراب عنيف ، وأما
الكهنة فقد تقطبت جباههم وجمدت نظراتهم ، وانقلبوا كتبائيل
جامدة فى معبد صامت .

وصمت فرعون هنيهة حتى بلغ التأثير أشده ، ثم قال :

— هذه هى الرسالة التى دعوتكم للمشاورة فيها .

وكان حاكم طيبة على رأس المتحمسين ، فقام واقفا وأخفى
رأسه تحية ، ثم قال :

— مولاي . . إنها رسالة خطيرة حقا ، والجواب الواحد
عليها هو الدعوة إلى التعبئة .

ولاقت كلمته ارتياحا عاما فى نفوس الحكماء ، فقام حاكم
أمنوس وقال :

— نعم الرأي يا مولاي ، فالجواب الأول هو التعبئة السريعة .
كيف لا ووراء الحدود الجنوبية إخوان لنا بوسائل أوقعهم
العدو في ضيق . . وإنهم لثابتون ، فلا ينبغي أن نخذلهم ، أو
نبطئ عليهم . .

وكان آنى يفكر فى العواقب التى تمس واجباته ، فقال :
— إذا اجتاحت أولئك الهمج بلاد النوبة هددوا الحدود بلاشك .
وكان حاكم طيبة على رأس المتحمسين ، وقد ذكر رأيا قديما
له طالما تمنى تحقيقه يوما ، فقال :

— كان رأى دائما يا مولاي أن تحتفظ المملكة بجيش دائم
كبير ، يكفل لفرعون القيام بتبعاته فى الدفاع عن سلامة الوطن
وتملكاته فيما وراء الحدود .

واشتد الحماس فى جناح جميع القواد ، ونادى كثير منهم
بالتعبئة ، وهتف آخرون للأمير كارقرو والحامية بلاد النوبة ،
واشتد التأثر ببعض الحكام ، فقالوا للملك « مولانا . . لن يطيب
لنا الاحتفال بالعيد ، ووراءنا إخوان بوسائل يهددهم الموت ،
إذن لنا فى الرحيل لنحشد الجنود ، وكان فرعون ملازما الصمت
ليسمع ما عسى أن يقول الكهنة ، وكان هؤلاء لائذين بالصمت
ريثما تهدأ النفوس ، فلما أن سكت الحكام ، قام كاهن بتاح الأكبر

وقال بهدوء غريب :

— هل يأذن لي مولاي في أن أوجه إلى رسول سمو الأمير
كارفترو سؤالا ؟

فقال الملك بغرابة :

— لك ما تريد أيها الكاهن الأكبر .

فالتفت كاهن بتاح إلى الرسول وقال :

— متى غادرت بلاد النوبة ؟

فقال الرجل :

— منذ أسبوعين .

— ومتى بلغت أبو ؟

— مساء أمس .

فاتجه الكاهن نحو فرعون وقال :

— أيها الملك المعبود ، إن الأمر يدعو إلى الحيرة الشديد

فبالأمس جاء هذا الرسول المبجل من الجنوب بأنباء تمرد زعم

المعصايو ، وبالأمس نفسه جاء وفد من زعماء المعصايو من

أقصى الجنوب ليقدّموا فروض الطاعة لمولاهم فرعون ، ويرفع

إلى أعتابه المقدسة آى الشكر على ما أولاهم من نعمة وسلام

فما أشد حاجتنا إلى من يميّط اللثام عن هذه المعميات .

فكان تصرّحاً غريباً لم يتوقعه إنسان، فأحدث دهشة كبرى وعجبا : فشملت الرووس حركة عنيفة ، وتبادل الحكام والكهنة نظرات التساؤل والحيرة ، وتهامس الأمراء ، أما سونخاتاب فقد انخلع صدره ونظر إلى مولاه في ارتياح ، فرآه يقبض بيده على الصولجان بشدة ، وتشدد عليه بقسوه حتى انتفخت عروق ساعده وانكفأ لونه ، فخشى الرجل من تسلط الغضب على الملك فسأل الكائن قائلا :

— ومن أنباك بهذا يا صاحب القداسة ؟

فقال الرجل بهدوء :

— رأيتم بعيني رأسي يا سيدي الرئيس ، فقد زرت أمس معبد سوتيس ، وقدم كاهنه إلى وفدا من السود قالوا إنهم من زعماء المعصايو ، وإنهم جاءوا يقدمون فروض الطاعة لفرعون وقد باتوا ليلتهم ضيوفا على رئيسه .

فقال سونخاتاب :

— ألا يصح أن يكونوا من النوبة ؟

ولكن الرجل قال بيقين :

— قالوا إنهم من المعصايو ، وعلى أية حال فهنا رجل —

هو القائد طاهر — اشتبك مع المعصايو في حروب كثيرة ،

وعرف جميع زعمائهم ، فهل يتفضل جلالة الملك ويأمر بدعوة هؤلاء الزعماء إلى ساحته المقدسة ، وعسى أن تزيل أقوالهم عن أعيننا غشاوة الحيرة .

وكان الملك في حالة شديدة من القهر والغضب ، ولكنه لم يدر كيف يمكن أن يرفض ما يقترحه الكاهن ، وأحس الوجوه تتطلع إليه في لهفة ورغبة ورجاء ، فقال لأحد الحجاب : — اذهب إلى معبد سوتيس ، وادع زعماء السود .

وصدع الحاجب بالأمر ، ولبت الجميع ينتظرون وكأن على رؤوسهم الطير ، وكان الدهول باديا على وجوه الجميع ، وكانوا يكظمون ما بنفوسهم وإن ود كل منهم لو يسأل رفيقه ويستمع إليه ، وابتس سونخاتب قلقا مبهوما دائم التفكير ، يختلس من مولاه نظرات حائرة مشفقا عليه من هول الساعة ، ومرت عليه الدقائق ثقيلة ومؤلمة ، كأنما تنزع من جلودهم ، والملك على عرشه يشاهد الأحكام القلقين والكهنة المطرقين ، لا تكاد تنفي عيناه ما يعترك نفسه من العواطف ، ثم خال الجمع أنهم يسمعون ضوضاء يحملها الهواء من بعيد ، فخلصوا من نفوسهم ، وأرهفوا السمع ، فإذا بالضوضاء تقترب من ميدان القصر ، وإذا بها أصوات تتصاعد بالهتاف ، ومضت بالقرب تشتد وتقوى شيئا

فشيئا حتى طبقت الآفاق ، وكانت محتلطة غير متميزة ، ويفصل بينها وبين المجتمعين فناء القصر الطويل ، فأمر الملك حاجبا بالذهاب إلى الشرفة ليرى ما هناك ، فغاب الرجل برهة ثم عاد مسرعا ، ومال على أذن فرعون وقال :

— إن جموع الشعب تملأ الميدان ، تحيط بالعربات التي تحمل زعماء السود .

— وما هتافهم ؟

— يهتفون لأصدقاء الجنوب المخلصين ، ومعاهدة السلام .
ثم تردد الرجل لحظة واستدرك هامسا :

— ويهتفون يا مولاي لصاحب المعاهدة خنوم حتب !
واصفر وجه الملك من الغضب ، وأحس بالحقد والقهر ،
وتساءل كيف يدعو الشعب الذى يحى زعماء المعصايو ويهتف
للسلام إلى محاربة المعصايو ! ؟ . . . ولبت ينتظر القادمين غاضبا
حزينا كئيبا .

وأعلن ضابط من الحرس قدوم الزعماء ، وفتح الباب على مصراعيه ودخل الوفد يتقدمه رئيسه وكانوا عشرة ، ضخام
الاجسام ، عرايا إلا من وزرة تستر الوسط ، وعلى رؤوسهم
هالات من أوراق الشجر ، وقد سجدوا جميعا على الأرض ،

وتقدموا زحفا حتى بلغوا عتبة العرش ، فقبلوا الأرض بين
يدى فرعون ، ومد لهم الملك صولجانه فلشموه فى خشوع وأذن
لهم بالوقوف فوققوا فى تهيب ، وقال رئيسهم باللغة المصرية :
— أيها الرب المعبود ، فرعون مصر ، وسيد الوادى ،
ومعبود القبائل ، جئنا إلى رحابك لنقدم لك أى الخضوع والذل
والحمد على ما أوليتنا من آلاء ونعم ، فبفضل رحمتك تناولنا الطعام
شعيا ، وشربنا الماء حلوا سائغا ..

فباركهم الملك برفع يده .
وكانت الوجوه متجهة إليه كأنها تضرع إليه أن يسألهم عما
يقال عن بلادهم ، فقال الملك المقهور :
— من أى العشائر أنتم ؟
فقال الرجل :

— أيها البهاء المعبود ، نحن زعماء قبائل المعصايو الداعية لبهائك بالمجد
وصمت الملك قليلا ، وأبى أن يسألهم عن أتباعهم شيئا
وضاق بالمكان وبمن فيه ، فقال :

— إن فرعون يشكركم أيها العبيد المخلصون ويبارككم .
وقدم صولجانه فلشموه مرة أخرى وكروا راجعين ، تكا
تمس الأرض جباههم ...
والتهب الغضب فى قلب الملك ، وأحس إحساسا باطنيا ألما بأ

السكينة المائلين أمامه ، وجهوا إليه ضربة قاتلة في معركة خفية ،
لا يعلم بها سواه وسواهم ؛ فاشتد عليه الحنق ، وفاض به الغيظ ،
وثار على هزيمته ، وقال بصوت شديد النبرات :

— لدى رسالة لا يرتقى الشك إليها ، وسواء أكانت القبائل
الشايرة تتبع هؤلاء الزعماء أم لا تتبعهم ، فالأمر الذي لا شك
فيه هو أنه توجد ثورة ويوجد متمردون ، وأن جنودنا الآن
محاصرون !

فعاودت الخماسة الحكام ، وقال حاكم طيبة :
— مولاي .. لقد جرت الحكمة الإلهية على لسانك ، إن
إخواننا ينتظرون النجدة ، فلا يجوز أن نضيع الوقت في مناقشات ،
والحق أبلج واضح .

فقال الملك بعنف :

— أيها الحكام ، إني أعفيكم من الاشتراك اليوم في الاحتفال
بعيد النيل ، فأمامكم واجب أسمى ، ارجعوا إلى أقاليمكم واحشدوا
الجند ، قرب دقيقة تضيع تكلفنا غاليا .

قال الملك ذلك ثم قام واقفا ، معلنا انتهاء الاجتماع ، فقام
القوم من فورهم وأحنوا الهامات إجلالا ...

الرهف

وقصد فرعون إلى جناحه الخاص ، ودعا إليه رجله المخلصين
سونخاتب وطاهو ، فلبى الرجلان دعوته سريعا ، وكانا شديدي
التأثر . يقدران حرج الموقف حق قدره ، ووجدوا الملك كما توقعوا
محتاجا غاضبا ، يذرع حجراته من جانب إلى جانب ، ويهدر بوحشية
جنونية ، فلما أن انتبه إليهما أحدهما بنظرة زائغة ، وقال والشرر
يتطاير من عينيه :

— خيانة . . إني أشم رائحة خيانة خبيثة في هذا الجو الخانق .
فانكفا طاهو وقال :

— مولاي . . لا أنفي عن نفسي التشاؤم وسوء الظن ،
ولكن لا يذهب بي الخدس إلى هذا الفرض الكبير ، فضرب
الملك الأرض بقدمه وقال وهو يتميز من الغيظ والحنق :
— لماذا جاء هذا الوفد اللعين ؟ . . بل كيف جاء اليوم ؟ . .
واليوم بالذات ؟

فقال سونخاتب ، وكان غارقا في التفكير والأحزان :

— ترى هل هي مصادفة حزينة غريبة ؟

فقال الملك في دهشة مروعة :

— مصادقة .. كلا .. كلا .. هي الخيانة اللئيمة ، أكاد ألمح
وجها يستتر بالإطراق والدهاء ، كلا أيها الوزير لم يحىء القوم
مصادقة ، ولكنهم دفعوا إلى هنا عمدا ليقولوا سلاما إذا ما قلت
أنا حربا ، وهكذا وجهه إلى عدوى ضربة شديدة ، وهو ماثل بين
يذى يعلن الولا ..

فامتقع وجه طاهو ولاح في وجهه الحزن ، ولم يكابر سونخاتب
فأطرق يائسا وتمتم وكأنه يحادث نفسه :
— إذا كانت خيانة فمن الخائن ؟

فقال الملك وهو يلوح بقبضته في الهواء :

— نعم .. من الخائن .. هل هنالك معضلة لا تحل .. كلا ..
أنا لا أخون نفسي ، ولا يخون عهدي سونخاتب ولا طاهو ،
ولا تخوننى رادوبيس ، فلم يبق إلا هذا الرسول الشقي ..
والأسفاه لقد خدعت رادوبيس ..

فبرقت عينا طاهو وقال :

— سأسوقه إلى هنا ، وأنتزع من فمه كلمة الحق .

فهر الملك رأسه وقال :

— رويدك يا طاهو رويدك .. إن المجرم لا ينتظرك حتى

تذهب للقبض عليه ، ولعله الآن ينعم بثمر خيائته في مكان آمن
لا يعلم به الا الكهنة . كيف تمت المكيدة ؟ ... لا أدري كيف ،
ولكني أستطيع أن أقسم بالرب سوتيس أنهم علموا بالرسالة
قبل تحرك الرسول فلم يتوانوا ، وبعثوا برسول من لديهم فجاء
رسولي بالرسالة وجاء رسولهم بالوفد ... خيانة ... نذالة ، إذ
أعيش وسط شعبي كالأسير ... ألا لعنة الآلهة جميعاً على الذين
وعلى الناس .

ولاذ الرجال بالصمت ، حزنا واشفاقا . وكان طاعو
يختلس من مولاه نظرات حزينة ، وأراد أن يحاول إعاد
الأمل إلى ذاك الجو القائم فقال :

— ليكن عزاً لنا أننا سنضرب الضربة القاضية .

فاحتد الملك قائلاً :

— كيف لنا بتسديد هذه الضربة ؟ !

— إن الأحكام في طريقهم إلى الأقاليم لحشد الجنود .

— وهل تظن أن الكهنة يقفون مكتوفي الأيدي بإزاء

الجيش الذي علموا أنه يحشد لسحقهم ؟ !

وكان سونخاتب ينوء بهم ثقيل لأنه كان يؤمن بما يقو

الملك ، ولكن أراد أن ينفس عن صدره ، فقال وكأنه يتمنى

— عسى أن يكون ريبتنا وهما ، ويكون ما نظنه خيانة محض مصادفة ، فتنتشع هذه السجابة الدكاء بأهون الأسباب .
ولكن فرعون ثار على العزاء وقال :

— لا أزال أذكر ضرورة أولئك الكهنة المطرقين ، كانوا بلائك ينطوون على سر رهيب ، ولما قام رئيسهم لينتلكم ، تحدى أسس الأحكام باطمئنان ، وألقى كلمته بثقة لا حد لها ، ولعله الآن يتكلم بعشرة السنة . آه . . . الويل للخيانة . . . لن يعيش مرنوع الثانى تحت رحمة الكهنة .

وغضب طاهو لحزن مولاه فقال :

— مولاي . . تحت إمرتك حرس قوى يزن الرجل منه ألف رجل من رجالهم ، ويجود بنفسه فى سبيل مولاه عن طيب خاطر . فأعرض فرعون عنه ، وارتمى على مقعد وثير مستسلما لأفكار رأسه الساخن . ترى هل يمكن أن يتحقق أمله بالرغم من هذه الأحران ؟ . . أم يفشل مشروعه إلى الأبد ؟ . . يا لها من ساعة فاصلة فى حياته . . هى مفترق الطرق بين المجد والهوان ، والقوة والانهيار ، والحب والشقاء ، لقد رفض مرة أن يتنازل عن الأراضى حيلة ، فهل يجد نفسه يوما مضطرا إلى التنازل عنها محفوفة على عرشه ؟ آه . . لن يأتى هذا اليوم ، وإن أتى فلن يسام الخسف

أبداً ، وسيبقى إلى آخر لحظة من حياته كريماً مجيداً عزيزاً . وتهد
بالرغم منه حسرة ، وقال لنفسه أسفاً .. آه لو لم يعثر حظى بالخيانة .
وقطع عليه صوت سونخاتب وهو يقول :

— مولاي دنا موعد الحفل .

فنظر إليه كمن يصحو من نوم عميق ، وتمتم « حقاً » . ثم قام
واقفاً وذهب إلى الشرفة وكانت تطل على فناء القصر العظيم -
وقوة العجلات مترأصه به في الانتظار - وترى الميدان عن بعد
تتلاطم فيه أمواج القوم المحتفلين ... فألقى على تلك الدنيا الحافلة
نظرة باهتة وعاد إلى مكانه ، ثم دخل إلى مخدعه وغاب هنيهة ،
ورجع لابسا جلد البحر شارة الكهنوت والتاج المزدوج ، وتأهبوا
جميعاً للخروج ، ولكن سبقهم بالدخول حاجب من حجاب
القصر حيا مولاه وقال :

— السيد طام رئيس شرطة أبو يستأذن في المشول بين يدي

مولاي .

فأذن الملك له ، ودخل الرجل على الأثر . وقد دهش الملك
ومشيره لما شاهدوه على وجهه من آي الاضطراب ، وحيا الشرطي
الكبير مولاه ، وقال مبادرا بعجلة ، واضطراب :

— مولاي . لقد جئت الآن لأضرع إلى ذاتكم المقدسة

أن تعدلوا عن الذهاب إلى معبد النيل !
نخفق قلب الرجلين ، وسأل الملك منزجما :
— وما الذى حملك على هذا ؟
فقال الرجل ، وهو يلث :
— قبضت فى هذه الساعة على كثيرين كانوا يوجهون هتافات
شريرة إلى شخصية نذيلة يكرمها مولاي ، وأخشى أن تتكرر هذه
الهِتافات فى أثناء مرور الموكب .
نخفق قلب الملك ، وغليت مراجل الغضب فى دمه ، وسأله
بصوت متهدج :
— ماذا قالوا ؟
فابتلع الرجل ريقه ، وقال باضطراب وارتباك :
— قالوا لتسقط العاهرة .. لتسقط ناهية المعابد !!
فاشتد الغضب بالملك ، وصاح بصوت كالرعد :
— يا للويل .. لا بد من أن أضرب ضربة تنفس عن صدرى
أو ينفجر بنيانى .
واستطرد الرجل مذعورا :
— وقد قاوم المجرمون رجالى فوقعت معارك بيننا وبينهم ،
وساد الاضطراب والهرج برهة ، وفى أثناء ذلك تعالت هتافات

أكبر شراً وأوغل غيا .

فسأل الملك قائلاً وهو يصر على أسنانه غضباً ومقتاً :

— وماذا قالوا أيضاً ؟

فأحنى الرجل رأسه ، وقال بصوت خافت :

— تجاسر المجرمون على ما هو أجل .

فقال الملك في صوت ذاهل :

— أنا... ! ؟

فلاذ الرجل بالصمت وقد امتقع وجهه ، ولم يتمالك

سوفخاتب نفسه فصاح :

— كيف يمكن أن أصدق أذنى ؟

وصاح طاهو بغضب :

— هذا جنون لا يعقل ...

وضحك فرعون ضحكة عصبية ، وقال بسخرية مريرة :

— كيف ذكرني شعبي يا طام ؟ .. تكلم ! إني آمرك .

فقال الرجل :

— قال الأوغاد .. « ملكنا يلهو » .. « نريد ملكاً جاداً »

فضحك الملك ضحكة كالأولى ، وقال متهمكاً :

— وأسفاه .. ما عاد مرزوع يصلح لعرش الكهنة ! .. وماذا

قالوا أيضا يا طام ؟

فقال الرجل بصوت خافت لا يكاد يسمع :

— وهتفوا يا مولاي طويلا بحياة حضرة صاحبة الجلالة

الملكة نيتوقريس !

فلاح برق خاطف بعيني الملك ، وردد اسم نيتوقريس بين شفثيه بصوت خافت ، كأنما يذكر شيئاً قديماً طال به عهد النسيان ، وتبادل المشيران نظرة الدهشة ، وأحس فرعون بدهشة الرجلين وتخرج رئيس الشرطة ، فلم يرض أن يجعل من الملكة حديثاً مريراً ، وإن سأل نفسه حيرة ترى ما عسى أن يكون شعور الملكة حيال هذه الهتافات . . . واشتد الضيق ب صدره ، وأحس بموجة عنيفة من الغضب والتمرد والاستهتار ، فوجه سؤاله إلى سونخاتب قائلاً بخشونة :

— هل حان موعد الذهاب ؟

فقال طام بذهول :

— ألن يعدل مولاي عن الذهاب ؟

فقال الملك بعنف :

— ألا تسدعني أيها الوزير ؟

فاضطرب سونخاتب وقال بخضوع :

— بعد برهة قصيرة يا مولاي ... حسبت مولاي سيعتدل
عن الذهاب ؟

فقال الملك بهدوء كالذى يسبق العاصفة :

— سأذهب إلى معبد النيل خلال الجموع الساخطة ، وسنرى
ما يكون ... عد يا طام إلى واجبك .



الامل والسهم

وكانت رادوبيس في صباح ذلك اليوم مستسلة إلى الديوان
الوثير تحلم . كان يوما يتيه على الزمان بما ينبض فيه من أفراس
العيد وبما يدخر لها من فوز عظيم ، فأى سعادة وأى فرح ، كان
صدرها في ذلك اليوم كبركة من ماء مصفى معطر ، تذب على
حفافها الأزهار وتغنى جوها البلال شادية نشاوى . . فيالدينا
الأفراح ، ومتى تتلقى نبأ الفوز ؟ . . حين الأصيل ، حين تبدأ
الشمس رحلتها إلى العالم الثانى ويشرع قلبها فى رحلته إلى دنيا
السعادة واستقبال الحبيب ، فيالساعة الأصيل ! ساعة الأصيل
هى ساعة الحبيب ، حين يقبل عليها بقوامه الفارع وشبابه الغض .
فيأف ذراعيه المفتولين حول خصرها الدقيق ، ويناجى اسمها
العذب ، يبشرها بالفوز فيقول انتهت الآلام ، وتفرق الأحكام
ليحشدوا الجنود فنهينا لحبنا . آه ما أجل الأصيل . . .

ولكن كيف تصدق أن هذا النهار ينقضى ؟ . . لقد انتظرت
عودة الرسول شهرا انطوى ثقيلا مرهقا ، ولكنها تحال هذه
الساعات المعدادات أشد وطأة وأكبر كلفة ، على أنه قلق بخالط

طمأنينة وخوف يمازج سعادة... وكأنما أرادت أن تتناسى
الانتظار لتتغفل الزمن، فعطفت أفكارها إلى هنا وإلى هناك حتى
عثرت في شرودها بالعاشق الجاثي في معبده... في الحجرة
الصيفية. بنامون بن بسار، ما أرقه وأخف ظله، كانت تساءلت
مرة حيرى كيف تجزيه على ما أدى لها من خدمة جليلة. وقد
طار على جناحي حماس إلى أقصى الجنوب، وعاد بأسرع مما
ذهب يحمله الشوق فيعبر به مشاق الطريق.. بل همست مرة في
أرتباك كيف تستطيع أن تتخلص منه؟.. ولكنه علمها بقناعته
أن من الحب حبا عجيبا لا يعرف الأثرة ولا التملك ولا الطمع،
ويرضى بالأحلام والأوهام، فياله من شاب حالم بعيد عن
الدنيا، ولو أنه طمع في قبلة مثلا لما عرفت كيف تتحاماها، دون
أن تمد له فمها، ولكنه لا يطمع في شيء وكأنه يخشى لو لمسها أن
يحترق بلهب غامض، أو لعله لا يصدق أنها شيء يلمس ويقبل،
إنه لا يرمقها بعين إنسان فلا يستطيع أن يراها من بنى الإنسان،
ويقنع بأن يحيا على بهائها كما يحيا نبات الأرض بالشمس السابحة
في السموات.

وتنهدت وقالت حقا إن الحب عالم عجيب، أما حبا فينبع
متدفقا من صميم الحياة، فالقوة التي تجذبها إلى مولاهما هي قوة

الحياة الكاملة الرهيبة ، وأما حب بنامون فيكاد أن ينقطع له
عن أسباب الحياة ويضل في آفاق سامية ، لا يعلن عن أثر
محسوس إلا في يده الماهرة ، وأحيانا في لسانه الملعثم الحار . . .
فياله من حب يرق من ناحية فيصير طيفا من الأحلام ، ويقوى
من ناحية أخرى فيبث في الصخر الأصم حياة . . فكيف تفكر
في التخلص منه وهو لا يكلفها شيئا ، فلتتركه في معبده آمنا ،
يصور في جدران الصامته أجمل التهاويل التي تستنف وجهها
الجميل .

وعادت تهتف من أعماق صدرها متى الأصيل ، سحقا لشيئ
لو لبثت إلى جانبها لسلتها بثرثرتها وخبثها ، ولكنها أبت ألا أن
تذهب إلى أبو لمشاهدة حفل عيد النيل . . .

ياما أجمل الذكريات ! ذكرت العيد الماضي ، يوم اعتلت
هودجها الفاخر ، وشقت به الحشد الكبير لترى فرعون الشاب ،
ولما وقعت عيناها عليه خفق قلبها وهي لا تدري ، وأحست
بدبيب الحب غريبا لطول عهدها بالجفاء ، فحسبته قلما غاضيا أو
نفثة ساحر ، ذاك اليوم الخالد حين خطف النسر صندلها ! ، ولم
يكد يبدأ اليوم الثاني حتى زارها فرعون ، ومن ثم زار قلبها
الحب وتغيرت حياتها وتغيرت الدنيا جميعا .

أما العام الثاني فهي ذى تقبع فى قصرها ، والدنيا تقصف وتلهو فى الخارج . وإن يتاح لها الظهور إلا بحساب ، فلم تبق رادوييس الغانية الراقصة ، ولكنها منذ عام وإلى الأبد قلب فرعون الخفافى ، وكانت أفكارها تضل هنا وهناك فلا تلبث أن تنجذب بعنف إلى موطن همها فتساءلت ، ترى ماذا حدث فى الاجتماع الخطير الذى قال مولاهما إنه سيدعو إليه ليقرأ عليه الرسالة . . هل التأم وأبى النداء وأدناهما إلى أمهما الفاتن ؟ . . . أواه . . متى يأتى الأصيل . .

وملت الجلسة ، فقامت تتمشى ، ودأبت إلى النافذة المطلة على الحديقة تسرح الطرف فى أفاقها المنفسحة ، ولبثت ما لبثت حتى سمعت يدا مضطربة تطرق الباب ، فالتفت متضايقة برمة ، فرأت جاريتها شيث تفتح الباب مهرولة لاهثة زائغة البصر يعلو صدرها وينخفض ، وكان وجهها شاحبا كأنما تقوم ساعتها من فراش مرض طويل ، فوجب قلبها ، وطالعها نذير شؤم . وسألها فى اشفاق :

— مالك يا شيث ؟

وهمت الجارية أن تتكلم ، فغلبها البكاء ، فحشت على ركبتيها أمام مولاتها ، وشبكت يديها على صدرها . وأخمت فى البكاء .

بحالة عصبية شديدة ، فاستولى الانزعاج على رادوييس ،
وصاحت بها :

— مالك يا شيث ؟ ... بالله تكلمى ، ولا تتركينى فريسة
الحيرة ، فإن لى آمالا أخاف عليها الوسوس .
فتهدت المرأة تنهدا عميقا ، وشهقت شهقة عنيفة ، ثم قالت
بصوت باكى :

-- مولاتى ... مولاتى ... إنهم هائجون ثائرون !

— من الهايجون الثائرون ؟

— الناس يا مولاتى . إنهم يصرخون فى غضب جنونى ،
مزقت الأرباب الستهم .

تحقق قلبها مغزوعا ، وقالت بصوت متهدج :

— ماذا يقولون يا شيث ؟

— آء يا مولاتى ... إنهم قوم مجانين تهدى الستهم المسمومة
هذيانا مخيفا .

فكادت المرأة تجن فزعاً ، وصاحت بحدة :

— لا تعذبنى يا شيث ! صار حينى بما قالوا ... رباه .

— مولاتى إنهم يذكرونك ذكرا غير جميل ... ماذا فعلت

يا مولاتى حتى تستحقى غضبهم ؟

فضمت رادوبيس يديها إلى صدرها ، وقد اتسعت عيناها
ذعرا ، وقالت بصوت متقطع :

— أنا .. أیغضب الناس علیّ أنا .. ألم یجدوا فی هذا الیوم
المهندس ما یشغلهم عنی ... رباه ... ماذا قالوا یا شیث ...
صدقینی رحمة بی :

فقال المرأة ، وهی تبکی بکاء مرا :
— تصایح المجانین یا مولاتی بأنک تنهبین مال الأرباب .

فتهدت من صدر مکوم ، وتمتمت بحزن :
— أواه .. إن قلبی ینهلع ویتوجس خیفة ، وأخوف ما أخاف
أن یضیع الفوز المرتقب وسط الصراخ وصیحات الغضب ،
أما کان الأجدر بهم أن یتغاضوا عنی إکراما لمولاهم ؟
فصکت الجاریة صدرها بیدیها ، وولولت قائلة :

— إن مولانا نفسه لم یسلم من أذى ألسنتهم .
وفرت صرخة فزع من فم المرأة الفزعة ، وأحست برجفة
تزلزل نفسها ، وقالت :

— ماذا تقولین ؟ .. هل تجاسروا علی مس فرعون ؟
فقال المرأة الباکية :

— نعم یا مولاتی وأأسفاه ... قالوا فرعون یأهوه . نرید

ملكاً جاداً .

فرفعت رادوبيس يديها إلى رأسها كأنها تستغيث ، وتلوى
جسمها من شدة الألم ، وارتمت بيأس على الديوان ، وهي تقول :
— رباه ... أى هول هذا ... كيف لا تزلزل الأرض ،
وتندك الجبال ! كيف لا تصب الشمس نيرانها على الدنيا ،
فتمات الجارية :

— إنها تزلزل يا مولاتى زلزالاً شديداً ، فالقوم مشتبهون فى
قتال عنيف مع الشرطة ، والدماء تسيل وتنفجر ... وكادت
تطأنى الأقدام ، فقررت لا ألوى على شيء ، وانحدرت فى قارب
إلى الجزيرة ، وما كان أشد انزعاجى إذ وجدت النيل يموج
بالسفن ، والناس على ظهرها يهتفون كما يهتف الآخرون ،
وكانهم جميعاً على ميعاد .

وغشيها خور ، وطغت عليها موجة يأس خانق ، أغرقت
أمالها الصارخة بنير رحمة وجعلت تساءل نفسها المحزونة ترى
ماذا حدث فى أبو . وكيف وقعت هذه الحوادث الخطيرة ، وما
الذى أثار الشعب وأخرجه عن وعيه ، وهل يقدر للرسالة الفشل
ويقضى على أملها بالموت ؟ الجؤ مغبر كالح ، تتطاير فيه نذر شر
مستطير . ولئن يتذوق قلبها الطمأنينة ، إن الخوف القاتل يحتم

عليه كقطعة من الزمهرير ، وقد قالت بصوت كالإيكاء :
— الغوث أيتها الأرباب .. هل يظهر مولاي لهذا الشعب
الهائج .. ؟

فقالت شيث تطمئنها :

— كلا يا مولاتي .. لن يترك قصره قبل أن ينزل عقابه
بالتأثرين .

— رباه .. أنت لا تعرفين من هو يا شيث ... إن سيدى
غضوب لا يتقهقر أبدا ، ولشد ما يخاف قلبى يا شيث ، لا بد
أن أراه الآن .

فارتجفت الجارية رعبا وقالت :

— هذا مستحيل .. فالسفن الغاصة بالهائجين ، تغطى سطح
الماء وحرس الجزيرة متجمع على الشاطئ ..

فشدت على رأسها بحنون وصاحت :

— ما بال الدنيا تضيق فى وجهى ، والأبواب تسد على ، إني
أتردى فى بئر ضيق من اليأس ، آه يا حبيبى .. كيف أنت الآن
وكيف السبيل إليك ؟ !

فقالت شيث تخفف عنها :

— صبرا يا مولاتي ستنقشع هذه السحابة القاتمة .

— يمزق قلبي إربا أن أشعر بأنه يتألم ، آه يا سيدى وحبيبى ،
ترى ماذا يقع الآن من الحادثات فى أبو ! ؟ وقهرتها الأحرزان
فانصهرت آلام قلبها وسالت دموعها ساخنة ، وشدهت شيث
لدى هذا المنظر الغريب إذ رأت رادوبيس ربيبة الحب والنعيم
تذرف الدمع وتتأوه من الألم واليأس ، وفكرت فى غيبوبة
الحزن التى غشيتها فيما آلت إليه آمالها التى كانت مشرقة منذ
قليل ، وأحس قلبها ببرودة اليأس ، وتساءلت خائفة مذعوة هل
يمكن أن يرغموا مولايها فيفقدوه سعادته وكبرياه ، أو أن
يجعلوا قصرها هدفا لغضبهم ومقتهم ، إن الحياة لا تطاق مع
تحقق أى من هذه الوسوس ، ولخير لها أن تفارق الحياة إذا
انتزعت من مجدها وسعادتها ، فإما أن تعيش رادوبيس التى
حالفها الحب والمجد ، وإما أن تموت ، وفكرت فى أمرها طويلا
حتى أحضرت لها ذاكرة الاحزان ما كانت أدرجته طوايا
النسيان ، فاستولى عليها اهتمام شديد ، وقامت من فورها وغسلت
وجهها بماء بارد لتحو أثر البكاء من عينيها ، وقالت لشيث إنها
ستتحدث إلى بنامون فى بعض الشئون ، وكان الشاب منهمكا فى
عمله كعادته ، غافلا عما يكدر صفو الدنيا من خطير الحدثان ،
ولما أحس بها أقبل نحوها فرحا ، ولكنه سرعان ما وجم وقال

« وحق هذا الحسن الالهي إنك - حزينه اليوم -

فقلت وهي تخفض ناظريها :

— بل تعب فقط أو كالمريضة .

— الجو شديد الحرارة ، لماذا لا تجلسين ساعة إلى شاطئ

البركة ؟

فقلت باقتضاب :

— جئتك برجاء يا بنامون .

فعقد ذراعيه إلى صدره كأنما يقول لها هاأنذا طوع بنائك .

فقلت :

— أتذكر يا بنامون أنك حدثتني يوما عن السموم العجيبة

التي ركبها أبوك ؟

فقال الشاب وقد بدت على وجهه الدهشة :

— نعم أذكر بغير ريب !

— بنامون أريد قارورة من هذا السم العجيب ، الذي أطلق

عليه أبوك اسم السم السعيد .

فازداد الشاب دهشة وتمتم متسائلا : « ولم ؟ » ، فقلت بلمحة

هادئة ما استطاعت :

— لقد حدثت أحد الأطباء فأبدى اهتماما شديدا بشأنه ،

وطلب إلى أن أوافيه بقارورة منه ، عسى أن ينقذ بها حياة أحد مرضاه ، فوعده يا بنامون فهل تعدنى بدورك أن تحضرها لى فى أقرب وقت ؟

فقال الشاب بسرور وكان يسعده أن تطلب إليه ما تشاء :

— ستكون محضرة بين يديك بعد ساعات قلائل .

— كيف ؟ ألا ينبغى أن ترحل إلى أمبوس لإحضارها .

— كلا . . . لدى قارورة فى مسكنى بأبو .

فأثار تصرّحه اهتمامها بالرغم من أحزانها ، ورمقه بنظرة دهشة ، خفض عينيه وقد تحضّب وجهه احمرارا ، وقال بصوت خافت :

— أحضرتها فى تلك الأيام الأليمة ، حين كدت أشقى من

حى على اليأس ، ولولا ما أبديت نحوى بعد ذلك من عطف

الكنيت الآن إلى جوار أوزوريس لـ

وذهب بنامون ليحضر لها القارورة : أما هى فهزت كتفها

استهانة وقالت وهى تهم بالمسير :

— قد ألوذ بها لما هو شر منها !!

سرهم الشعب

صدع طام بأمر مولاه ، فأدى التحية ، وذهب يعلو وجهه
الارتباك والخوف ، وظل الرجال واقفين ممتنعين الوجه حتى
خرج سونغتاب عن صمته ، فقال بتوسل :
— أضرع إليك يا مولاي أن تعدل عن الذهاب اليوم إلى
المعبد .

ولكن فرعون لم يتسع صدره لهذه النصيحة ، فقطب جبينه
غضبا ، وقال :

— أأفر لدى أول هتاف ؟

فقال الوزير :

— مولاي إن القوم هائجون غاضبون ، فينبغي التروى .

— يحدثني قلبي بأن خطتنا سائرة إلى الفشل المحتوم ، فإذا

تراجعت اليوم خسرت هيبتي إلى الأبد ،

— وغضب الشعب ، يا مولاي ؟

— سيهدأ ويسكن إذا رأني أشق صفوفه على عجلى كالمسلة

الشاحنة ، واقتحام الأهوال ولا التسليم والخنوع ..
ومضى فرعون يذرع الحجرة جيئة وذهابا ساخطا شديد
التأثر ، فسكت سونخاتب وهو كظيم ، وعطف ناظريه إلى طاهو
وكأنه يستغيث به ، ولكن القائد كان غارقا في الهموم كما بدا
من امتقاع وجهه ، وشروذ نظرتة وثقل أجفانه ، فشملهم صمت
عميق ، ولم يكن يسمع إلا وقع أقدام الملك ...
وقطع عليهم سكونهم أحد الحجاب ، وكان متسرعا مضطربا ،
فانحنى للملك ، وقال :

— ضابط من الشرطة يستأذن يا مولاي في المشول بين
يديك .

فأذن له الملك ، وحدهج رجله بنظرة يفحص بها أثر قول
الحاجب في نفسيهما ، فوجدهما قلقين مضطربين ، فعلت فمه
ابتسامة ساخرة ، وهز كتفيه العريضين استهانة ، ودخل الضابط
وكان يلهث من الجهد والاضطراب ، وكانت ثيابه معفرة
وقانسوته مضعضعة تنذر بالشر ، فأدى التحية ، وقال قبل أن
يؤذن له في الكلام :

— مولاي إن الشعب مشتبك مع رجال الشرطة في قتال
عنيف ، وقد قتل من الجانبين رجال كثيرون ، ولكن سيقتمنا

القوم ، إذا لم تصلنا نجات قوية من الحرس الفرعونى .
وارتاع سونخاتب وطاهو ارتياعا ، ونظرا إلى فرعون
فوجداه مرتعش الشفتين من الغضب ، وقد صاح بصوت
أجش .

— وحق الأرباب جميعا ما أتى هذا الشعب للاحتفال بالعيد .
فاستدرك الضابط قائلا :

— وقد آذنتنا العيون يا مولاي أن الكهنة يخطبون الناس
فى أطراف المدينة زاعمين لهم أن فرعون يتذرع بوجود حرب
وهمية فى الجنوب ليجشد جيشا يذل به الشعب ، والناس
تصدقهم ويشتد بهم الغضب ، ولو لا وقوف الشرطة فى وجههم
لاقتحموا السبل إلى القصر المقدس .

فصاح فرعون بصوت كالرعد :

— قطع الشك باليقين ، واقتضحت الخيانة اللثيمة ، وهاهم
أولاء يعلنون العداوة ويبدأنا بالهجوم !

ووقع الكلام من الآذان موقعا غريبا لا يصدق ، وبدأ على
الوجوه كأنها تتساءل فى دهشة وانكار : أحق أن هذا فرعون ؟
وهذا شعب مصر ؟ .. ولم يطق طاهو صبرا ، فقال لمولاه :

— مولاي . هذا يوم كئيب كأنما دسه الشيطان خفية فى

دورة الزمان ، وكانت بدايته سفك دماء ، والرب أعلم كيف
يكون منتهاه ، فمرنى أن أقوم بواجبى .
فسأله فرعون :

— وماذا أنت فاعل يا طاهو ؟

— سأوزع الجنود على أما كن الدفاع الحصينة ، وأقود فرقة
العجلات للملاقاة الثائرين قبل أن يتغلبوا على الشرطة ويقتحموا
الميدان إلى القصر . . .

فابتسم فرعون ابتسامة غامضة وصمت مليا ، ثم قال بصوت
رهيب .

— سأقودها بنفسى .

فانخلع قلب سونخاتب فى صدره ، وصاح بالرغم منه :

— مولاي .

فضرب الملك صدره بيديه بعنف ، وقال :

— ما زال هذا القصر حصنا ومعيدا منذ آلاف السنين ،

وإن يصير على عهدى هدفا رخيصة لكل متمرّد .

خلع الملك جلد النمر ورماه بازدراء ، وأسرع إلى مخدعه

ليرتدى لباسه الحربى ، وفقد سونخاتب اتزانها ، وتوجس خيفة

رثرا ، فالتفت إلى طاهو ، وقال بلهجة الأمر :

— أيها القائد لا وقت لدينا نضيعه . فاذهب وأعد الدفاع عن القصر ، وانتظر ما يأتيك من الأوامر .

وخرج القائد يتبعه الشرطي . وليث الوزير ينظر الملك . ولكن الحادثات لم تظفر ، فقد حملت الريح ضوضاء صاخبة . ما زالت تعلو وتشتد حتى طبقت على الآفاق ، فهروا سونغخاتب إلى الشرفة المظلة على فناء القصر وألقى بناظريه إلى الميدان فرأى جموع الشعب تعدو قادمة من بعيد هاتفة ملوحة بالسيوف والخناجر والعصى ، كأنها أمواج فيضان هائل جارف لا ترى العين منها إلا رموسا عارية وسلاحا لامعا . فأحس الوزير بالفرع ونظر إلى أسفل ، فرأى العبيد في حركة سريعة يشبهون المتاريس خلف الباب العظيم ، وجرى المشاة كالنصور وارتقوا الأبراج المقامة على السور المحيط في الأمام وعلى الجانبين الشمالي والجنوبي ، واندفعت قوات عظيمة منهم إلى ممر الأعمد الموصل إلى الحديقة يحملون الرماح والقسي ، أما العجلات فقد ارتدت إلى الوراء ، واصطففت صفين طويلين تحت الشرفة استعدادا للانطلاق في الفناء إذا اقتحم الباب الخارجي .

وسمع سونغخاتب وقع قدمين خلفه ، فالتفت إلى الوراء فرأى فرعون واقفا على عتبة الشرفة في ثياب القيادة العليا

وعلى رأسه تاج مصر المزدوج ، وكانت عيناه ترسلان شررا
متطائرا ، والغضب مرتسا على وجهه كلسان من اللهب ، ويقول
حانقا سغيظا :

— حوصرتنا قبل أن نبدي حرا كا !
فقال سونخاتب :

— القصر يا مولاي قلعة لا تؤخذ ، يدافع عنه جنود جبابة
وسيرتد السكينة مهزومين مضعضعين .

وجمد الملك في مكانه ، وتراجع الوزير وراءه ، وجعلا
ينظران في صمت محزن إلى الجموع التي لا يحصيها العد ، وهي
تهدر كاللوحوش ، وتلوح مهددة بسلاحها ، وتهتف بأصوات
كالرعد العرش لنيثوقريس ، ويسقط الملك العايب ، وكانت
جنود الحرس تطلق السهام من خلف الأبراج ، فاستقر في
المقاتل ، ورد الثائرون بسيل عارم من الأمتجار والأخشاب
والسهام .

وهز فرعون رأسه ، وقال :

— مرحى ... مرحى ... أيها الشعب الكاسر الذي جاء
لخلع الملك العايب ، ما هذا الغضب ، ما هذه الثورة ، لماذا تهدد
بهذا السلاح ، أتريد حقا أن تغمدته في قلبي ... مرحى ...

مرحى... إنه لمنظر حقيق بأن يخلد على جدران المعابد...
مرحى مرحى يا شعب مصر .

وكان الحراس يقاتلون بشدة وبسالة . ويطلقون السهام
كالمطر ، فإذا سقط منهم قتيل حل مكانه غيره مستهينا بالموت ،
والقواد على متون الجياد يطوفون بالأسوار ويديرون القتال...
وإنه ليشاهد هذه المناظر الآلية ، إذ سمع صوتا يعرفه حق
المعرفة يقول :

— مولاي .

فالتفت إلى وراء مدهوشا ، فرأى الذى يناديه على قيد
خطوتين ، فقال بعجب :

— نيتوقريس !

فقالت الملكة بصوت حزين :

— نعم يا مولاي . لقد صك أذننى صراخ بشع لم يسمع من
قبل فى هذا الوادى ، فجئت ساعية إليك لأعلن ولأنى ، وأشاطر
المصير .

قالت ذلك ، ثم ركعت على ركبتها وأحنت رأسها ، فتقهقر
سونخاتب إلى الخارج . وبادر الملك إلى معصمها ورفعها من
ركعتها ، ونظر إليها بعينين مرتبكتين ، ولم يكن رآها منذ اليوم

الذى جاءت فيه إلى جناحه وردها أسوأ رد ، فاشتد به الحرج
والآلم ، على أن صياح القوم وصراخ المتقاتلين رداه إلى ما كان
عليه ، فقال لها :

— شكرا لك أيتها الأخت ، تعالى انظري إلى شعبي ، إنه
يحينى فى يوم العيد .

نخفضت عينيها ، وقالت فى حزن عميق :

— كبرت كلمة تخرج من أفواههم .

واستحال تهكم الملك غضبا وسخطا وازدراء ، وقال بلمهجة
تنطوى على الاشمئزاز :

— بلد مجنون ، جو خائق ، قلوب ملوثة ... خيانة ...
خيانة ... خيانة ...

فارتعدت فرائص الملكة لذكر كلمة الخيانة ، وجمدت عيناها
من الذعر ، وأحست بأنفاسها تحتبس فى صدرها .

ترى هل حمله هتاف القوم لها على بعض الظن ؟ .. وهل
يكون جزاؤها الاتهام بعد أن طوت فؤادها على أسقامه ،
وجاءت طوعا إلى من أهانها وأشقاها ؟ ... وهالها الأمر ،
فقال :

— والأسفاه يا مولاي ، ليس فى وسعى إلا أن أشاطرك

لمصير . ولما كنى أعجب من الخائن ، وكيف كانت الخيانة ؟
— الخائن رسول إثمته على رسالة ، فسلمها إلى عدوى ؟
فقال الملكة بلهجة استغراب :

— لا علم لي بالرسالة ، ولا بالرسول ، ولا أظن أن الوقت
يتسع لإنبائي ، وما أتمنى عليك من شيء إلا أن أظهر إلى جانبك
أمام الشعب الذي يهتف لي ليعلم أني أواليك ، وأنى أعادى من
يعاديك .

— شكرا لك يا أختاه ، ليس من حيلة ، وما على إلا أن
استعد لموت شريف .

ثم أمسك بذراعها ، وسار بها صوب حجرة اعتكافه
وأزاح الستار المسدل على بابها ودخلا معا إلى الحجرة الفاخرة
وكان يطالع الداخل محراب منحوت في الجدار يقوم بداخل
تمثالان الملك والمملكة السابقتين ، فاتجه الملكان إلى تمثال
والديهما ، ووقفا أمامهما خاشعين صامتين ينظران بعينين
حزينتين كئيبتين ، وقال الملك بصوت ثقيل ، وهو ينظر إلى
تمثال والديه :

— ترى ما رأيكافي ؟ !

وسكت لحظة كأنه ينتظر أن يتلقى الجواب ، وعأوده انفعالا

فغضب على نفسه ، ثم ثبت عينيه على وجه أبيه ، وقال :
— لقد أورتني ملكا عظيما ومجدا أثيلا ، فماذا صنعت بهما ؟
لم يكد يمضى عام على توليتى حتى شارفت الدمار ، والأسفاه لقد
أذلت عرشى موطننا للنعال ، وجعلت اسمى مضغة الأفواه ،
واكتسبت لنفسى اسما جديدا لم يطلق على فرعون من قبل ، هو
الملك العايب .

وانحنت رأس الملك الشاب مثقلة حزينة ، وابتس ينظر إلى
الأرض بعينين مظلمتين ، ثم رفعهما إلى تمثال والده ، وتتم :
— لعلك وجدت فى حياتى ما أخجلك ، واسكنك لن تخجل
من موتى أبدا !

والتفت فجأة إلى الملكة ، وقال لها :
— هل تغفرين لى إساءتى إليك يا نيتوقريس ؟
وكان التأثر قد بلغ منها مبلغا عظيما ، فاغرورت عيناها
بالدموع ، وقالت :

— لقد نسيت همومى فى هذه الساعة .
فقال بانفعال شديد :
— طالما أسأت إليك يا نيتوقريس ، لقد تطاولت على
كبريائك ، وظلمتك ، وجعلت حماقتى من سيرتك أسطورة

حزينة تلقى بالإنكار والغرابة ، كيف حدث هذا ؟ ... وهل كنت أستطيع أن أغير المجرى الذى تنصب فيه حياتى ؟ ... لقد غمرتني الحياة وتولانى جنون عجيب . ولا أستطيع حتى فى هذه الساعة أن أعلن ندمى ، وأأسفاه إن العقل يستطيع أن يعرفنا بسخفنا وتفاهتنا ، ولكن يبدو لى أنه لا يقدر على تلافيهما ، هل رأيت أفدح من هذه المأساة التى أردتها ؟ ... ومع هذا فلن يفيد الناس منها إلا بلاغة كلامية ، وسيبقى الجنون ما بقيت حياة الإنسان ، بل لو بدأت حياتى من جديد لما تجذبت الوقوع فى المأساة مرة أخرى ... أيتها الأخت لقد ضاقت نفسى بكل شئ ، وما من فائدة ترجى ، فالخير أن استحث النهاية ...

وبدا على وجهه العزم والاستهتار ، فسأله حائرة قلقة :

— أى نهاية يا مولاي ؟

فقال بحدة :

— لست ندلا لثما ، وأستطيع أن أذكر واجبى بعد طول النسيان ، ما جدوى القتال ؟ ... سيصرع جميع رجالى المخلصين أمام عدو لا يحصى له عدد ، وسيأتى دورى حتما بعد إزهاق آلاف من الأرواح من جنودى وشعبى ، ولست جباناً

رعديدا يلوذ بأهداب الحياة قابضا على خيط واه من الأمل ،
فلأحقن الدماء وأواجه الناس بنفسى .
فارتاعت الملكة ، وقالت :

— مولاي ... أتحمل ضمير رجالك وذر التخلي عن الدفاع
عنك ؟ ..

— بل لا أريد أن أضحي بهم عبثا ، وسألقى عدوى وحيدا
لنصفى حسابنا معا .

فأحست بامتعاض شديد ، وكانت تعرف عناده ، فيئست
من إقناعه ، وقالت بهدوء وحزم :
— سأكون إلى جانبك .

ولكنه هلع ، وأمسك بذراعيها ، وقال بتوسل :
— نيتوقريس ، إن الشعب يريدك ، وحسنا أراد فأنت
جديرة بحكمه فابق له ، إياك وإن تظهري إلى جانبي فيقولوا إن
الملك يحتمى بزوجه أمام شعبه الغاضب .

— وكيف أتخلي عنك ؟

— افعل هذا من أجلى ، ولا تقدمى على عمل يفقدنى شرفى
إلى الأبد .

فأحست المرأة بالحيرة والارتباك والضيق الشديد ، فصاحت

ياثمة « يا للساعة الرهيبة » .

فقال الملك :

- هذه رغبتى تنفيذها إكراما لى ، لا تقاومى وحق والدين .
فإن كل دقيقة تمر يسقط جنود بواسل بغير ثمن . الوداع أيتها
الأخت الكريمة ، أنا ذاهب موقنا بأنك لن تلطنينى بالعار فى
ساعتى الأخيرة ، إن من يتمتع بالسلطان الكامل لا يستطيع أن
يقنع بالأسر فى قصر ، فالوداع أيتها الدنيا ، الوداع أيتها اللذات
والآلام ... الوداع أيها المجد الكاذب والمظاهر الجوفاء ، لقد
مجت نفسى كل شئ ، فالوداع الوداع ...
وهوى بقمه فقبل رأسها ، والتفت إلى تمثال والديه ،
وانحنى لهما . ثم ذهب .

ووجد سونخاتب ينتظر فى الردهة الخارجية ، جامدا
كتمثال أخنى عليه القدم ، فلما رأى مولاه دبّت فيه الحياة
وتبعه فى سكون ، وفسر خروجه على هواه ، فقال : « سيبت
ظهور مولاي روح الحماس فى قلوبهم الباسلة » ، فلم يحبه الملك
وهبطا الأدراج معا إلى مر الأعمدة الطويل الذى يصل ما بين
الحديقة والفناء ، وأرسل فى طلب طاهو ، وانتظر صامتا ، وفى
تلك اللحظة نزعت نفسه إلى الناحية الجنوبية الشرقية ، إلى

بيجة . . . وتهد من أعماق قلبه ، لقد ودع كل شيء ، إلا أحب
الاشياء إليه ، فهل تحم النهاية قبل أن يلقي نظرة على وجه
رادوبيس ويسمع صوتها لآخر مرة ؟ . . . وأحس قلبه بحنين
أليم وحزن شديد ، وصحا من غفوة همومه على صوت طاهو
يحياه ، فاندفع بقوة لا تقهر إلى سؤاله عن طريق بيجة قائلا :
— هل النيل آمن ؟

فأجابه القائد قائلا : وكان تمتقع الوجه شديد الشحوب :
— كلا يا مولاي . ولقد حاولوا أن يهاجمونا من الخلف
بالقوارب المسلحة ، ولكن أسطولنا الصغير ردهم بغير عناء ،
ولن يؤخذ القصر من هذه الناحية أبدا .
ولم يكن القصر الذى يهم الملك ، لذلك أحنى رأسه ، وقد
أظلمت عيناه ، سيموت قبل أن يلقي نظرة وداع على الوجه الذى
باع الدنيا ومجدها من أجله ، ترى ماذا تفعل رادوبيس فى هذه
الساعة المفجعة . . هل بلغها ما أصاب آمالها من الانهيار أم أنها
ما تزال تنيه فى وديان السعادة ، وتنتظر عودته بفارغ الصبر ؟ !
ولم يكن الوقت يسمح له بالاستسلام إلى أحزانه ، فطوى
آلامه فى صدره ، وقال لطاهو آمرا .

— مر جنودك أن تخلى الأسوار ، وتكف عن القتال ،

وتعود إلى ثكناتها .

فاستولت الدهشة على طاهو ، ولم يصدق سونغخاب أذنيه ،
فقال بانزعاج :

— ولكن الشعب يفتح الباب توا !

ولبث طاهو واقفا لا يبدى حراكا ، فصاح الملك بصوت
كالرعد دوى دويا مخيفا فى ممر الأعمدة :
— اصدع بما أمرت .

وذهب طاهو ذاهلا ينفذ أمر مولاه ، وتقدم فرعون
بخطى ثابتة نحو فناء القصر ، فالتقى عند نهاية الممر بفرقة
العجلات المصطفة ، وقد رآه الضباط والجنود ، فسلوا أسيافهم
وأدوا التحية ، فنادى الملك قائد الفرقة ، وقال له :

— عد بفرقتك إلى الثكنات ولا تبرحها حتى تأتيك أوامر
أخرى .

فأدى القائد التحية وجرى نحو فرقته ، ونادى فى الجند
بصوت شديد ، فتحركت العجلات بسرعة وانتظام إلى ثكناتها
فى الجناح الجنوبي من القصر ، وكان سونغخاب ترتعد أوصاله ،
ولا تكاد تحمله قدماه الضعيفتان ، وقد أدرك ما يريد مولاه ،
ولكنه لم يستطع أن ينطق بكلمة ...

ومضت الجند تخلى مواقعها الحصينة منفذة الأمر الرهيب ،
وتنزل عن الأسوار والأبراج وتنطوى فى نظام إلى ألويتها ،
ثم تعدو بسرعة إلى الشكنات يتقدمها ضباطها . وما لبث أن
خلت الأسوار ، وخلا الفناء والممرات حتى من قوات الحرس
العادى المنوط بها واجب الحراسة فى أوقات السلم .

وظل الملك واقفا عند مدخل الممر وإلى يمينه سونخاتب .
وعاد طاهو لاهثا ، ووقف إلى يساره ، وقد بدا وجهه كالشبح
المخيف ، وكان كلا الرجلين يرغب فى التوسل إلى الملك برغبة
حارة ، ولكن ما بدا على وجهه من الجمود والصلابة والشدة ،
بدد شجاعتهما ، فلازما الصمت مرغمين . والتفت الملك إليهما ،
وقال بهدوء :

— لماذا تنتظران معى ؟

فارتعب الرجلان أيما ارتعاب ، ولم يستطع طاهو إلا أن
ينطق بهذه الكلمة بتوسل واشفاق : « مولاي » أما سونخاتب ،
نقال بهدوء غير عادى :

— إذا أمرنى مولاي بالتخلى عنه سأصعد بأمره لا محالة ،
لكننى سأزهق نفسى فى الحال .

فتهد طاهو ارتياحا كأنه ظفر بالحل الذى أعياه طلبه .

وتتم قاتلا : ، أحسنت أيها الرئيس ، ، وسكت فرعون ، ولم يقل شيئا .

وفي أثناء ذلك كانت توجه إلى باب القصر الكبير ضربات شديدة قاصمة ، ولم يتجاسر أحد على اعتلاء الأسوار كأنهم توجسوا خيفة من انسحاب الحرس المفاجيء ، وتوهموا أنه ينصب لهم سراكا قاتلا . فوجهوا كل قوتهم إلى الباب ، ولم يحتمل الباب ضغطهم زمنا طويلا فتزعزعت المتاريس وارتج بنيانه وهوى بقوة عنيفة رجت الأرض رجا ، واندفعت الجموع متدفقة صاخبة ، وانتشروا في الفناء كغبار ريح الصيف ، وكانوا يتدافعون بعنف ، وكأنهم يتقاتلون . ويتباطأ المتقدمون منهم ما استطاعوا خشية خطر غير منظور ، وما زالوا في تقدمهم حتى شاربوا القصر الفرعوني ، ولحت أعينهم الواقف عند مدخل الممر ، وعلى رأسه تاج مصر المزدوج فعرفوه ، وأخذوا بمنظره ووقفته وانتظاره وحيدها لهم . وتشبثت أقدام الذين على الرؤوس بالأرض ، ونشروا أذرعهم يوقفون التيار الجارف المنصب وراءهم ، وصاحوا في الجموع مهلا ... مهلا ...

ولعب أمل ضعيف بقلب سونخاتب حين رأى الدهول يستولى على قادة الثائرين فيشل أعضائهم ، ويزيغ أبصارهم ،

وتوقع قلبه المتهالك معجزة تخلف ظنه الأسود، ولكن كان
يوجد بين الثائرين دهاة يشفقون بما يرجو قلب سونخاتب،
وخشوا أن ينقلب فوزهم هزيمة، ويخسروا قضيتهم إلى الأبد،
فامتدت يد إلى قوسها، ووضعت سهمها في كبده، وسددته إلى
فرعون وأطلقته، فانطلق السهم من وسط الجمع واستقر في أعلى
صدر الملك دون أن تمذه قوة أو رجاء، وصرخ سونخاتب
كأنما هو الذى أصيب، ومد يديه يسند الملك فالتقنا مع يدي
طاهو الباردتين، وأطبق الملك شفتيه فلم يخرج منهما أنين،
ولا آهة، وتماسك بما بقى فيه من قوة ليحفظ توازنه، وقد
تقطب جبينه، وارتسم عليه الألم، وأحس سريعا بخور
وضعف، وأظلمت عيناه فترك نفسه لأيدي رجله المخلصين.

وساد الصفوف الأمامية سكون رهيب، وعقد الألسنة
صمت ثقيل، وهلعت الأعين، وأرسلت نظرات زائغة إلى
الرجل العظيم الذى يعتمد على رجله تتحسس يده موضع السهم
فى صدره فيأطخها الدم الساخن المتدفق بغزارة، وكأنهم
لا يصدقون أعينهم، أو كأنهم هاجموا القصر لغير هذه
الغاية !

ومزق السكون صوت من المؤخرة يسأل : « ماذا هنالك ،

فقال آخر بصوت خافت : « قتل الملك ! » .

وتناقلتها الألسنة بسرعة جنونية ، وتصايح بها الناس ، وهم يتبادلون نظرات الحيرة والارتباك . . .

ونادى طاهو عبدا وأمره أن يحضر هودجا ، فجرى الرجل إلى داخل القصر ، وعاد يحمل هودجا هو وجماعة من العبيد . فوضعوه على الأرض ورفعوا جميعا فرعون وأناموه في رفق . وانتشر الخبر داخل القصر ، فجاء طبيب الملك مسرعا ، وظهرت خلفه الملكة ، وكانت تسرع الخطى في اضطراب باد ، ولما وقعت عيناها على الهودج وعلى النائم عليه جرت إليه فزعة ، وجشت على ركبتيها إلى جانب الطبيب ، وهي تقول بصوت متهدج :

— يا للويل . . . لقد أصابوك يا مولاي كشيئتك !

وشاهد القوم الملكة ، فصاح واحد منهم : « جلالة الملكة ، وانحنى هامات الشعب الواجم كأنه في صلاة جامعة . . . وأخذ الملك يفيق من أثر الصدمة الأولى ، ففتح عينيه المغمضتين . ومضى يقلبهما فيمن حوله في هدوء وضعف ، وكان سونخاتب يحمالق في وجهه في ذهول وصمت ، وكان طاهو جامدا ووجهه كوجه الموتى ، وكان الطبيب يفحص الجرح ، ويكشف عنه

قيص الزرد ، أما الملكة فقد اكتسى وجهها بالجزع والالام ،
وقالت للطبيب :

— أليس بخير ؟ .. قل لى إنه بخير !

فأدرك الملك ما تقول ، وقال ببساطة :

— كلا يا نيتوقريس ، إنه سهم قاتل .

وأراد الطبيب أن ينتزع السهم ، ولكن الملك قال له :

— دعاه ... لا فائدة ترجى من هذا العذاب .

واشتد التأثير بسونخاتب ، فقال لطاها بانفعال شديد غير

نبرات صوته تغيرا تاما .

— ادع جندك ، وانتقم لمولاك من المجرمين .

وبدت على الملك المضايقة ، فرفع يده بصعوبة ، وقال :

— لا تتحرك يا طاها ، هل هانت عليك أوامرى ياسونخاتب

فى رقادى هذا ! لا قتال بعد الآن ، قولوا للسكينة إنهم بلغوا

غايتهم ، وإن مرزوع الثانى على فراش الموت ، فلا يرجعوا

بسلام .

وسرت رعدة فى جسم الملكة فمالت على أذنه ، وقالت

همسا .

— مولاي ... لا أحب أن أبكى أمام قاتليك ، ولكن

ليظمن قلبك ، فو حق أبويننا . وحق هذا الدم الزكى لانتقم من عدوك انتقاما تتحدث به الأزمان جيلا بعد جيل .
فابتسم إليها ابتسامة خفيفة يعبر بها عن شكره ومودته .
وغسل الطبيب الجرح وسقاه جرعة من دواء مسكن ، ووضع بعض الأعشاب حول السهم ، واستسلم الملك إلى يديه ، ولكنه كان يشعر بدنو أجله وباقتراب الساعة الفاصلة ، ولم ينس في رقاده الوجه الحبيب الذى تمنى لو يودعه قبل النهاية المحتومة ، فلاحت في عينيه نظرات حنين ، وقال بصوت خافت بغير وعى منه إلى ما حوله :

— رادوبيس . . . رادوبيس . . .

وكان وجه الملكة قريبا من وجهه فسمعتة ، وأحست بطعنة نجلاء تخترق شغاف قلبها ، فرفعت رأسها ، وقد أحست بدوار شديد . ولم يلق بالا إلى شعور الآخرين ، فأومأ إلى طاهو ، فبادر الرجل إليه ، فقال له برجاء :

— رادوبيس .

فقال القائد :

— هل آتى بها يا مولاي ؟

فقال بصوته الخافت :

— كلا... احملنى إليها . فى قلبى بقية حياة أريد أن تنفذ فى بيعة .

ووجه طاهو نظرة إلى الملكة فى ارتباك شديد ، فقامت الملكة واقفة ، وقالت بهدوء :

— نفذ مشيئة مولاي .

وسمع الملك صوتها ، وأدرك قوتها ، فقال لها :

— أيتها الأخت ، طالما غفرت لى الذنوب ، فاغفرى لى هذه

أيضا .. إنها رغبة ميت ..

فابتسمت الملكة ابتسامة حزينة . وانحنى على جبينه ولثمته ،

ثم أوسعت للعبيد ...

الوداع

انحدرت السفينة في هدوء متجهة صوب جزيرة بيجة .
والهودج في مقصورتها بحمله الثمين ، يقف الطبيب عند رأسه .
وطاهو ، وسونخاتب عند قدميه . . . وكانت هذه أول مرة يخيم
فيها الحزن على السفينة ، فتحمل مولايها نائما مستسلما يغشى
وجهه ظل الموت . . . وكان الرجلان يلازمان الصمت وعيناها
الحزينتين لا تفارقان وجه الملك الشاحب ، وكان يرفع جفنيه
الثقيلين ، وينظر إليهما نظرة ذابلة ، ثم يعود فيغمضهما في
تراخ . . . ومضت السفينة تدنو من الجزيرة رويدا رويدا حتى
رست إلى سلم حديقة القصر الذهبي .

ومال طاهو على أذن سونخاتب ، وهمس قائلا :

— أرى أن يسبق أحدهنا الهودج حتى لا تؤخذ المرأة

بغنة . . .

ولم يكن سونخاتب في تلك الساعة الرهيبة يبالي شعور

إنسان ، فقال باقتضاب :

— افعل ما بدالك .

ولكن طاهو لم يبرح مكانه ، ولبسته حيرة التردد ، فقال :
— ياله من نبأ لا يدرى الإنسان كيف يؤديه اليها .
فقال سونخاتب بحدة :

— ماذا تخشى أيها القائد ؟ ... ! إن من يبتلى بمثل ما ابتلينا
به لا يعمل حسابا لمخذور ...

قال سونخاتب ذلك ، وغادر المقصورة مسرعا ، وصعد
درجات السلم إلى الحديقة ، واخترق الممشى مهرولا حتى انتهى
إلى البركة ، فاعترضت سبيله الجارية شيث ، وقد دهشت الجارية
لمرآه ، وكانت تعرفه من تلك الأيام الخوالي ، وفتحت فاهها
لتسليمه ، ولكنه قطع عليها السبيل قائلا بسرعة :

— أين سيدتك ؟

فقالت شيث :

— مسكينة سيدتى لا تعرف اليوم لنفسها مستقرا ، وما زالت
تدور بالحجرات ، وتطوف بالحديقة حتى ..
وفرغ صبر الرجل فقاطعها قائلا بحدة :

— أين سيدتك ؟

فقالت دهشة مستاءة :

— فى الحجرة الصيفة يا سيدى .

وأسرع الرجل إلى الحجرة ، ودخل متحنجاً ، وكانت رادوبيس جالسة على كرسي مسندة رأسها إلى يدها ، فلما أحست بالداخل التفتت إليه ، وسرعان ما عرفتة ، فقامت واقفة وكأنها تقفز قفزاً ، وقالت باهتمام وقلق :

— الرئيس سونخاتب ... أين مولاي ...

فقال الرجل الغارق في حزنه بدهول :

— سيأتي عما قليل ...

فضمت يديها إلى صدرها فرحاً ، وقالت بصوت بهيج :

— لشد ما عذبتني المخاوف على سيدي ، لقد بلغتني أنباء

العصيان المحزنة ، ثم انقطع عني كل شيء ، فتركت وحدي إلى

وساوس قلبي ... متى يأتي ياسيدي ؟

وذكرت بسرعة خاطفة أنه لم يتعود أن يرسل رسولا

بين يديه فاعتورها القلق ، وقالت بسرعة قبل أن يبدأ سونخاتب

كلامه :

— ولكن لماذا بعثك إلي ؟

فقال الوزير بحمود :

— صبرا ياسيدي ، فلم يرسلني أحد ، والحقيقة الأسيفة أن

مولاي أصيب

ووقعت هذه الكلمة الأخيرة من أذنيها موقعا غريبا داميا ،
فخلقت في وجه الوزير الكشيبي فزعة ، وصدرت عن صدرها
آهة زفرة حرى مرتعشة ، فقال سونخاتب الذي أفقده الحزن
شعوره .

— صبرا صبرا .. سيصل مولاي محمولا على هودجه كمشيته ،
نقد أصيب بسهم في هذا اليوم المنكود الذي غدا عيداً وأضحى
ماتماً مروعا .

ولم تحتمل المكوث في الحجرة ، فجرت إلى الحديقة
كالفرخة الذبيحة ، ولكنها لم تكد تجاوز العتبة حتى سمرت
قدمها في الأرض ، وثبتت عينيها على الهودج يحمله العبيد
متجهين صوب الحجرة ، فأفسحت لهم الطريق ، وهي تضع يديها
على رأسها المضطرب من هول المنظر ، ثم تبعتهم على الأثر ، وقد
وضعوا الهودج في حرص شديد وسط الحجرة وانسحبوا
خارجا ، وخرج في ذيلهم سونخاتب ، وخلا المكان لها وله ...
واندفعت إلى الركوع إلى جانبه ، وشبكت أصابع يديها وشدت
عليها بقسوة وبحالة عصبية عنيفة ، ونظرت إلى عينيها الساهمتين
الذابلتين ، وقد انقطعت منها الأنفاس ، وجرى بصرها الزائغ
على صدره المضطرب ، فرأت بقع الدم والسهم النافذ ، فاقشعر

بدنها بحالة ألم جنونى ، وصاحت بصوت متقطع من العذاب والفرع :

— أصابوك ... يا للهول !

وكان نائما فى تراخ وهمود ، وقد أتت الرحلة الصغيرة على بقية قواه الآخذة فى الانحلال السريع ، ولكنه حين سمع صوتها ورأى وجهها الحبيب دبّت فيه نسمة حياة رقيقة ، ولاح فى عينيه المظلمتين ظل ابتسامة خفيفة .

ولم تكن تراه إلا هائجا مفعما بالحياة كالعاصفة ، فكادت تجنّ ، وهى تشاهده كمن شاخ وذوى منذ دهر طويل ، وألقت نظرة نارية على السهم الذى أحدث كل هذا ، وقالت بتألم :

— كيف تركوه فى صدرك ؟ .. هل أستدعى الطبيب ؟

فاستجمع قواه الخائرة المشتتة ، وقال بصوت ضعيف :

— لا فائدة .

فلاحت فى عينيها نظرة جنونية ، وقالت بصوت العتاب :

— لا فائدة يا حبيبي ... كيف تقول هذا ! ... هل هانت

عليك حياتنا !

ثم يده فى ضعف شديد حتى مست كفها الباردة ، وهمس

قائلا :

— هي الحقيقة يا رادوييس ، لقد جئت لأموت بين يديك
في المكان الذي أحبيته أكثر من أى مكان في الدنيا ...
فلا تندبني حظنا ، وامنحني صفاء .

— مولاي ، أتنعى إلى نفسك ؟ ! ... يا لساعة الأصيل هذه ،
كنت أنتظرها يا حبيبي بنفس أضناها الشوق وغرر بها الأمل ،
و كنت أرجو أن تجيء حاملا لي بشرى الفوز ، فجئت حاملا
هذا السهم ... كيف لي بالصفاء ؟ !

فازدرد ريقه بصعوبة ، وقال بتوسل وبصوت كالآنين :
— رادوييس تناسى هذا الألم وادنى منى ، أريد أن أنظر إلى
عينيك الصافيتين ...

إنه يريد أن يرى الوجه الصبيح المتألق بالغبطة والسعادة
ليختم بصورته الفاتنة حياته ، أما هي فكانت تعاني آلاما برحاء
لا قبل لإنسان بها ، وكانت تود لو تنفس عن صدرها المضطرم
بالصراخ والعويل والهذيان ، أو تلتمس الشفاء في الجنون العنيف
واصطلاء نيران الجحيم ، فكيف تصفو وتهدا وتطالعه بالوجه
الذى أحبه ، وسكن إليه دون العالمين ... وكان يتابع النظر
إليها برحاء ، فقال بحزن :

— ليست هاتان العينان عينيك يا رادوييس .

فقالَت بأسى وحزن :

— هما عيناى يا مولاي ، ولكن جف ما يمدهما بالنور
والحياة .

— أواه يا رادوييس ألا تريدان أن تنسى آلامك هذا
الساعة إكراما لى . . . أريد أن أرى وجه رادوييس حبيبتى
وأن أستمع إلى صوتها العذب .

ونفذ رجاؤه إلى قلبها ، فكبر عليها أن تحرمه من شيء يريد
فى تلك الساعة السوداء ، وقست على نفسها قسوة شديدة
فبسطت صفحة وجهها واغتصبت من شفقتها المر تعشتين ابتساما
وحنت عليه فى سكون واطمئنان كأنما تحنو عليه ، وهو يرقا
رقاد غرام ، فتبدى على وجهه الشاحب الذابل الرضا
وانفرجت شفاته الباهتتان عن ابتسامة . . .

ولو أنها تركت اعواطفها لما وسعتها الدنيا هذيانا وجنونا
ولكنها نزلت على إرادته العزيرة ، ومألت عينها من وجهه
وهى لا تصدق أن هذا الوجه سيغيب عنها بعد لحظات قصير
إلى الأبد ، وأنها لن تراه فى هذه الدنيا مهما تأملت أو تأوهت
أو سكبت الدمع الحزين ، وأن صورته وحياته ووجهه ستغدو
ذكريات ماض غريب ، هيئات أن يصدق قلبها المكوم أنه كان

يوما حاضرها واستقبالها ، كل هذا لأن سهما مجنونا استقر في هذا الموضع من صدره . . . كيف يستطيع هذا السهم الحقيق أن يقضى على آمال ضاقت عنها الدنيا بأسرها ! .. وتهدت المرأة تنهدا حارا صعد فتات قلبها ، وكان الملك يستفرغ بقية الحياة القلقة في صدره ، المضطربة في أنفاسه ، وقد خارت قواه ووهنت أعضاؤه ، وماتت حواسه وأظلمت عيناه ، ولم يبق منه إلا صدر يضطرب اضطرابا عنيفا ، ويقتتل به الموت والحياة اقتتال القهر واليأس ، وتحلى بغثة على وجهه الألم وفتح فاه كأنما يريد أن يصرخ أو يستغيث ، وأمسك بيدها التي امتدت إليه في فزع لا يوصف ، وصاح بقوة : « رادوبيس أسندى رأسي . . . أسندى رأسي . » وأحاطت رأسه بيديها المرتجفتين وهمت أن تجلسه ، ولكنه شهق شهقة قوية ، وسقط يده إلى جانبه ، وانتهت عند ذلك المعركة الناشبة بين الحياة والموت . وأعادت رأسه إلى وضعها الأول بسرعة وصرخت صرخة فزع شديدة عالية ، ولكنها كانت قصيرة ، ثم انقطع صوتها كأنما مزقت مسالكه ، وتصلب لسانها ، والتجم فكها بشدة وحملت في وجه الذي كان إنسانا بعينين جامدتين ، ثم لم تبدي حراكا . . .

وأذاعت صرختها الخبر الأليم ، فهرع الرجال الثلاثة إلى
الحجرة دون أن تحس بهم ووقفوا صفًا أمام الهودج . وألقى
طاهو على وجه الملك نظرة ذاهلة ، وعلت وجهه صفرة الموت
ولم ينبس بكلمة ، وتقدم سوخاتب من الجثة ، وانحنى في اجلال
عظيم ، وقد أخفاها عنه دمع غزير جرى على خديه ، وتساقط
على الأرض ، وقال بصوت متهرج مزقت نبراته الباكية الصمت
المخيم :

— سيدى ومولاى ، وابن سيدى ومولاى ، نستودعك
الآلهة العلية التى اقتضت مشيئتها أن يكون اليوم بدء رحلتك إلى عالم
الأبدية ، وددت لو أفتدى شبابك الغض بشيخوختى الفاتية ،
ولكنها إرادة الرب التى لا ترد ، فلوداع يا مولاي الكريم .
ومد سوخاتب يده الهزيلة إلى الغطاء ، وسجى الجثة فى أناة .
وانحنى مرة أخرى ، وعاد إلى مكانه بقدمين ثقيلتين ..
وظلت رادويس جاثية ، فى غفوة من الدهول لا تفيق ،
ولا تتحول عيناها عن الجثة ، وقد سرى فى جسمها جمود غريب
كالموت ، فلم تبد حراكا ، ولا بكى ، ولا صرخة ، وظل
الرجال فى وقفتهم منكسى الرؤوس .. إلى أن دخل أحد العبيد
الذين حملوا الهودج ، وقال :

— وصيفة جلالة الملكة .

والثفت الرجال إلى الباب ، فأروا الوصيفة تدخل يبدو
على وجهها أثر الحزن الشديد ، فأنحنوا لها تحية ، فردت المرأة
التحية بإيماءة من رأسها ، وألقت نظرة على الجثة المسجاة ، ثم
ردت ناظرها إلى وجه سونخاتب ، فقال الرجل بصوت
حزين :

— انتهى الأمر أيتها السيدة الجليلة .

فصمتت المرأة برهة كالذاهلة ، ثم قالت :

— ينبغي إذا أن تحمل الجثة الكريمة إلى القصر الفرعوني .

هذه إرادة جلالة الملكة أيها الوزير .

واتجهت الوصيفة نحو الباب ، وأومأت إلى العبيد ، فهرعوا
إليها مسرعين ، فأمرتهم أن يرفعوا الهودج ، وقصد العبيد إلى
الهودج ومالوا إلى قوائمه ليرفعوه ، فانتبهت رادوبيس مذعورة
ولم تكن تحس بشيء مما يدور حولها ، وتساءلت بصوت
مبحوح غريب :

— إلى أين ... إلى أين ؟ ...

وارتمت على الهودج ، فتقدم منها سونخاتب ، وقال :

— إن القصر يريد أن يؤدي واجبه نحو الجثة المقدسة .

فقالَت المرأةُ الذاهلة :

— لا تأخذوه منى . . . انتظروا . . . سأموت على صدره . . .
وكانت الوصيفة تنعالي بنظرِها عن رادوبيس ، فلما سمعت
قولها قالت بخشونة : إن صدر الملك لم يخلق لكي يكون لحدا لإسان .
وانحنى سونغتاب على المرأة ، وقبض على معصمها برقة
ورفعها بهدوء ، وحمل العبيد الهودج ، فتزعت رادوبيس يدها
من بين يديه ، وأدارت رأسها بعنف فيما حولها فلم يبد على
وجهها التائه أنها عرفت أحدا من الحاضرين ، وصاحت بصوت
متقطع كالخشرفة .

— لماذا تأخذونه . . . هذا قصره . . . وهذه حجراته . . .
كيف تسوموننى القهر أمامه . . . إن مولاي لا يرضى عمن
يسىء إلى . . . أيها القساة . . . أيها القساة . . .

ولم تبالها الوصيفة ، فشقت طريقها إلى الحديقة وتبعها
العبيد يحملون الهودج ، وغادر الرجال الحجرة فى خشوع
وصمت ، وكادت المرأة تجن . وجمدت فى مكانها لحظة قصيرة ،
وهمت بالارتفاع وراءهم ، ولكن يدا غليظة أمسكت بذراعيها ،
فحاولت التخلص منها ، ولكن ضاعت محاولتها هباء .

فالتفتت إلى الورااء بعنف وغيظ . فوجدت نفسها وجهها
لوجه أمام طاهو . . .

نهاية طاهو

وبهجت إليه ببطرة غريبة كأنها لا تعرفه ، وحاولت أن تخلص ذراعها ، وانكبت ، لم يمكنها من غايتها ، فقالت له بعنف :
— دعني أذهب ...

فهرز رأسه يمنة ويسرة ببطء ، كأنه يقول لها : كلا كلا ...
وكان وجهه رهيبا مخيفا ونظرة عينيه جنونية ، وتمتم قائلا :
— إنهم ذاهبون إلى مكان لا يجوز أن تلحقهم إليه .

— دعني أذهب لقد خطفوا سيدي .
فأربد وجهه ، وقال لها بأهجة عنيفة كأنه يلقي أمرا عسكريا .

— لا تقاومي رغبة الملكة الحاكمة .
فسكت عنها الغضب في خوف وكفت عن المقاومة .
واستسلمت استسلاما غريبا ، وقطعت جبينها ، ثم هزت رأسها في حيرة كأنها تحاول أن تستجمع قوى إدراكها المشتت الذاهل ،
وحدجته بنظرة غرابة وانكار ، وقالت :
— ألا ترى أنهم قتلوا مولاي ... قتلوا الملك !

وكانت عبارة « قتلوا الملك » تقع من أذنيه موقعا غريبا
مروعا فسكن هياجه ، وقال :

— نعم يارادوبيس ، قتلوا الملك ، وما كنت أحسب قبل
اليوم أن سهما يمكن أن يقضى على حياة فرعون
فقلت ببساطة البله :

— فكيف ندعهم يخطفونه من بعد ذلك ؟ !

فانفجر ضاحكا ضحكة جنونية مخيفة ، وقال :

— أتريدن أن تتبعى أثرهم ؟ .. يالك من مجنونة يارادوبيس
إنك تعمين عن العواقب ، فقد أذهلك الحزن ، اعشى أيتام
الفاتنة ، فالجالسة على عرش مصر الآن امرأة قضيت عليه
بالهوان ، وانتزعت زوجها من بين يديها ، وأهويت بها من سائمة
المجد والسعادة إلى زوايا النسيان والشقاء ... آه سرعان ما تبعث
إليك من يسوقك إليها مكبلة بالسلاسل ، ثم تدفع بك إلى أيدي
جلادين لا يعرفون الرحمة يخلقون شعرك الحريرى ، ويسملون
عينيك السوداءوين ، ويخدعون أنفك الدقيق ، ويصلبون أذنك
الرقيقتين ، ثم يحملونك على ظهر عربة قطعة من البشاعة المشوها
يعرضونك على أنظار الساخطين الشامتين ، ويسير بين يديك
مناد يصيح بأعلى صوته أن انظروا إلى العاهرة المشؤمة التى

أتلفت على الملك نفسه ، ثم أتلفته على شعبه . .

وكان طاهو يتكلم بلمجة تشف عن غل وعيناه تبرقان بنور
خفيف ، ولكنها لم تتأثر بكلامه كأنما حيل بينه وبين حواسها ،
وسهمت إلى شيء غير منظور في هدوء غريب ، ثم هزت منكبيها
في استهانة وبساطة ، فاحتدم في قلبه الغيظ والحنق لبرودها
وذهوها ، واندفع الغضب من قلبه إلى قبضة يده فشد عليها ،
وشعر برغبة في أن يوجه إلى وجهها ضربة هائلة جنونية
فيحطمه تحطيمًا ، ويمتص ناضريه بدشوهه ، وتفجر الدم من مسامه
ومنافذه ، ولبت دقيقة يتفرس في وجهها الهاديء الزاهل ،
ويحاور رغبته الشيطانية ، ولكنها رفعت عينيها إليه دون أن
يلوح فيهما معنى من معاني الحياة ، فاضطرب وتنازل وبدأ عليه
رعب من يضبط متلبسا بجريمة ، فتراخت أصابعه ، وتهد تنهدا
عميقا ثقيلًا ، ثم قال :

— أراك لا تكترئين لشيء .

وكانت لا تلتقي إلى ما يقول بالا ، ولكن تصادف أن قالت
وكأنها تحدث نفسها :

— كان ينبغي أن تتبعهم .

فقال طاهو بغضب :

— كلا... كلا... ما عاد كلانا يصلح للادبنا ، ولان يفتقدنا
بعد اليوم أحد... —

فقاتلت ببساطة وهدوء :

— أخذته منى... أخذته منى... —

فعلم أنها تعنى الملكة ، وهز منكبيه قائلاً :

— لقد استوليت عليه حيا ، واستردته ميتا .

فخدجته بنظرة غريبة ، وقالت له :

— يا أحمق يا جاهل ألا تعلم .. لقد قتلته الخائنة لتستردده .

من من الخائنة ؟

— الملكة ، هى التى أفشت سرنا وأثارت الشعب ، هى التى

قتلت مولاي... —

وكان ينصت إليها فى صمت ، وعلى فمه ابتسامة شيطانية

مباخرة ، فلما انتهت ضحك ضحكته الجنونية المخيفة ، ثم قال :

— أخطأت يا رادوبيس ، ليست الملكة خائنة ولا قاتلة !

وحملق فى وجهها ودنا منها خطوة ، وكانت تنظر إليه بدهشة

وإنكار ، ثم قال بصوت رهيب :

— إن كان يهملك أن تعرفى الخائن ، فما هو ذا يقف أمامك ...

أنا الخائن يا رادوبيس ... أنا ...

ولم يهملها قوله كما كان يتوقع ، ولا بدت عليها اليقظة ،
ولسكنها هزت أسها هزات خفيفة كأنما تريد أن تنفض عن
نفسها الخمول والإحباط ، فاستولى عليه الغضب ، وأمسك بكتفها
بغلظة ، وهزها بعنف شديد ، وصاح بها :

— اصحى ، ألا تسمعين ما لأقول أنا الخائن ... طاهو
هو الخائن ... أنا علة الكوارث جميعا .

وارتعد جسمها بعنف ، وانخفضت انتفاضا شديدا خلصت
به من يديه وتقهقرت خطوات . وهي تنظر إلى وجهه المفرع
بخوف وجنون ، فسكت غضبه وهياجه ، وأحس بتخاذل جسمه
ورأسه ، فأظلمت عيناه ، وقال بهدوء وبلمحة حزينة :

— إني أنطق بكلمات هائلة بكل بساطة ، لأنى أشعر شعورا
صادقا انى لست مع أهل الدنيا ، لقد انقطع ما بينى وبين العالم
جميعا ، ولا أشك فيما أحدثه اعترافى لك من الفرع ، ولسكنها
الحقيقة يارادوبيس ، لقد تحطم قلبى بقسوة شنيعة ، ومزق نفسى
الأم البالغ فى تلك الليلة الجنونية التى فقدتك فيها إلى
الأبد .

وسكت القائد ريثما تهدأ أنفاسه المضطربة ، ثم استعرد

قائلا :

— وانطويت على الألم ، واستوصيت بالتصبر والتجملد ،
واعترمت صادقا أن أؤدي واجبي إلى النهاية ، حتى كان ذلك
اليوم الذى دعوتنى فيه إلى قصرك لتستوثق من إخلاصى ،
فى ذلك اليوم جن جنونى ، واشتعلت النار فى دمائى ، فهديت
هذيانا غريبا ، واستأقنى الجنون إلى ~~عدو متربص~~ ، فأفضيت له
بسرنا ، وهكذا انقلب القائد الأمين خائنا غادرا يطعن من
وراء الظهور .

وأهاجته الذكرى فتقلص وجهه ألما وخزيا ، ونظر إلى
وجهها الفزع بقسوة ، فعاوده الغضب والحقد ، وصاح بها :
— أيتها المرأة المهلك المدمرة ، لقد كان جمالك لعنة على
كل من رآه ، لقد عذب قلوبا بريئة ، وخرب قصرا عامرا ،
وزلزل عرشا مكينا ، وأثار شعبا أمينا ، ولوث قلبا شريفا ...
إنه لشؤم ولعنة ...

وسكت طاهو ، وما يزال الغضب يغلى فى شرايينه ، ورآها
كصورة للعذاب والخوف ، فأحس بارتياح ولذة ، وتمتم
قائلا :

— ذوقى العذاب والهوان ، وانظرى الموت فما ينبغى لأحدنا
أن يحيا ، وقد مت أنا منذ زمن بعيد ، ولم يبق لى من طاهو إلا

ثيابه المزركشة المجيدة ، أما طاهو الذى اشترك فى غزو النوبة ،
وأبلى بلاء حسنا استحق له ثناء بيبي الثانى ، طاهو قائد حرس
مرزوع الثانى ، وصفيه ، ومشيره ، فلا وجود له . . .

وألقى الرجل نظرة سريعة على ما حوله ، وبدأ على وجهه
الضيق والجزع الشديد ، ولم يعد يحتمل السكون المطبق ،
ولا رؤية رادوينس التى استحالت تمثالا جامدا . . . فنفخ فى
الهواء بقوة وسخط واشمئزاز ، وقال :

ينبغى أن ينتهى كل شىء ، ولكنى لن أحرم نفسى من
العقاب الصارم ، سأذهب إلى القصر ، وأدعو كل من يحسن
بى الظن ، ثم أعلن جريمتى للبلاد ، وأمزق الستار عن الخائن
الذى طعن مولاه ، وهو يساره ، وأنزع النياشين التى تحلى
صدرى الآثم ، وأرمى بسيفى ، ثم أطقن قلبى بهذا الخنجر . . .
فالوداع يا رادوينس ، والوداع أيتها الحياة التى تستأديننا فوق
ما تستحق . . .

نطق طاهو بهذه الكلمات ، ثم ذهب . . .

النهاية

ولم يكد طاهو يغادر القصر حتى رسا القارب الذي يحمل
بنامون بن يسار إلى سلم الحديقة . وكان الشاب منهوك القوى
شاحب اللون منهقر الثياب . قد هدم أعصابه ما رأى من
اضطراب المدينة وهياج الناس وثورة النفوس ، وكان بلغ
مسكنه بشق الأنفس ولاقى في طريق العودة ما هوّن عليه
ما صادفه في الذهاب . وتنفس الصعداء حين وجد نفسه يسير
في ممرات حديقة قصر بيجة الأبيض ، والحجرة الصيفية تعترض
سبيله عن بعد قريب ، وانتهى به المسير إلى الحجرة ، فاجتاز
عتبتها ، وهو يظن أنها خالية . ولكنه ما لبث أن أدرك خطأه .
ورأى رادوبيس جالسة في استرخاء على ديوان تحت صورة
وجهها الرائعة ، وشيث متربعة عند قدميها يشملهما سكون غريب ،
فتردد هنيهة ، وأحست شيث بمقدمه والتفتت إليه رادوبيس ،
ثم قامت الجارية وانحنى له تحية وغادرت الحجرة ، وتقدم
الشاب من المرأة ، وقد لفه الفرح ، فلما أن تبين وجهها عن
كشب ركدت حركة نفسه ، وأصابه الوجوم والغم ، ولم يشك

فى أن أخبار الخارج المحزنة قد بلغت آذان معبودته ، وأن أنبله
الآلام التى تطحن الناس انعكست على وجهها الجميل ، فألبسته
هذا الرداء الغليظ المغبر من الكدر . ور كم بين يديها ، ثم مال
على حاشية ثوبها فقبلها بحنان ، ونظر إليها بعينه الصافيتين نظرة
إشفاق كأنه يقول لها : « فداؤك نفسى » ، ولم يغب عنه ما بدأ
على وجهها ، لدى رؤيته من الارتياح ، تخفق قلبه خفقة السعادة ،
وتخضب وجهه بالاحمرار ، وقالت له رادوبيس بصوت
ضعيف .

— غبت طويلا يا بنامون .

فقال الشاب :

— لقد شقت طريقى وسط بحر متلاطم من الخلق الغاضبين ،

~~إن أبى اليوم تغلى وتفور وتنثر الشطايا المخرقة ، فتملاً الجح~~

هما ...

ثم دس الشاب يده فى جيبيه وأبرز لها قارورة صغيرة ،

فتناولتها بيدها . وعقدت عليها كفها ، وأحست بهرودتها تسرى

فى جسمها وتستقر فى قلبها ، وسمعته يقول لها :

— أرى أنك تحملين نفسك فوق ما تحتمل .

فقال له :

— إن الأحزان تنتقل بالعدوى .

— ولكن رفقا بنفسك ، فما ينبغي لك أن تستسلي كل الاستسلام إلى الحزن . . . ليتك يا مولاتي تهاجرين إلى أمبوس ردحا من الزمن ريثما يعود الهدوء إلى هذه البقاع .

وكانت تسمع إليه في اهتمام خادع ، وتنظر إليه بغرابة ، نظرتها إلى آخر حي من أهل هذه الدنيا تقع عليه عيناها لآخر مرة ، وكانت فكرة الموت قد استولت عليها استيلاء جعلها تشعر كأنها غريبة عن هذه الدنيا . واختنقت عواطفها اختناقاً لم تحس معه بأى رحمة نحو الشاب الراكع أمامها ، الهائم فى عالم الآمال بعينين مغمضتين عن المصير الذى ينتظره عن كشب . . . وظن بنامون أنها تدير فكرته فى نفسها ، فلعب بقلبه الأمل واستفزه الطمع ، فقال بحماس :

— أمبوس يا مولاتي بلد السكينة والجمال ، لا ترى العين فيها إلا سماء صافية وطيراً لاهياً ، وبطاً سابحاً ، وأخضر ناضراً . . . وسيمحو جوها المشرق السعيد الآلام التى آثارتها فى نفسك الرقيقة أبو الحزينة الغاضبة . . .

وسرعان ما سئمت حديثه ، واتجهت أفكارها إلى القارورة العجيبة ، وأحست بشوق إلى النهاية ، فبحثت عيناها الموضع

الذى شغله الهودج منذ حين ، وصرخ قلبها أن هاهنا ينبغي أن
تختتم حياتها ، واعتزمت أن تتخلص من بنامون ، فقالت له :
— إن ما تعرضه علىّ جميل يا بنامون ، فدعني أفكر وحدي
رويدا .

فأضاء وجه الشاب بالفرح والامل ، وسألها :
— هل يطول انتظاري ؟
فقالت :

— لن يطول انتظارك يا بنامون .
فلثم الشاب يدها ، وقام واقفا ، وغادر الحجرة ، ودخلت
شيث على الأثر ، وكانت رادوييس تهم بترك مجلسها ، فلما رأت
الجارية ابتدرتها قائلة لتخلص منها :
إلى بأبريق من الجعة .

فذهبت الجارية إلى القصر ، وكان بنامون قد اتجه إلى البركة
واطمان إلى مقعد على حافتها ، وكان في تلك الساعة يشعر
بالسعادة والغبطة ، ويدنى إليه الامل غايته في أن يذهب بمعبودته
إلى أمبوس بعيدا عن الشقاء الخيم على أبو فتخلص له . ويسكن
إليها . ودعا الآلهة أن تهبط إليها في وحدتها وتلهمها الرأى
السديد والحل السعيد . . .

ولم يطق الجلوس طويلا ، فقام يسير الهوينى حول البركة .
ولما أتم دورته رأى شيئا تحمل أبريقا ، وتتجه بسرعة إلى
الحجرة ، فتبعها بعينيه حتى غيبها الباب ، وأراد أن يعاود الجلوس
مرة أخرى ، ولكنه لم يكدر يفعل حتى سمع صرخة مدوية آتية
من داخل الحجرة فانتفض واقفا ، وقد انخلع قلبه في صدره .
واندفع جريا إلى مصدرها ، فرأى في وسط الحجرة رادوبيس
ملقاة على الأرض . والجارية تجثو على ركبتيها إلى جانبها .
وتنكب عليها تناديا . وتجس خديها وكفيها . . . فهرع إليها
بساقين مرتجفتين ، وقد اتسعت عيناه ولاح فيهما الطلع والفرع .
وجثا إلى جانب شيث وأمسك بكف رادوبيس بين كفيه .
فشعر ببرودتها ، وكانت كالنائمة إلا أن وجهها شاحب تمازجه
زرقة خفيفة ، وقد انفرجت شفتاها الباهتتان وبعثرت خصلات
شعرها الأسود على صدرها ومنكبيها ، وانسابت ضفائر منه
على البساط ، فأحس بجفاف حلقه واختناق أنفاسه ، وسأل
الجارية بصوت مبحوح :

— ماذا بها يا شيث . . . لماذا لا تجيب ؟

فأجابت المرأة بصوت كالعويل :

— لا أدري يا سيدى ، فلقد وجدتها عند دخولي الحجرة كما

تراها الآن ، فتأديتها فلم تجب ، وأسرعت إليها أهزها فلم تنتبه ،
ولم تبد عليها اليقظة ، أواه يا مولائي ... ما لك ... ما الذى
أعتورك فحولك إلى ما أرى ...

ولم ينبس بنامون بكلمة ، وجعل يطيل النظر إلى المرأة
الملتقاة فى سكون رهيب ، وإن عينيه لتدوران فيما حولها إذ
عثرتا تحت مرفقها الأيمن بالقارورة الجهنمية منزوعة السدادة ،
فشهق شهقة عنيفة ، والتقطها بأصابعه المرتعدة ، فلم يجدها إلا أثارا
لاصقة بباطنها ، وردد بصره بين القارورة ووجه المرأة ، فتبين
له الحق ، وسرت فى جسمه التحيل رجفة مزقت جوارحه ، فأن
أنينا موجعا لفت إليه الجارية ، وقال بصوت فزع :

— يا للهول ... يا للرعب !

فصوبت إليه الجارية عينيها ، وسألته بلمغة وذعر :

— ماذا يهولك ويرعبك ... تكلم فإنى أكاد أجن من
الحيرة ! !

ولكنه لم يأبه لها ، وقال يحادث رادوييس ، وكأنها تسمعه
وتبصره .

— لماذا انتحرت ... لماذا انتحرت يا مولائي ؟

فصرخت شيث وصكت صدرها بيديها ، وقالت .

— ماذا تقول ؟ كيف علمت أنها انتحرت يا هذا ؟
فرمى القارورة بعنف ، فاصطدمت بالحائط وتحطمت
قال بذهول وحيرة :

— لماذا أزهقت نفسك بهذا السم ؟ .. ألم تعدني بأن تفكرى
جديا فى اصطحابى إلى أمبوس بعيدا عن أحرار الجنوب ..
أ كنت تخدعيتى ريثما تزهقين روحك ؟

فنظرت الجارية إلى حطام القارورة ، وقالت بدهشة :

— من أين لمولائى بالسم ؟ فجز منكبيه يأسا ، وقال :

— أتيت لها به بنفسى . فتولاها الغيظ ، وصاحت به :

— كيف تأتى به يا شقى ؟ !

— لم أكن أدرى أنها تريد لتزهق به نفسها ، لقد خدعتنى
كما فعلت بى الآن .

فتحولت عنه يائسة ، وأفحمت فى البكاء ، وانكبت على قدمى
مولاتها تقبلهما وتغسلهما بدموعها ، وغشى الشاب ذهول
فتحجرت عيناه ، وثبتت على وجه رادوبيس الساكن سكون
الأبدية ، وكان يعجب فى ذهوله كيف يلحق العدم بمثل هذا
الجمال الذى لم تشرق الشمس على مثله من قبل ، وكيف تسك
الحوية الفائضة الملهية ، وتكتسى بهذا الالهاب الشاحب الآن